موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

نسخة
منقحة

المعمودية

في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية

دراسة للعقيدة والطقس في القرون الخمسة الأولى

www.coptology.com

Coptology

المعمودية

في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية

دراسة للعقيدة والطقس في القرون الخمسة الأولى

الكتاب الأول

دكتور

جورج حبيب بباوي

دكتوراه الفلسفة – كمبردج

أكتوبر ٢٠١٢

www.coptology.org

جدول المحتويات

إهداء إلى شهيد الوطن والكنيسة نيافة الحبر الجليل الأنبا صموئيل أسقف الخدمات العامة والاجتماعية..... ٧
كلمة الناشر ٩
مقدمة المؤلف ١٠
الجزء الأول ١١
الفصل الأول: المصادر القديمة..... ١٢
الفصل الثاني: قيمة هذه المصادر ٢٥
أولاً: من الناحية التاريخية..... ٢٥
ثانياً: من الناحية اللاهوتية والطقسية ٢٨
الفصل الثالث: لماذا ظهرت الطقوس في الكنيسة؟..... ٣٠
الفصل الرابع: الأساس اللاهوتي للطقوس في العهد القديم ٣٣
الفصل الخامس: طقس المعمودية في العهد الجديد..... ٣٩
أولاً: حياة المسيح أساس الطقس..... ٣٩
ثانياً: المعمودية طقس الانضمام إلى جسد المسيح..... ٤٢
الفكرة الفلسفية غير اللاهوتية وراء رفض معمودية الأطفال..... ٤٧
ثالثاً: المعمودية والإيمان..... ٥١
رابعاً: المعمودية ختان العهد الجديد..... ٥٣
خامساً: الترتيب الطقسي الخاص بالمعمودية في العهد الجديد..... ٥٥
الفصل السادس: الاعتراف بالإيمان في العهد الجديد..... ٥٨
الجزء الثاني..... ٦١
الفصل الأول: الإعداد لقبول المعمودية..... ٦٢

الموعوظون ٦٢
١- مَن هم الموعوظون؟ Κατηχυμενος..... ٦٢
٢- في أي سن كان يُقبل الموعوظ؟ ٦٤
٣- ما هي مدة تعليم الموعوظ؟..... ٦٤
٤- ما هي الموضوعات التي كانت تُدرس للموعوظ؟ ٦٥
٥- درجات الموعوظين:..... ٦٦
أ-السامعون ٦٦
ب – الراكعون: ٦٦
جـ - المستنيرون أو الذين سيعمدون:..... ٦٧
الفصل الثاني: الاستعداد للمعمودية والطقوس الأخيرة قبل التعميد ٦٨
الصوم:..... ٧٢
تسليم قانون الإيمان:..... ٧٢
يسوع هو الرب: Κυριος Ιησους..... ٧٣
الاعتراف بالإيمان في المصادر التالية للعهد الجديد ٧٦
الآباء الرسوليون..... ٧٦
القديس إيريناوس ٧٩
القديس هيبوليتوس..... ٨١
رسالة الرسل Epistula Apostlorum..... ٨٢
الممارسة الطقسية للاعتراف بالإيمان في القرن الثالث ٨٢
متى كان يتم الاستجواب؟ ٨٤
متى يتم الاعتراف؟..... ٨٤
العلاقة بين صيغ الإيمان السابقة والاستجواب في الماء ٨٨

الفصل الثالث: عصر قوانين الإيمان ٩٧
قاعدة الإيمان وقانون الإيمان: ٩٩
قوانين الإيمان قبل نيقية في الإسكندرية ١٠١
قانون إيمان الرسل: ١٠٢
أسماء قانون الإيمان في المصادر القديمة: ١٠٣
الفصل الرابع: التسليم السري ١٠٥
الفصل الخامس: العرَّاب أو الإشبين ١٠٩
الفصل السادس: زمان ومكان المعمودية ١١١
زمان المعمودية: ١١١
مكان المعمودية من الأنهار إلى الكنائس: ١١٣
الفصل السابع: أسباب تأجيل المعمودية في القرون الأولى ١١٤
السبب الأول: هو عدم الإسراع: ١١٤
والسبب الثاني: هو الإحساس بمشقة الحياة مع المسيح: ١١٤
والسبب الثالث: كان الخوف من السقوط في الخطيئة بعد المعمودية: ١١٥
والسبب الرابع لتأجيل المعمودية كان انتظار قسٍ حَسن السيرة: ١١٥
السبب الخامس: الانتظار حتى سن البلوغ: ١١٧
الفصل الثامن: الأسماء اللاهوتية للمعمودية ١١٨
المعمودية هي الولادة الثانية: ١١٨
الفصل التاسع: الطقوس التي تسبق المعمودية جحد الشيطان ١٢٤
أولاً: جحد الشيطان ١٢٤
الشرح اللاهوتي لكلمات الجحد: ١٢٧
ثانياً: الاتجاه نحو الغرب ثم الشرق: ١٣٠

تعليم آباء الكنيسة الجامعة عن الاتجاه نحو الشرق: ١٣٦
الاتجاه للشرق والمعمودية: ١٣٨
ثالثاً: العهد والالتصاق بالمسيح ١٣٩
رابعاً: الدهن بعد الجحد ١٤١
الفصل العاشر: المعاني اللاهوتية للطقوس التي تسبق التغطيس..... ١٤٣
أولاً: حركات الجسد: ١٤٣
أ- الرأس ١٤٣
ب— اليدين: ١٤٤
ج- التحول من الغرب إلى الشرق: ١٤٥
د- السجود: ١٤٦
ثانياً: الرموز الخاصة بالمياه عند الآباء وارتباطها بالشرح اللاهوتي والطقسي للمعمودية: ١٤٧
١- الآباء والخلق الجديد: ١٤٩
٢- الطوفان: ١٥٥
٣- عبور البحر الأحمر: ١٥٧
الآباء وعبور البحر الأحمر: ١٦٠
٤- عبور نهر الأردن: ١٦٤
الأردن وإيليا وأليشع ١٦٨
الأردن ونعمان السرياني ١٦٨
معجزات العهد الجديد والمعمودية ١٧٦
معجزة بيت حسدا: ١٧٦
شفاء المولود الأعمي: ١٧٨

الفصل الحادي عشر: تقديس مياه المعمودية ١٨٠
تمهيد: ١٨٠
لماذا تُقدَّس المياه؟..... ١٨٠
معمودية المسيح كأساس لاهوتي لتقديس المياه: ١٨٢
الصليب والقيامة قوة تقديس مياه المعمودية:..... ١٨٥
المعنى اللاهوتي والطقسي لتقديس مياه المعمودية: ١٨٧
التحول الذي يحدث في المياه: ١٩٠
الفصل الثاني عشر: التغطيس ١٩٢
تمهيد:..... ١٩٢
المعاني المرتبطة بالتغطيس ١٩٤
أولاً: الإيمان بالثالوث:..... ١٩٤
ثانياً: التغطيس هو موت وقيامة وتجديد بالروح القدس
في نفس الوقت: ١٩٥
دور الطقس في شرح عمل الآب والابن والروح القدس في التغطيس: ١٩٧
التغطيس في المعمودية عُرس الله والكنيسة الذي أخذ قوته من ميلاد المسيح من
العذراء: ٢٠٣
الحالات التي سمحت فيها الكنيسة بالرش أو السكب: ٢٠٤

إهـداء

إلى شهيد الوطن والكنيسة

نيافة الحبر الجليل الأنبا صموئيل

أسقف الخدمات العامة والاجتماعية

لقد تمنيت يا سيدنا أن ترى هذه الدراسة في شكلها العربي بعد أن رأيتها بلغات أخرى... وأنت صاحب الفضل الأول في صدور هذه الدراسة لأنها ثمرة من ثمرات الدراسة في جامعة كامبريدج التي ثابرت لكي تحصل منها على المنحة الدراسية التي بدونها كنت سأعجز عن تقديم ما قدمته...

أنت أبٌ بين الآباء، وراعٍ عظيم بين رعاة الكنيسة الجامعة، وراهب فاضل لم نسمع منك كلمة سوء أو سعاية أو شكوى في أحلك المواقف... فأنت بحق عظيم من عظماء كنيسة مصر، وعظيم في ملكوت ربنا يسوع المسيح.

لقد عشت مطعوناً... بالإشاعات والاتهامات... وأخيراً تعمدت بدمك الطاهر حيث حرصت أن تكون حاضراً رمزاً للسلام والأُلفة والوحدة الوطنية... وهناك قدمت حياتك من أجل مصر ومن أجل وحدتها... وبعد معمودية الدم لا توجد معمودية أعظم... وسوف نراك في أبهى جمال الأبدية وفي معية القديسين... أما الذين قالوا عنك السوء فسوف يُغطيهم ظلام المذمة. وعار الوقيعة وسوء الكراهية...

لقد آمنت بالمعرفة طريقاً للتحرر من الجهل، وبالمحبة قوة دافعة لكل ما هو جليل وباقٍ... وها أنت الآن تعيش في عالم المعرفة الحق وملكوت المحبة حيث لا يدخل عندك إلا الذين ولدوا من معاناة المحبة وطهارتها... أي الذين ولدوا من الله... لأن الله محبة...

والآن وبعد معموديتك القانية سوف ترى أننا نسير على ذات درب الآباء الذي سلكت فيه قبلنا... لكي يكون لنا معك ومع قديسي مصر وشهدائها النصيب الأبدي...

ابنك

جورج حبيب بباوي

كلمة الناشر

حاجتنا إلى العودة إلى مصادر الأرثوذكسية وينابيعها صارت أكثر من ذي قبل، فنحن نعيش في أيام تضاربت فيها الأفكار وكثر فيها اللغط واشتدت فيها نزعات مذهبية تريد أن تحولنا عن الأرثوذكسية، لكن استحالة ابتعادنا عن الأرثوذكسية مصدرها الأساسي ليس فقط صلابة الإيمان وإنما صلابة الأرثوذكسية نفسها، التي شيدت على المسيح له المجد صخر الدهور كلها والرسل والآباء وشهداء كتبوا العقيدة بدمائهم وحفظوا الطقوس التي تسلموها من الآباء.

لهذا تصدر هذه الدراسة التي تجيء في أوانها لتضع أول لبنة في بناء ضخم كبير، وهو سلسلة المصادر التي ستصدر لكي تضع بين يدي القارئ القبطي مجموعة من الدراسات العلمية والتاريخية في العقيدة والطقس تعتمد على آباء الكنيسة الجامعة قبل الانقسام. وتهدف هذه السلسلة إلى خلق مكتبة من المراجع التي يمكن أن يعود إليها القارئ والباحث ليجد فيها ما يكفيه من معلومات ودراسات تُعينه على البحث والدراسة. وتهدف هذه السلسلة أيضاً إلى رد الحياة الأرثوذكسية إلى أساسها الثابت المتين وهو العقيدة والطقس حتى لا تختلط المفاهيم أو تتوه الأهداف، وتتحول الحياة الأرثوذكسية إلى مجموعة من القواعد الأخلاقية الجيدة يمكن لمن لا يعرف الأرثوذكسية بالمرة أن يدَّعي الانتساب إليها.

إلهنا الصالح الذي وضع في قلوبنا الاهتمام بنشر التراث الكنسي وترجمات الآباء وتقديم كل ما هو ممكن من أمهات الكتب الكنسية، يبارك هذه البداية الصالحة ويعوض كل من له تعب في ملكوت السموات.

مقدمة المؤلف

المعمودية هي باب دخول الكنيسة الجامعة، وهي الباب الذي دخلنا منه جميعاً وبواسطته عبرنا إلى الأسرار الأخرى... ومن هنا، أي من جُرن المعمودية يبدأ كل شيء... الولادة الروحية، معرفتنا بالعقيدة، ممارستنا للطقس الذي يلازمنا طوال أيام غربتنا في هذه الدنيا. وكل بداية صحيحة لابد وأن تبدأ بالمعمودية، ولابد أن تعود إليها، فهي رحم الكنيسة الجامعة الذي يُولد منه كل أبناء الله.. وهكذا نعود إلى المعمودية لندرس كيف كانت الكنيسة تمارسها. وقد قسمنا هذه الدراسة إلى:

* المعمودية في الكنيسة الواحدة الجامعة قبل الانقسام.
* الميرون في الكنيسة الواحدة الجامعة قبل الانقسام.
* المعمودية والميرون في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية عبر العصور.

وقد شئنا أن نقدم دراستنا عن المعمودية في الكنيسة الجامعة حتى يسهل علينا دراسة المعمودية في الكنيسة القبطية، وحتى نستطيع أن نتعرف من خلال الإلمام بالتراث الثابت في القرون الخمسة الأولى على قِدم وأصالة الطقس القبطي. وقد التزمنا بتقديم كل ما هو ثابت وأصيل عند آباء الكنيسة الجامعة فلا يجب أن نقدم معرفة كنيسة من أي نوع وليست معروفة وثابتة عند الآباء... كما التزمنا بمراجعة كل الترجمات العربية التي ظهرت لآباء الكنيسة والتحقق من دقتها قبل استخدامها.

الرب الذي أعاننا، يكمِّل مسيرة هذا العمل ويعطي لكل أحد جزاء أتعابه.

د. جورج حبيب بباوي

الجزء الأول

الفصل الأول

المصادر القديمة

نظراً لأن المراجع الخاصة بالطقوس تعتمد على عدة مصادر قديمة رأينا أن نقدمها حسب الترتيب الأبجدي، وليس حسب التتابع التاريخي.

* *Abercius* أسقف مدينة هيرابوليس في القرن الثاني وقد ترك لنا نقشاً على الحجر في غاية الأهمية.

* *Acts of Apollonius* ضابط بالجيش الروماني أُستشهد سنة ١٨٠ في روما، نشر يوسابيوس المؤرخ قصته في تاريخ الكنيسة ٥: ٢١ وعُثر على قصة استشهاده باللغة الأرمينية:

F.C. Conybeare, (Monuments of Early Christianity), London, 1894.

* *Acts of the Apostles* وهي قصص قديمة في كرازة الرسل أهمها قصة تكلا *Thecla* تلميذة بولس الرسول. تعود هذه القصص إلى عصر ما قبل نيقية بالتأكيد وإن كان هناك شك في أنها كُتبت في عصر الرسل إلا أنها مصدر غني جداً حافل بالإشارات إلى طقوس الكنيسة والعادات المسيحية القديمة. وتوجد عدة طبعات أفضلها الطبعة المعروفة باسم: *Acta Sanctorum.*

* *Acts of Eugenia* تعود إلى القرن الثالث نشرها الآباء *Bollandists* وأعاد نشرها *F.C. Conybeare* في نفس المرجع السابق.

* *Acts of Baul & Thecla* وحسب القصة هي تلميذة بولس الرسول نشرها الكتاب السابق.

* *Acts of Scillitan Martyrs* تعود إلى القرن الثاني ، نشر النص.

J.A. Robinson, (Passion of St. Perpetua), Cambridge, 1897.

* *Acts of Xanehippe* وآخرين تعود إلى القرن الثاني، ومن المؤسف أن الغنوسيين عبثوا بالنص وأدخلوا فيه عقائدهم ، نُشر النص كاملاً في كتاب:

M.R. James, (Apocrypha Apocrypha Anecdota), Cambridge, 1897.

* *Africanus, Julius* أحد مؤرخي القرن الثالث ويُعد كتابه أهم مرجع استفاد به يوسابيوس القيصري في كتابة مؤلفه الكبير "تاريخ الكنيسة"، وقد ضاع الكتاب تماماً وبقيت الشذرات التي اقتبسها يوسابيوس.

* *Analecta Ante-Nicene.* وهي ثلاثة مجلدات تحتوي على أهم الوثائق الخاصة بالقرون الثلاثة الأولى نشرها:

C.J. Bunsen, (Christinanity and Mankind), London 1854-7.

* *Apollinaris* أسقف هيرابوليس حوالي سنة ١٧١م. أشار إليه يوسابيوس المؤرخ أكثر من مرة ونُشرت الشذرات الباقية في كتابه *M.J. Routh, (Religuiae Sacrae),*

* *Apostolic Canons* وتُعرف عندنا باسم "قوانين الرسل" وهي حسب النص اليوناني ٨٤ قانوناً وقد أُضيفوا إلى كتاب معروف باليونانية باسم:

Apostolic Constitutions أي المراسيم الرسولية، وهو كتاب جُمع في القرن الرابع وأفسد الأريوسيون نصه وأدخلوا عليه عبارات أريوسية كثيرة . وكتاب المراسيم الرسولية هو دمج لكتابين أقدم منه بكثير، الأول هو النص السرياني للدسقولية *Didascalia*

والكتاب الثاني المعروف باسم *Dicache* أو تعليم الإثنى عشر مع القوانين الرسولية. ويمكن الإطلاع على المقدمة الهامة التي كتبها:

C.J. Hefele, A History of the Christian Councils.

والنص القبطي يسمى *Egyptian Church order* وهو النص الصعيدي للقوانين الرسولية ٣١-٦٢ ونشر النص الصعيدي في كتاب ***P.De Lagarde,*** *(Aegyptiaca), Gottingen* ونشر الترجمة الإنجليزية المرسل الإنجليزي H.*Tattam* في كتابه: *(Egyptian Church Order).* ثم نُشر النص البحيري مع العربي والأثيوبي وغيّر اسم الكتاب إلى

G. Horner, (The Statues of the Apostles), London, 1904.

وهذه الطبعة الأخيرة تُعد من أهم الطبعات لأنها تحتوي على النص الأثيوبي مع ترجمة إنجليزية، وقيمة النص الأثيوبي أنه يحتوي على نص الصلوات مع القوانين وليس القوانين فقط كما هو الحال في النص اليوناني أو القبطي. والدسقولية الرسولية كتاب يجمع عدّة نصوص وإضافات، وأقدمها بلا شك هو النص السرياني القصير وله ترجمة لاتينية، وجمع النص السرياني مع إضافات أخرى ونُشر في القرن الرابع باسم المراسيم. والنص القبطي في غاية الأهمية، ولكنه ضاع، وظلت الترجمة العربية التي نشرها الدكتور وليم سليمان قلادة، باقية.

* النص السرياني عن مخطوطة تعود إلى القرن العاشر نشره *P.De Lagarde* ونشر شذرات النص اللاتيني *E.Hauler* عن مخطوطة تعود إلى القرن الثالث ثم أُعيد نشر النص السرياني كاملاً مع ترجمة لمدام *Gibson* وترجمة فرنسية *Nau* وقد تُرجم نص مدام *Gibson* إلى اللغة اللاتينية فنشر العالم الإنجليزي *Connolley* الترجمة اللاتينية مع ترجمة إنجليزية وأضاف إليها حواشي على قدر كبير من الأهمية في كتابه المشهور

Bidascalia Apostolorum أما النص الأثيوبي فقد نشره العالم الإنجليزي *J.M.* *Harden, The Ethiopic Didascalia*.

* *Aristides* في أثينا وهو أحد المدافعين عن الإيمان (راجع يوسابيوس المؤرخ ٤:٢، ٣). وقد عُثر على النص الأرمني كاملاً في سنة ١٨٧٨م. في مكتبة القديس لعازر في البندقية ثم عُثر على النص السرياني كاملاً في سنة ١٨٨٩ في دير القديسة كاترين بسيناء ويعود هذا الدفاع إلى حوالي سنة ١٣٨ وهو مقدم إلى الإمبراطور أنطونيوس بيوس *Antonius Pius* وقد نُشرت الترجمات الآتية:

- *J.R. Harris, (The Apology of Aristides).*
- *J.A. Robinson, (Texts and studies I), Cambridge 1893.*
- *D.M. Kay, The Apology of Aristides.*

* *Arnobius* وهو في شمال أفريقيا، كتب دفاعه في سبعة كُتب في الفترة (٣٠٣-٣١٣) ذكره القديس جيروم في كتابه مشاهير الرجال ودرس على يديه المدافع المشهور لاكتانتيوس *Lactantius* راجع الترجمة الإنجليزية في مجموعة : ***ANF*** *H.Bryce and H, Campbell Vol 16-401-572.*

Athenagorus المدافع، وكتب دفاعه المشهور عن المسيحيين في الفترة (١٧٠-١٧٢) موجه إلى الإمبراطور ماركوس أوريليوس وإبنه لوسيسو أوريليوس كومودوس. أشار إليه ميثودوسيوس في مقالته عن القيامة (١:٣٦)، الترجمة الإنجليزية في مجموعة : *ANF 12,129 B.P. Pratten Vol.* وقد ترجم الدفاع نيافة الأنبا غريغوريوس وهي ترجمة عربية جيدة.

* *Barnabas* وهي رسالة برنابا منسوبة إلى الرسول برنابا، وبكل يقين كُتبت في الإسكندرية لأنها معروفة لكل من أكليمنضس وأوريجينوس. وهناك تقليد قبطي قديم يقول أن الرسول برنابا جاء إلى مصر، وهناك اختلاف حول الفترة التي كُتبت فيها ولذلك توضع في الفترة ما بين (٧٠-١٥٠). وهناك أيضاً مقدمة جيدة مع ترجمة إنجليزية

في مجموعة *Apostolic Fathers, London, 1891* التي أشرف على إصدار العالم الإنجليزي الأسقف ***Lightfoot*** وقد نُشرت ترجمة إنجليزية جديدة:

J.A. Kleist, (The Letter of Barbabas) ونُشرت النور مع رابطة الدراسات اللاهوتية ترجمة عربية جيدة للبطريرك إلياس معوض بطريرك أنطاكية للروم الأرثوذكس، ونص آخر نشرته الكلية الإكليريكية بطنطا.

* *Canons of Hippolytus* وهي قوانين أبوليدس وكاتبها هيبوليتوس وقد سمعه العلامة أوريجينوس عندما زار روما في سنة ٢١٢. وقد أُستشهد هيبوليتوس في سنة ٢٣٥. ومن أهم كُتبه التقليد الرسولي وهو أقدم ما وصلنا عن قواعد العبادة والخدمات الكنسية، ويعود إلى بداية القرن الثالث وربما أقدم من القرن الثالث بكثير، ويتضمن هذا الكتاب طقس رسامات درجات الكهنوت الثلاثة ثم القداس والمعمودية. وقد ضاع الأصل اليوناني للكتاب وظلت شذرات منه معروفة باليونانية أدخلها ناسخ كتاب *Apostolic Constitutions* لكن ظل كتاب التقليد الرسولي معروفاً بالقبطية واللاتينية والعربية. والترجمة اللاتينية تعود إلى القرن الرابع على الأقل وقد اكتسب التقليد الرسولي قوة ومكانة في الشرق، الأمر الذي دفع بعض علماء الآباء إلى اعتباره من أصل شرقي (الإسكندرية – أنطاكية) وعُرف التقليد الرسولي في مصر باسم قوانين أبوليدس (النص العربي). وقد عُثر على النص الأثيوبي في سنة ١٦٩١، نشره العالم الألماني *J.Ludolf* وتُعد الطبعة الإنجليزية التي نشرها العالم ديكس الإنجليزية من أهم الطبعات الموجودة حالياً:

G.Dix, (The Apostolic Traditon), London, 1948.

* *Clement of Alexandria* واسمه بالكامل طيطوس فلافيوس أكليمنضس *Titus* Flavius Clemens وُلد حوالي (سنة ١٥٠) في أثينا ثم استقر في الإسكندرية ودرس على يدي الأستاذ السكندري *Pantaenus* بانتينوس، وله

مؤلفات رائعة أهمها رسالة إلى الوثنيين، المؤدب، المتنوعات (البديعيات) وهو أهم مصدر عن الحياة المسيحية في الإسكندرية وطقوس وعقائد كنيسة الإسكندرية في القرنين الثاني والثالث، ونُشرت كل كُتبه في مجموعة *ANF* المجلد الثاني ترجمة *W.Wilson* وآخرين.

* *Clement of Rome* وهو حسب شهادة القديس ايريناوس ضد الهرطقات (٣:٣) ثالث أسقف على روما بعد الرسول بطرس. راجع أيضاً يوسابيوس المؤرخ (١٥:٣) وعلى ما يبدو من شهادة يوسابيوس أنه عاش في الفترة (٩٠-١٠١)، وحسب شهادة العلامة أوريجينوس هو نفسه أكليمنضس الذي أشار إليه الرسول بولس في رسالته إلى فيلبي (٣:٤) راجع (تفسير إنجيل يوحنا ٣٦:٦) ويوسابيوس (٣:٦).

من أهم ما تركه لنا أكليمنضس الروماني الرسالة إلى كورنثوس وهي وثيقة هامة تحتوي على إشارات عقائدية وطقسية لا غنى عنها تُشير إلى اضطهاد نيرون ثم تذكر اضطهاد الإمبراطور دومتيان وهناك مقدمة جيدة للنص اليوناني والترجمة الإنجليزية التي نشرها العالم الإنجليزي *Lightfoot* في مجموعة *Apostolic Fathers* وتوجد كُتب أخرى متحولة منسوبة إليه تُعرف باسم عظات أكليمنضس فاسدة تماماً (راجع الأبيونية لنيافة الأنبا غريغوريوس).

* *Chrysostom* ذهبي الفم وهو لا يحتاج إلى تعريف، وأهم ما ندرسه في هذه الدراسة هو تعليم الموعوظين الذي عُثر عليه في جبل آثوس ونُشر عام ١٩٠٩. وقد نشر الأب الكاثوليكي *Paul Harkins* ترجمة إنجليزية جيدة في المجلد ٣١ من سلسلة الكتابات المسيحية القديمة.

* *Cyril* كيرلس الأورشليمي ، وهو أول من دوّن لنا من الآباء وصفاً كاملاً للمعمودية والميرون والقداس. أما ما يخص القديس كيرلس السكندري فقد تركنا التعريف به للجزء الخاص بالمعمودية في الكنيسة القبطية.

* *Cyprian* وهو الشهيد كبريانوس أحد تلاميذ العلامة ترتليان وأحد أعمدة كنيسة شمال أفريقيا وقد قال عنه القديس جيروم في كتابه مشاهير الرجال فصل ٥٣ أنه لم يكن يمر يوم دون أن يقرأ كبريانوس شيئاً لأستاذه ترتليان. ولدينا حياة كبريانوس من واقع الوثائق الرومانية الأصلية جمعها ودونها الشماس بونتيوس *Pontius* وتُعد كُتب كبريانوس من أهم وثائق القرن الثالث، غنية جداً بالإشارات إلى أسرار الكنيسة وقد نُشر معظمها في مجموعة *ANF* ترجمة *C.Thornton* المجلد الثالث.

* *Didache* وهي أول كلمة من الاسم اليوناني، والاسم بالكامل هو تعليم ربنا إلى الأمم بواسطة الرسل الإثنى عشر، وقد عُثر على هذا النص الفريد في سنة ١٨٨٣ وهو أصلاً مخطوطة تعود إلى سنة ١٠٥٧ تضم مجموعة رسائل أغناطيوس الأنطاكي، برنابا، أكليمنضس الروماني، ثم عُثر على النص اللاتيني لهذه الوثيقة في دير ميلك *Melk* في النمسا وهو نص غير كامل لكنه يحتوي على الفصول الثلاثة الأولى، ثم عُثر على هذا النص القبطي غير كامل في بردية تعود إلى القرن الخامس محفوظة في المتحف البريطاني وتصف هذه الوثيقة الطقوس وقواعد العبادة في الفترة (١٥٠-٢٠٠) والبعض يقول أنها تعود إلى عصر مبكر عن ذلك أي تعود إلى الفترة (١٠٠-١٥٠) ويمكن مراجعة النص اليوناني مع ترجمة إنجليزية جيدة في مجموعة *The Apostolic Fathers* التي أعدها الأسقف *Lightfoot*.

وهناك ترجمة عربية نُشرت في مجلد الآباء الرسوليين ترجمة البطريرك إلياس معوض.

Diognitus وهي وثيقة كُتبت بهدف الدفاع عن المسيحيين وشرح الحياة المسيحية وهي موجهة إلى شخص مجهول ويعتقد المؤرخ الألماني *Lietzmann* أنها موجهة أصلاً إلى معلم الإمبراطور ماركوس أوريليوس، واعتقد البعض أن مؤلفها هو هيبوليتوس الروماني صاحب الكتاب المشهور "التقليد الرسولي" بينما يظن البعض أنها من

تأليف القديس بنتينوس السكندري. وهذا الرأي يدعمه محتويات النص نفسه حيث تُواكب الأفكار الأساسية للرسالة لاهوت مدرسة الإسكندرية.

* *Dionysius* أسقف الإسكندرية، وهو أحد تلاميذ العلامة أوريجينوس وخلف العالم العظيم هيراكلاس *Heraclas* في رئاسة مدرسة الإسكندرية حوالي سنة ٢٣١، ثم صار أسقفاً للإسكندرية في سنة ٢٤٧، وقد عاصر هذا القديس اضطهاد الإمبراطورين *Decian* ثم *Valerian* وقد احتفظ يوسابيوس المؤرخ ثم القديس أثناسيوس الرسولي بأهم الفقرات من مؤلفاته.

* *Dionysius* أسقف كورنثوس في سنة ١٧١-١٩٨، احتفظ يوسابيوس المؤرخ بعدة شذرات من مؤلفاته.

* *Dionysius* المسمى بالأريوباغي *Areopagita* وهو حسب شهادة التقليد أحد تلاميذ القديس بولس الرسول. وليس له أي مؤلفات بالمرة. لكن هناك أربعة كتب لاهوتية هامة تُعد أحد مصادر اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي منسوبة للقديس ديوناسيوس الأريوباغي لكن جميع علماء الآباء يؤكدون أنها من مؤلفات القرن الخامس وأن مؤلفها أراد لها الرواج والشهرة فوضع اسم الأريوباغي عليها ولذلك تُسمى هذه الكتب باسم *Pseudo-Dionysius Areopagita* وهي من أهم مراجعنا عن القداس الشرقي بوجه هام ولا يمكن فهم الكثير من الترتيبات الكنسية بدون دراسة مؤلفات الأريوباغي.

Firmilian أسقف قيصرية الكيادوك في (٢٣٣-٢٧٢)، وقد احتفظ لنا القديس كبريانوس الشهيد بمقاطع من مؤلفات هذا الأب وقد اقتبسها كبريانوس لتأكيد صحة تعليمه.

* *Gregory Thanumaturgus* أي العجائبي وهو أحد قديسي القرن الثالث وتلميذ وفي مخلص لأستاذه العلامة أوريجينوس، تنيح غريغوريوس حوالي سنة

٢٧٠، وتُعد رسائله القانونية من أهم المصادر القديمة في القرن الثالث لفهم موضوع التوبة، وقد حظي غريغوريوس بمكانة كبيرة عند باسيليوس الكبير وغريغوريوس النيصي *Nyssa* وغريغوريوس اللاهوتي المعروف باسم النزينزي *Nazianzus* .

* *Hegesippus* وهو أول من كتب تاريخاً للكنيسة وربما كان يهودي متنصر لأنه أجاد الآرامية، وقد عاش في سنة ١٥٤-١٨٦، وكان كتابه بعنوان *Memoirs* ويقع في خمسة أجزاء، وهو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها يوسابيوس المؤرخ في جمع معلوماته عن الكنيسة الأولى. ويُعد هيجيسبوس من أهم مصادر القرون الأولى عن الخلافة الرسولية والتقليد الكنسي بوجه خاص.

* *Hermas* ويُسمى عادة الراعي *Shepherd* لأنه يحتوي على رؤيا ملاك لراعي وقد تأثر هرماس إلى حد كبير بسفر رؤيا القديس يوحنا، وحسب شهادة الوثيقة المعروفة باسم القانون الموراتوري *Fragmentum Muratorianum* فهرماس هو شقيق أسقف روما بيوس الأول، ولا يمكن تحديد الوقت الذي كتب فيه كتاب الراعي، وهناك عدة مشاكل خاصة بالنص، لكن الكتاب معروف بكل تأكيد للقديس ايريناوس (ضد الهرطقات ٤:٢٠ ، ٢١)، ثم لترتليان (المقالة١٦)، ثم للعلامة أوريجينوس (المبادئ ٤:١١). وبالتالي لا يتأخر كتاب الراعي عن سنة ١٥٠، وهو أحد المصادر الأساسية عن طقس المعمودية، وكتاب الراعي غني بالمصطلحات الفنية اللاهوتية التي نراها في الصلوات الطقسية. وهناك طبعة جديدة لنص كتاب الراعي في مجموعة *The Apsotolic Fathers*.

* *Ignatius* المعروف باسم حامل الإله والشهيد، وهو أسقف أنطاكية وقد استُشهِد في سنة ١١٠ في زمان الإمبراطور تراجان (راجع يوسابيوس ٣:٢٢ ، جيروم مشاهير الآباء ١٦). تُعد رسائله السبعة التي كتبها للمؤمنين وهو في طريقه إلى روما من

أهم مصادر اللاهوت والطقس وبالذات في واجبات الأسقف ودوره في الرعاية وطقس القداس والمعمودية، وتُعد طبعة الأسقف *Lightfoot* من أهم الطبعات.

* *Irenaeus* أسقف ليون في فرنسا من ١٧٧-٢٠٢ ويُسمى عادةً برجل التقليد وهو من آسيا الصغرى وتلميذ للشهيد بوليكاربوس أسقف سميرنا الذي استشهد سنة ١٥٥ (يوسابيوس ٥:٢٠)، وحسب شهادة غريغوريوس تورس *Tours* استشهد القديس ايريناوس سنة ٢٠٢، ويُعد كتابه عن "الكرازة الرسولية" من أهم مصادرنا عن قانون الإيمان وكتابه "ضد الهرطقات" غني بالإشارات إلى ممارسة الكنيسة.

* *Justin* الشهيد وله كتاب هام يسمى الدفاع، كُتب حوالي سنة ١٥٠، وقد أُستشهد يوستينوس حوالي سنة ١٦٠، ويُعد كتابه الدفاع والحوار مع اليهودي تريفو *Trypho* من أهم المصادر القديمة التي احتوت على وصف عام للعبادة في القرن الثاني.

* *Lactantius* وحسب شهادة جيروم (مشاهير الرجال ٨٠) فإنه درس على يد عالم اسمه *Arnobius* ولا نعرف الكثير عن لاكتانتيوس ولكنه كان في بلاط قسطنطين الكبير في سنة ٣١٧ كمربٍ لابن الإمبراطور *Crispus* وقد احتوت مؤلفاته على إشارات لاهوتية هامة.

Melito أسقف ساردس *Sardis* وقد أشار يوسابيوس المؤرخ إلى مؤلفاته في كتاب تاريخ الكنيسة ٥:٢٤، وقد عُثر على مؤلفاته كاملة. وقيمة هذه المؤلفات هي أنها تأتي في سنة ١٧٠-٢٠٠ وقد أشارت إلى البصخة والمعمودية ونزول المسيح إلى الجحيم ثم يوم الأحد أي يوم الرب .

* *Methodius* أسقف أولمبيوس أُستشهد في سنة ٣١١ وقد أشار إليه جيروم في كتابه (مشاهير الرجال ٨٣) وسقراط المؤرخ (٦:١٣) وهو أحد خصوم العلامة أوريجينوس وهاجمه بكل عُنف وبدون رحمة.

* *Minucius Felix* ويُعد دفاعه المشهور باسم "ضد الأمم" أي الوثنيين من أعظم كُتب المدافعين المسيحيين في الصياغة الأدبية والبناء اللاهوتي والفلسفي، ولا نعرف شيئاً عن حياة مينوكيوس فيلكس ولكنه بلا شك أحد آباء القرن الثالث.

* *Origen* العلامة أوريجينوس أستاذ الآباء ومعلم القديسين، عاش في الفترة ما بين (١٨٥ – ٢٥٣)، له مؤلفات على كل أسفار الكتاب المقدس بقى منها حوالي الثُلث والباقي دمرته يد البغضاء واحتقار الرأي المعارض. وليس هناك من آباء الكنيسة الجامعة إلا وقد تعلّم شيئاً من أوريجينوس، وتُعد مؤلفاته المصدر الأول عن طقس كنيسة الإسكندرية ونظام حياتها بل وعقائدها.

Papias أسقف هيرابوليس ويضعه البعض في الفترة من سنة ٧٠-١٣٠ والبعض الآخر من سنة ١٣٠-١٤٠، وقد احتفظ لنا يوسابيوس المؤرخ بفقرات هامة من مؤلفات بابياس تتعلق بالتقليد والخلافة الرسولية.

* *Peter* بطرس خاتم الشهداء وأسقف الإسكندرية من سنة ٣٠٠-٣١١ وهو رئيس مدرسة الإسكندرية وقد احتفظ لنا شاهد عيان بوقائع استشهاده وترجمت من اليونانية إلى القبطية والسريانية واللاتينية، ولعل من أهم ما تركه لنا هذا القديس الأربعة عشر قانوناً التي وُضعت في زمانه للمرتدين وجاحدي الإيمان، وعلى ما يظن كانت هذه القوانين جزءاً من مقالته المشهورة عن التوبة التي ضاع نصها الكامل وظلت الإرشادات الخاصة بالجاحدين والمرتدين، وقد وصلتنا على شكل قوانين.

* *Pliny* حاكم بيثينيا *Bithynia* على البحر الأسود في عهد الإمبراطور تراجان حوالي سنة ١١٢ وهو كرجل وثني حاول أن يفهم المسيحية من خلال التحقيقات التي كانت تتم مع المعتقلين من المؤمنين وكتب رسالته المشهورة إلى الإمبراطور يصف فيها بشكل عام إجمالي عقائد المسيحيين الأوائل وعباداتهم، وهي أقدم الشهادات

الوثنية التي وصلتنا عن الكنيسة، وهي على قدر كبير من الأهمية لأنها تأتي من موظف رسمي وحاكم من حكّام الإمبراطورية الرومانية.

* *Sibylline Oracles* وتُعرف في الأدب المصري المسيحي باسم "سبله الحكيمة" وهي ليست شخصية تاريخية وإنما اسم لعدة كُتب قديمة، ويعتقد علماء التاريخ المسيحي أن المجلد الموجود في أيدينا الآن يعود إلى ما قبل المسيحية، وجزء منه عاصر المسيحية وقد أشار آباء القرن الثاني إلى هذا المؤلف الغريب، راجع دفاع يوستينوس (١:٢٠، ٤٤:١٢) ودفاع أثيناغوراس (٣٠:١) وراعي هرماس رؤيا (٢:٤) ثم أوريجينوس الرد على كلسوس (٧:٥٣) وكذلك الدسقولية العربية المطولة. وكمؤلف اكتسب شعبية في أوساط غير المثقفين من المسيحيين (الثقافة اللاهوتية)، يحتوي الكتاب (أصلاً من ثمانية أجزاء) على الكثير من الممارسات الكنسية مثل رشم الصليب... الخ.وهذا الكتاب مثل كتاب آخر عرف باسم أناشيد سليمان *Odes of Solomom*.

عُثر على النص السرياني في سنة ١٩٠٨ ونشره *J.Harris* وقد أثار جدلاً لم ينته حتى هذه اللحظة وقد اعتقد البعض أنها يهودية فريسية الأصل واعتقد *J.Bernard* أنها مسيحية وأنها (٤٢ نشيداً) خاصة بالمعمودية والميرون والتناول، وقد أدّى اكتشاف أناجيل نجع حمادي الخاصة بالشيع الغنوسية إلى تعزيز الاعتقاد بأن أناشيد سليمان استخدمت في الطقس المسيحي الأنطاكي، راجع النص:

J.R. Harris, (An Early Christian Psalter), London, 1909.

* *Tertullian* قس في شمال أفريقيا قضى معظم حياته في قرطاجنة وكتب أول مقالة مرتبة لشرح المعمودية في الكنيسة المسيحية. ولما كان ترتليان قد عاش في الفترة من سنة ١٦٠-٢٢٠ فقد سجل في مؤلفاته الكثير من الموضوعات التي شغلت أذهان المسيحيين في تلك الفترة وهو أحد الثقاة الأساسيين في دراسة تاريخ العقيدة والطقس.

* *Testament of Our Lord* ويُعرف في المصادر العربية وعند أولاد العسال باسم "كتاب العهد السيدي"، واسم الكتاب بالكامل :كتاب عهد ربنا يسوع المسيح لتلاميذه الإثنى عشر"، ويحتوي الكتاب على مجموعة من القواعد الطقسية واللاهوتية وُضعت في سوريا في نهاية القرن الرابع ومع هذا احتوى هذا الكتاب الغريب على إشارات إلى الممارسات الكنسية كما كانت في القرن الثالث وقد شاع هذا الكتاب في الكنائس الشرقية فقط، ونُشرت الترجمة الإنجليزية بواسطة:

J.Cooper and A.Maclean (The testament of our lord) Edinburgh, 1902

ونُشرت الترجمة العربية عن السريانية في بيروت سنة ١٩٧٢.

* *Theophilus* أسقف أنطاكية كتب في النصف الثاني من القرن الثاني، تنيّح في سنة ١٨٢، وهو أول من أشار إلى الميرون في العهد الجديد.

الفصل الثاني

قيمة هذه المصادر

أولاً: من الناحية التاريخية

تُعطي المصادر التي ذكرناها الفترة الزمنية من سنة ٩٠ – ٤٥١م وهي فترة حاسمة عاشت فيها الكنيسة في وسط العالم الوثني الذي يستند على قوة الإمبراطورية كنظام يُعد من أقوى الأنظمة السياسية والعسكرية في العالم. ولعل أول ما نلاحظه على هذه الفترة أنها فترة حافلة بالكتب الدفاعية التي قدمها كاتبوها إلى الأباطرة ومثقفي ذلك الزمان، ولذلك حرص كاتبوها على تحديد معالم الإيمان المسيحي في مواجهة الاتهامات التي كانت توجَّه للمسيحية في تلك الفترة. ولذلك كانت هذه المصادر شحيحة جداً فيما يتعلق بالطقس الكنسي حيث أنه موضوع لا يحظى باهتمام غير المسيحيين، بل كان محظوراً على غير المسيحيين حضور الصلوات المسيحية أو الاشتراك في الممارسات المسيحية مهما كانت.

كان الوثنيون يُعدون من خصوم المسيحية والساعين إلى هدمها بكل الوسائل ولذلك حاول المسيحيون قدر جهدهم إبعادهم عن التجمعات الخاصة بهم وبالذات المعمودية والقداس. كانت هذه أسراراً صعبة على العقل الوثني بل حتى لليهود أنفسهم على النحو الذي نراه في إنجيل يوحنا (المعمودية ص ٣- الإفخارستيا ص ٦) حيث استغرب نيقوديموس من سر الولادة الثانية، واليهود ككل من سر عطاء الجسد والدم، ولهذا السبب مُنع الموعوظون من حضور اجتماعات المؤمنين، وحتى الموعوظون الذين

تقبلوا بعضاً من التعليم. ولقد حرص آباء القرون الثلاثة الأولى على تقديم بعض من رسالة الإنجيل للوثنيين، وكان ذلك بالقدر الذي يسمح لهم بالتعرف على المسيح ابن الله.

كانت الكنيسة تراعي ما يُعرف باسم التسليم السري، أي عدم إذاعة ونشر أسرار الطقوس في حضور الوثنيين، ولسوف ندرس موضوع المعمودية، لكن على الرغم من هذا سجَّل لنا الآباء الكثير، ولعل مقالة ترتليان عن المعمودية وكتاب التقليد الرسولي لهيبوليتوس من أقدم مصادر القرن الثالث حيث شرحت لنا الطقوس بشكل وجيز مناسب. وقيمة المصادر في القرون الثلاثة الأولى هي فوق كل تقدير، ذلك أنها تأتي في فترة لم تكن الكنيسة فيها قد ظهرت من تحت الأرض، كانت لا تزال تحفظ نفسها كجماعة سرية. ومن ناحية أخرى، فالقرون الثلاثة هي أيضاً قريبة أكثر من عصر الرسل، وسوف يندهش البعض من اهتمام ايريناوس بتسجيل حقيقة أنه عرف وسمع القديس بوليكارب، وهو — أي بوليكارب — تلميذٌ للقديس يوحنا الإنجيلي. وكان رجال الجيل الثالث المسيحي أكثر وعياً وإدراكاً لحقيقة الانتماء إلى تقليد الرسل المباشر من رجال القرن العشرين. وقد نسأل لماذا أو ما هو قصد شخص مثل هيجيسبوس من كتابة تاريخ الكنيسة وتدوين التسليم الرسولي؟... كانت الهرطقات الغنوسية قد انتشرت في وسط المؤمنين كما بدأت الشيع المختلفة تكتب لنفسها إنجيلاً أو عدة أناجيل مثل إنجيل بطرس وإنجيل الطفولة وإنجيل الحقيقة. فكان على الكنيسة أن تقاوم، وكان التاريخ هو السلاح الأول في الدفاع عن الأناجيل الحقيقية، ذلك أن مرقيون الغنوسي اقتطع الأجزاء التي لا تناسبه من رسائل بولس الرسول وإنجيل لوقا، فكان على الآباء أن يسألوا: هل رأى مرقيون الرسل؟ هل تتلمذ لأحدٍ من الرسل؟ هل استلم منهم الإيمان؟ ومن هنا تجيء شهادة بابياس وغيره كشهود لحقيقة التسليم الرسولي وصحته. فكأننا هنا في فترة ما قبل نيقية نسمع كلمة "التسليم الرسولي" بوضوح كافٍ أكثر من أي فترة أخرى، ولسوف

ندرس بعد ذلك أن مجمع نيقية لم يكن أول مجمع انعقد في الكنيسة، فهو وإن كان أول مجمع مسكوني، لكنه ليس أول مجمع في حياة الكنائس المحلية أو الإقليمية.

ولم يكن آباء القرن الثالث غافلين عن مؤلفات الذين سبقوهم، أولاً لأنهم درسوا عليهم كلمة الحياة، ولأنهم أدركوا أن هذه المؤلفات هي شهادة أصلية حية على صحة التسليم واستمراره، ولعل خير مثل على ما نقول هذا التسلسل المعروف في الإسكندرية بنتينوس... أكليمنضس... أوريجينوس... هراكلاس... ديونيسيوس... بطرس الشهيد... أثناسيوس، وكأننا هنا أمام فترة تبدأ من سنة ١٥٠م إلى ما بعد سنة ٣٢٥م وكل هؤلاء الآباء قد سمعوا ودرسوا الذين سبقوهم. وقد أجاد أثناسيوس في الدفاع عن هذه الحقيقة عندما حاول أريوس أن ينسب للقديس ديونيسيوس السكندري عبارات وأقوالاً تؤيد تعليمه، فكان على أثناسيوس أن يقتبس كل رسالة ديونيسيوس ليؤكد أنه – أي ديونسيوس – يعلم بكل ما جاء في التسليم عن ربنا يسوع المسيح وعن لاهوته. بل يمكننا أن ندرس مثلاً آخر مختلف تماماً، وهو اهتمام كبريانوس الشهيد بما كتبه فرمليان أسقف قيصرية الكبادوك، ثم اهتمام باسيليوس بدراسة فرمليان وكبريانوس قبل أن يكتب رسالته القانونية المشهورة (رقم ١٣٨).

ولم يكن الآباء يدرسون أقوال الذين سبقوهم فقط، بل كانوا أيضاً يدرسون صحتها في نفس الوقت، وكانت موافقتهم عليها هي دعم لصحة ما جاء فيها من تعاليم، ولعل خير مثال على هذا هو دراسة الرسالة الخامسة لأثناسيوس عن الروح القدس حيث سُئل عن معنى التجديف على الروح القدس، فكتب على هذا النحو: "أما عن كلمات الإنجيل التي نبهتني إليها في خطابك، اغفر لي يا حبيبي بضمير صالح (١ بط ٣: ١٦)، إنني أتهيب الاقتراب منها خوفاً من أن يعطلني انهماكي الشديد في بحث المعنى عن الوصول إلى معنى كلمات الإنجيل نفسها وهي كلمات عميقة... أمَّا عن سؤالك: لماذا يُغفَر التجديف على الابن، بينما يظل التجديف على الروح القدس بلا مغفرة، ليس

في هذا الدهر ولا الدهر الآتي؟ فقد قرأت ما كتبه الأب الحكيم والمجاهد أوريجينوس، وكذلك المجاهد العجيب ثيثوغنوستوس؛ لأرى ماذا قالوا بخصوص هذا الموضوع. قال كلاهما إن التجديف على الروح القدس هو عودة الذين حصلوا على نعمة الروح القدس في المعمودية إلى الخطيئة، ولذلك يقول كل منهما إنه لا مغفرة لهم كما ذكر بولس في رسالته إلى العبرانيين (٦: ٤ – ٦). عند هذه النقطة كل منهما يتحدث مثل الآخر تماماً ولكن بعد ذلك كل منهما له رأيه الخاص" (الرسالة الخامسة عن الروح القدس – مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٢٦: ٦٤٨ – ٦٤٩). وبعد ذلك صحَّح أثناسيوس ما جاء في كتابات أوريجينوس وثيثوغنوستوس، وهذا يعني أننا ندرس لكي نكتشف التسليم الرسولي على أساس تاريخي سليم معروف ومدوَّن في كُتب الآباء وبشهادة التاريخ.

ثانياً: من الناحية اللاهوتية والطقسية:

مما لا شك فيه أن فترة ما قبل نيقية حافلة بكل ما هو هام وأصيل، ذلك لأن الكنيسة كانت مضطهدة بقسوة، وكانت تُطارد في كل أرجاء الإمبراطورية. وليس في الحياة ما هو أثمن من اعترافات الشهداء والمضطَهَدين وشهاداتهم؛ لأنها نابعة من قلوب أيقنت أن الاعتراف بالإيمان هو الحياة نفسها، وأنها ليست مجرد كلمات تقال لإرضاء الناس أو الإمبراطور، بل هي كلمات خطيرة تحمل الموت والتجريد من الممتلكات والطرد... الخ.

ولعل أغلب كُتاب هذه الفترة كانوا من الشهداء أو المعترفين أو الذين أصيبوا بخسارة مادية أو معنوية أثناء الاضطهاد. هؤلاء كانوا يعرفون ما هي المسيحية وما هي قيمة التعاليم والطقوس التي تسلموها من السابقين. ولعل هذه الفترة التي تمتد من الرسل حتى سنة ٤٥١م، هي الفترة التي لا يختلف المسيحيون على ما فيها من تعاليم وطقوس. ذلك لأن انقسام الكنيسة بعد سنة ٤٥١م أي ما يُعرف باسم المجمع الخلقيدوني والذي

شطر الكنيسة إلى شطرين، جعل البحث بعد ذلك صعباً، بل ومستحيلاً؛ لأننا بعد ذلك نجد أن الانقسام ساد غرباً، حتى وصل إلى القرن السادس عشر، أي عند ظهور حركة الإصلاح البروتستانتية. فإذا جاز لنا أن نتحدث اليوم عن الوحدة المسيحية والعودة إلى الإيمان، فإن هذه الوحدة لن تحدث إلَّا إذا رجعنا إلى القرون الأربعة الأولى، وهي أصل شجرة الكنيسة المسيحية التي تفرعت اليوم إلى عدة فروع بعضها ضعيف والبعض الآخر قوي، بل وقوي جداً.

ومن الناحية الطقسية، تؤكد هذه الدراسة أن الانقسام لم يؤثر كثيراً على الطقوس الشرقية، وأن الشرق حافظ على الأصول القديمة ولم يُغيِّر إلَّا قليلاً. هذه الحقيقة تؤكد أن وحدة الكنائس الشرقية الأرثوذكسية، هي بناء لأهم المعالم المسيحية. وعودة إلى الكنيسة التي علّمت العالم كله الإيمان في الإسكندرية وأنطاكية، وأخيراً في القسطنطينية.

الفصل الثالث

لماذا ظهرت الطقوس في الكنيسة؟

سوف نكتشف الإجابة على هذا السؤال في الفصول التالية. لكن يهمنا هنا أن ندرس بصورة شاملة – دون أن نناقش التفاصيل – الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ظهور الطقوس في حياة الكنيسة. لقد قيل – بحق – إن رسالة المسيح هي رسالة روحية، وأنها لا تحتاج إلى طقوس. والجزء الأول من هذه العبارة صحيح، فالعهد الجديد يؤكد في كل موضع فيه أن الله روح والساجدون يسجدون له بالروح والحق (يوحنا ٤: ٢٤).

ولكن الجزء الأخير من العبارة خطأٌ فظيع، بل هي تنطوي على الاعتقاد بهرطقة قديمة تستند إلى فلسفة أفلاطون القائلة بأن المادة شر، وهي هرطقة الغنوسية التي زعمت أن جسد الإنسان من صنع إله الشر، بينما روحه من صُنع إله آخر هو إله الخير. هذه الثنائية هي السبب الحقيقي في رفض الطقوس، وكأن جسد الإنسان، أو المادة أو الكون كله لا علاقة له بالله – وهو موقف غريب لا يمكن فهمه – لماذا نحن هنا أحياء في هذا العالم المادي المنظور؟ ولماذا وُهِبنا الجسد المادي؟ بل لماذا سيقام هذا الجسد في اليوم الأخير إن كان هو عنصر فساد وشر؟... ألا يتنافى مع صلاح الله المطلق أن يمنح الإنسانية قيامة الأجساد مادام هذا الجسد هو شيء فانٍ قذر دنيء؟! وعلى الرغم من أن الذين يعارضون الطقوس بشدة ينكرون سقوطهم في الثنائية أو الأثنينية، وهي أساس الأفلاطونية والغنوسية، إلَّا أن احتقار المادة والجسد بشكل خاص يكشف عن موقف لاهوتي منحرف، وهو إنكار ظهور الله في الجسد. وإنكار التجسد هو إنكار لكل شيء

في الكنيسة، بل هو إنكار المسيحية برمتها، ذلك لأن الإعلان الإلهي العظيم من العهد الجديد هو "الله الكلمة صار جسداً وحل بيننا" (يو ١: ١٤).

عندما أراد الله أن يعلن لنا عن نفسه في العهد الجديد، أعلن عن نفسه في جسد بشري مؤكداً لنا أننا لن نستطيع أن نراه إلَّا في الجسد، ولقد أجاب الرب عن سؤال فيلبس: "أرنا الآب" بقوله: "الذي رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٨)، وما يؤكده ربنا يسوع المسيح هنا هو أن رؤية الآب ممكنة في ابنه في الجسد، ذلك لأن اللاهوت لا يُرى بالمرة، ولكن بسبب التجسد أمكن رؤية الله. فقد كشف محبته لنا عندما اتحد بالطبيعة الإنسانية، وظهرت أعماق رحمته عندما قَبِلَ مصيرنا، وأخذ ما نستحقه أي الموت والفساد؛ لكي يعطينا عوضاً عنه البنوة والميراث الأبدي.

لقد تم كل هذا في الجسد، وبدون الجسد كان الخلاص مستحيلاً.

لكن الآن وقد حدث الخلاص في الجسد، أصبح الطقس حقيقةً واقعيةً؛ لأنه يستند على ما حدث في الواقع، أي في جسد ربنا يسوع المسيح. إننا عندما نرشم علامة الصليب مثلاً – وهو أصغر الطقوس الكنسية – فإننا نؤكد اعترافنا بموت الرب عنَّا على الصليب، ثم إننا فوق هذا، وهو الأهم، نشترك في حقيقة موت الرب بعلامة الصليب؛ لأن الصليب ليس حدثاً تاريخياً فقط، بل حقيقة حاضرة دائماً يمكننا أن نشترك فيها ونتذوقها في كل شيء: في الصلاة، وكلمة الله، وفي الأسرار. إنها حقيقة تقديم الرب ذاته ذبيحةً عنّا ولأجلنا لكي يعطينا ثقة في القدوم إلى الآب.

كانت الطقوس في العهد القديم وسيلة هامة لاقتراب الإنسان من الله، ولكن **الطقوس في العهد الجديد** تقوم بدور آخر مختلف، فهي **تؤكد حضور الله وتكشف عن حضوره السري في الرموز التي لم توضع لتقييد حرية الإنسان، بل لتقوده لاكتشاف المسيح**. ومن هنا ندرك أن دراستنا للطقوس هي دراسة لحقيقة اشتراكنا في المسيح، فهو السر الذي أحاطته الطقوس بكل جلال لتعطي الإنسان إمكانية العودة إليه

ليشرب ماء الحياة الأبدية كلما احتاج. فالطقوس هي رموزٌ تُعلن عن سر المسيح، فهو سر عميق لا يمكن مواجهته إلَّا باستعداد داخلي للرؤيا، وهو ما تمنحه الطقوس وتغرسه في العقل والقلب.

الفصل الرابع

الأساس اللاهوتي للطقوس في العهد القديم

لا نريد أن نتحدث في طقوس العهد القديم، فهذا ليس المجال، وإنما مجال ذلك العهد القديم. ولكن بصورة عامة، عَرِفَ الناسُ الخدمةَ والصلاة بكل أنواعها قبل موسى النبي بزمن كبير، ويكفي أن نذكر أن كل ملامح الطقوس في العهد القديم ظاهرة بوضوح في سفر التكوين، أي في عهد البطاركة قبل أن تنشأ الشريعة (اللاويين — التثنية — العدد).

فالذبائح تظهر في الإصحاح الرابع (تك ٤: ٣ - ٥)، بل أن شريعة تقسيم الحيوانات إلى طاهرة وغير طاهرة معروفة لنوح الذي بني أيضاً مذبحاً للرب وقدَّم عليه ذبائح لله (تك ٧: ٢ – ٨: ٢٠). وهناك أمرٌ صريح من الله بتقديم ذبائح عندما قطع الله عهده مع إبراهيم (تك ١٥: ٨ - ١٨). وسوف نرى فيما بعد، وبالذات في العهد الجديد، كيف قام العهد الجديد على ذبيحة المسيح. وإذا كانت الطقوس قد سبقت الشريعة الموسوية، فهي لا تزال ترافق نعمة العهد الجديد لكي تعلن عن حضور الله في حياة البشر.

في العهد القديم وقبل الشريعة كان الختان هو علامةٌ ظاهرةٌ في الجسد لعهد الله مع إبراهيم وبموجبها ارتبط العبراني بالله نفسه وبالشعب، إن هذا الطقس البسط هو أول ما أكد لنا أن العهد ليس بين الفرد والله فقط، وإنما هو أيضاً بين الله والشعب، فصار طقس عضوية يحمله العبراني في جسده لكي يبقى ابناً لإبراهيم، كذلك وضع اليد للبركة

(تك ٤٨: ٩ – ٢٠)، ولبس ثياب معينة أو إبدال الثياب بأخرى مناسبة (تك ٣٥: ٢، ٣)، هو بدوره يعبِّر عن بداياتٍ لإدراك استعداد النفس للحياة الروحية. كذلك النذور والعشور (تك ٢٨: ٢٠ – ٢٢)، والشكل الديني للدفن (تك ٢٣: ١٧ – ٢٠، ٥٠: ٧ – ١٣)، ويمكننا أن نقول – دون أدنى خطأ – إن الشريعة كانت تنظيماً وتقنيناً لما ورثه بنو إسرائيل من البطاركة ومن آدم نفسه، فقدَّمت نظاماً لجوهر الحياة الروحية الذي كان يحتاج إلى ضبط، وهو محور الصلاة والطقوس، ثم الذبيحة والكهنوت.

في أسفار الشريعة نرى نصوص الصلوات الطقسية المرتبطة بالطقس نفسه، وهذه النصوص لا تظهر في الأسفار التاريخية، وإنما في أسفار الشريعة وحدها. ولعل أشهر هذه النصوص صيغة البركة التي أمر بها الرب: "وكلَّم الرب موسى قائلاً كلِّم هارون وبنيه قائلاً هكذا تباركون بني إسرائيل قائلين لهم يباركك الرب ويحرسك، يضئ الرب بوجهه عليك ويرحمك..." (عدد ٦: ٢٢ – ٢٦). والنص الذي يرافق تقديم بكور ثمار الأرض هو أيضاً على جانب كبير من الأهمية، إذ يقول سفر التثنية: "ومتى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك... تأخذ من أول كل ثمر الأرض... وتأتي إلى الكاهن... وتقول له اعترف اليوم للرب إلهك إني دخلت الأرض التي حلف الرب لآبائنا أن يعطينا إياها... ثم تصرح وتقول أمام الرب إلهك آرامياً تائهاً كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرَّب هناك في نفر قليل. فصار هناك أمة كبيرة..." (عد ٢٦: ٣ – ١٠).

وهنا نلاحظ بكل وضوح أن تقديم أول ثمار الأرض لم ينشأ من فراغ، بل هو مرتبط أساساً بالعهد ثم بالوعد الذي قُطِعَ لإبراهيم، والمعجزة الكبرى في تاريخ الخلاص وهي حادثة الخروج. وهذا مبدأٌ هامٌ يشرح لنا كيف ترتبط الطقوس بالهدف العام للخلاص وهو "العهد – الوعد"، وهو ما يجعل للطقس الأساس التاريخي المتين الذي يستند عليه. ويمكننا دراسة هذا بكل وضوح في طقس تقديم العشور (تث ٢٦: ١٢ – ١٥).

ومن النصوص الطقسية الهامة التي دخلت القداس القبطي، ذلك النص الجميل الذي كان موسى النبي يترنم به عند صعود تابوت عهد الرب أو عند وقوفه في المحلة: "قم أيها الرب الإله ولتتفرق جميع أعدائك..."[1] (عدد ١٠: ٣٥، ٣٦).

وعندما بنى الهيكل كان حرص داود وسليمان هو التأكيد على أن التصميم وشكل البناء كان بإعلان إلهي، وأنه تم وفق إرادة الله وحسب ما أعلنه (١ أخبار ٢٨: ١١ - ١٩، ٢ أخبار ٣: ٣).

ومما لا شك فيه أن كل عناصر العبادة المسيحية تظهر بوضوح في العهد القديم، وبالذات الأصول التي ارتكز أو بُني عليها كل ما في العهد الجديد. وقد أخطأ الغربيون عندما وقعوا في خطأ تقييم العهد القديم كله كموضوع انتهى تماماً ولم تعد له أهمية نظراً لمجيء السيد المسيح، وأنه ظِلٌّ مختفٍ تماماً بظهور نور الإنجيل.

وكانت هذه الدعوى الفاسدة هي لُب الهرطقة المعروفة باسم "الغنوسية" والتي – بكل أسفٍ – ظهرت مجدداً في أوساط بعض الشيع في أوربا. وفي الحقيقة إن العهد القديم ليس ظلاً بالمرة، بل هو أساس لكل ما في العهد الجديد، ويصعب بل يستحيل على أي إنسان أن يفهم أبسط الموضوعات في العهد الجديد ما لم يكن قد درس العهد القديم بعناية وافرة. بل أن حتى كل ما يخص الرب يسوع نفسه لا يمكن إدراكه بعمق ما لم يتوافر لنا فهم المصطلحات والمبادئ اللاهوتية التي تربط بين إعلانات الله وعلاقته بشعبه. ويمكننا أن نرى من العهد القديم ومن اللمحة السريعة التي أشرنا إليها كيف كُتب العهد الجديد نفسه، وكيف دخلت المصطلحات والطقوس في صياغة كل ما هو خاص بربنا يسوع نفسه، فهو "الحمل الذي يرفع خطية العالم"، وهو تعبير مأخوذ من طقس عيد الفصح في العهد القديم، وهو كذلك "الذبيحة"، وكيف يمكن أن نتحدث عن المسيح وذبيحة الصليب ما لم نعد إلى سفر التثنية؟

([1]) يجئ هذا قبل الاعتراف بالإيمان، لأن المسيح أدخلنا إلى الراحة وأرض الموعد، بالاعتراف الصحيح به.

هل يمكن أن ندرك ما يعنيه الرسول بولس: "لأن فصحنا المسيح قد ذُبح لأجلنا" (١ كو ٥: ٧)، دون أن نعود إلى العهد القديم لدراسة الفصح وعلاقته بالفصح الحقيقي يسوع المسيح ربنا؟

وهل يمكن أن نفهم ما كُتب عن الروح القدس وعلاقته بالمسيا (المسيح)، ثم علاقته بالشعب، دون أن ندرس عمل الروح القدس في العهد القديم؟ لقد دخل الرب يسوع المجمع ذات سبت وقام ليقرأ – لم يكن يقرأ العهد الجديد– بل سفر أشعياء النبي (ولما فتح السفر وجد الموضوع الذي كان مكتوباً فيه: "روح الرب عليَّ لأنه مسحني (جعلني) لأُبشِّر المساكين... أنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم"[1] (لو ٤: ٦ - ٢١). وهنا نلاحظ العلاقة بين العهدين، ونلاحظ أيضاً أن المسيح نفسه يشرح نبوة أشعياء في المجمع اليهودي مؤكداً أن البشارة جاءت في العهد القديم وأن إسرائيل الجديد، أي الكنيسة هو الذي يفسِّر النبوات ويعطي لها المعنى الحقيقي المرتبط بها (راجع ٢ كو ٣: ٤ - ١٨).

ولقد أرسى العهد القديم القواعد المتينة للحياة الكنسية بثلاثة أمور هامة:

أولاً: صار الطقسُ شهادةً في قلب التاريخ على صدق مواعيد الله. كان المؤمنون في العهد القديم يذبحون خروف الفصح ثم يحتفلون بالأعياد الأخرى، وكان لهذه الأعياد معنى روحي عميق، وهو **خلاص الله الذي تحقق، ثم خلاص الله الذي سيتحقق**، كان الشعب يرى الحاضر في نور الماضي، وهو المعنى العميق الكامن وراء كل الاحتفالات والطقوس. ويوضح ذلك المثل الذي ذكرناه قبلاً عن أول ثمار الأرض عندما يقدم العابد ثمار هذه الأرض لله. كان تقديم الثمار طقساً حياً مثل خروف الفصح وغيره من الطقوس

---

(١) يُقرأ هذا الفصل في قداس رأس السنة القبطية لأنه يحتوي على إشارة هامة وهي "سنة الرب المقبولة" أي عصر المسيح أو عصر الروح القدس الذي يمسح كل المؤمنين بالمسيح ليكون كل فرد بالفعل ممسوحاً ، أي مسيحياً.

الأخرى. وسوف نرى كيف أنار العهد القديم الطريق أمام العهد الجديد، وجعل من الطقوس شاهداً على تحقيق الخلاص في يسوع المسيح، وهو ما تحتفل به الكنيسة دائماً.

ثانياً: الارتباط بين الله وشعبه بالعهد كان ارتباطاً احتفالياً طقسياً، ولم يكن عملاً قام به الله واختزنته ذاكرة البشر، بل هو عمل مرئي منظور تم في وقت معين. ولأنه عهدٌ قائمٌ، فقد اكتسب قوة الاستمرار والبقاء؛ لأنه عهداً أبدياً. ويمكننا أن ندرك كيف احتفل العبراني بالخروج من أرض مصر، إذ كان يقول: "هذا هو خبز المشقة"، ومع أن الخبز لا يمكن أن يحتفظ به الشعب من الخروج حتى دخول أرض الموعد، ولكن الذي جعل الخبز في أيدي المحتفلين هو ذات الخبز الذي أكله آباؤهم، هو "العهد" الذي قطعه الله مع شعبه. العهد هنا فوق الزمان وفوق الأشخاص (تث ١٦: ٣). لقد قطع معنا المسيح عهداً جديداً (أر ٣١)، وهذا العهد الجديد هو حضور الله في وسطنا وسكناه فينا (يو ١: ١٤)، ولذلك كانت طقوس العهد الجديد مثل طقوس العهد القديم، تكتسب أبديتها من العهد، فهو وحده قوة الاستمرار، بل نالت طقوس العهد الجديد قوة أخرى، وهي قوة الروح القدس الحاضر دائماً في الكنيسة (يو ١٤: ١٦) والذي يشهد للمسيح ويجعل من الطقوس حقيقة حية، أو واقعاً روحياً يُعاش ويُختبر.

ثالثاً: كانت الطقوس في العهد القديم هي شركة حضور الله في وسط شعبه. لم يكن الله غائباً أو محصوراً في التماثيل مثل آلهة الأمم، ولذلك كان حضوره الدائم في خيمة الاجتماع أو الهيكل فيما بعد، هو استمرار للعلاقة وللشركة القوية التي أسسها هو. كان العبراني يصلي ويصوم ويقدم الذبائح وهو على يقين من حضور الله، ذلك أن كل معجزاته كانت تهدف إلى خلاص الشعب، وكانت هذه المعجزات علامة منظورة على رحمته ومحبته ورغبته في دوام الشركة، ولذلك فقد تذكَّرها العبراني وهو سعيدٌ وفَرِحٌ، وبكل ثقة كان يرتل مزاميره وأناشيده لله "الساكن في وسط يعقوب" (مز ٤٦: ٧، ١١).

في العهد الجديد لم يعد لنا هيكل واحد نذهب إليه، بل صار الإنسان نفسه هيكل الله، وهو تطور طقسي خطير جاء بسبب اتحاد اللاهوت بالطبيعة البشرية في يسوع المسيح الواحد. لم يعد الله حاضراً فقط، بل متحداً بنا. صار الناس هياكل له (١ كو ٣: ١٦ - ١٧)، وهكذا أعطى التجسد – في العهد الجديد – للطقس الأساس المتين الذي بُني عليه الطقس كله، وسوف نشرح هذه النقطة فيما بعد. لكن عندما صرنا هياكل الله، صار الهيكل في الكنيسة الذي يقدَّم عليه جسد المسيح ودمه بحلول الروح القدس هو وسيلة ترميم وإصلاح ما يفسد في هياكل الله الحية، وصار هيكل الكنيسة على صورة هيكل الله أي الإنسان، كما صار هيكل الإنسان على صورة هيكل الكنيسة تقدَّم فيه ذبائح روحية (رو ١٢: ١).

هذه المبادئ الثلاثة الأساسية تشرح لنا الاستمرارية بين العهدين، لتقدم لنا العمق الروحي لأسرار الله، التي تشهد لها الطقوس وتعبِّر عنها لكي لا يفقد الإنسان الرؤية السليمة لحقيقة حضور الله.

الفصل الخامس

طقس المعمودية في العهد الجديد

أولاً: حياة المسيح أساس الطقس:

سوف نكتشف أن المعمودية مؤسَّسةٌ على حياة المسيح، وموته وقيامته. حقيقي أنها تستند على الأمر الإلهي المعروف في (مت ٢٨: ١٩) ... لكن ما صلة هذا الأمر بحياة المسيح نفسه؟ من المستحيل أن تكون المعمودية مجرد أمر... وإلاَّ كيف نفهم رو ٦، حيث يؤكد الرسول أن المعمودية هي موت، ودفن، وقيامة مع المسيح إلى حياة جديدة.

وما معنى قول يوحنا المعمدان: "أنا أعمدكم بماءٍ للتوبة، أمَّا هو فسوف يعمدكم بالروح القدس... " (لو ٣: ١٦)؟ لو لاحظنا أن المعمودية مرتبطة بعطية الروح القدس، وأن عطية الروح القدس مرتبطة بموت المسيح وقيامته وصعوده، لأمكننا أن ندرك أن المعمودية مرتبطة بموت المسيح وقيامته (راجع أع ٢: ٣٨). وقد شرح الرسول بولس ذلك بوضوح في (١ كو ١: ١٣) عندما قال: "هل صُلب بولس لأجلكم أم هل اعتمدتم باسم بولس". وكأن الرسول يسأل: أنتم الذين اعتمدتم هل صُلب بولس لأجلكم أم هل اعتمدتم باسم من صُلب لأجلكم وهو المسيح. وفي (عب ٦: ٤) يؤكد بولس مرة ثانية أن المعمودية هي شركة في موت المسيح؛ لأن الذين استناروا – اعتمدوا – وذاقوا الموهبة السماوية وصاروا مشتركين في الروح القدس... لا يمكن تجديدهم مرةً ثانيةً للتوبة لأنهم يصلبون ابن الله من جديد... فالمعمودية لا يمكن أن تُعاد لأنها الموت مع المسيح الذي فيه يتحقق التجديد

وعطية الروح القدس. ويؤكد الرسول يوحنا في رسالته الأولى (٥: ٦) العلاقة بين: الدم – الماء – الروح. والترتيب واضح: موت المسيح – المعمودية – عطية الروح القدس.

وسوف يظهر لنا إذا ما عدنا إلى الأناجيل الأربعة، وبالذات معمودية المسيح، العلاقة بين المعمودية والصليب. ففي معمودية المسيح (مر ١: ١٠، مت ٣: ١٦، لو ٣: ٢٢) يقول الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت".

والنداء الإلهي يُشير إلى نصٍّ نبوي: "هُوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سُرَّت به نفسي، وضعت روحي عليه فيُخرج الحق للأمم" (أش ٤١: ١٠). والإصحاحات الأخيرة في سفر أشعياء حافلةٌ بالكثير من الأقوال الخاصة بعمل المسيح الكفاري، ولعل أول ما يلفت النظر هو العلاقة بين كلمتي "عبدي" و "ابني"، ففي مت ١٢: ١٧ يظهر بوضوح نفس نص أشعياء مع تغيير طفيف في الاقتباس، ولكنه تغييرٌ هام، فبدلاً من "عبدي" كَتَبَ الرسول متى "فتاي". وفي اللغة اليونانية هناك علاقة لاهوتية واضحة بين "حبيبي" و "مختاري" التي تعني المولود الوحيد أو الابن الوحيد، و"عبدي". ففي كل هذه الكلمات، الإشارات واضحة إلى مختلف وظائف المسيح الكفارية، بجانب تأكيد إلوهيته وإنسانيته. ذلك أن المسيح "وُجد في الهيئة كإنسان". وكلمة "إنسان" هي تأكيد لمساواة المسيح لكل الناس، هذه المساواة لا تمنع عن المسيحية كلمة "عبد"، ولكن من الضروري أن يؤكد العهد الجديد صفة أخرى لهذا العبد، وهي صفة البنوة باستخدام "فتاي"، "ابني". وتغيير كلمة "عبدي" إلى "فتاي" هو أمر متعمَّد يتضمن الإشارة إلى تحقيق بنوة الإنسان الذي هو في الأصل (عبدٌ)، لكن هذا لا يمكن فهمه إلَّا في المسيح، ولعل نص يو ١: ٣٤ "وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله ومختاره"، هو بلا شك نص أشعياء ٤١: ١.

وهنا نلمس حقيقة تاريخية ممتازة، وهي أن العهد الجديد لا يقدم فقط اقتباسات من العهد القديم، بل يضع لها الإطار التفسيري الخاص بخلاص الإنسان، ولذلك أشار

الرسول متى إلى (أشعياء ٤٢: ١) في ضوء إعلان الآب عن وحيده المحبوب في الأردن: "هذا هو ابني الحبيب"، إعلانٌ جديدٌ مرتبطٌ بالإعلان القديم "هوذا عبدي"، والمتحدث في كلتا الحالتين واحد وهو "الآب".

نعود إلى الموضوع الأساسي، وهو أن معمودية المسيح كانت تهدف إلى حلول الروح القدس، وكانت بداية الإعلان عن عمله الكفاري الذي سيتحوَّل فيه الإنسان من عبد إلى ابن، لكن هذا التحول الذي يأخذ طريقه أولاً في الرب نفسه، سوف يظهر بعد ذلك كعطية للمؤمنين الذي يُولدون عبيداً ويصبحون بالمعمودية أبناء.

ماذا قال المسيح عن معموديته، أو عن موته ومعموديته؟

قال مرةً: "هل تقدرا أن تعتمدا بالمعمودية التي اعتمدت بها" (لاحظ أن الترجمة البيروتية تستعمل كلمة صبغة). وهنا في مر ١٠: ٣٨ الارتباط واضح بين المعمودية والموت، ولقد اعتمد الرب للموت. وعندما يتطلع إلى الصليب يقول: "لي معمودية وسوف أعتمد بها" (لو ١٢: ٥٠)، ولاحظ أن الرب يقول: "إنني محصور أو مشدود إليها جداً إلى أن تتم أو تكمل" (لو ١٢: ٥٠). فقد اعتمد الرب لموته، وهذا أيضاً ما يصرح به في رده على يوحنا المعمدان: "اسمح الآن لأنه ينبغي أن نكمل كل بر". وإكمال البر له معنى واحد، وهو تحقيق الفداء ومغفرة الخطايا الإنسانية. ومن هنا يمكننا أن ندرك كيف أمكن لبولس الرسول أن يقول إن المعمودية هي موت مع المسيح.

وعلينا أن نلاحظ أن إنجيل يوحنا بالذات يشرح معمودية المسيح بشهادة يوحنا: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم..." (يو ١: ٢٩ - ٣٤). وما كلمة "حمل" إلَّا إشارة إلى موت المسيح وذبيحته الكفارية، ثم تأكيد في ١:٣٤ بأنه مختار الله، فالمعمودية هي بداية تحقيق ما سبق وأعلنه الأنبياء (راجع بدقة أعمال ١٠: ٣٦ - ٣٨)، ولذلك عندما يعلن الرسول بطرس عن المعمودية كبداية لخدمة المسيح، فقد كان يعني مجيء الروح القدس الذي سيُعطى فيه الروح للكل. لقد قَبِلَ الربُ الروحَ لأجل الإنسانية، وهو ما سيشرحه

بدقة آباء الكنيسة خلفاء الرسل. ولقد ارتبط نزول الروح بالمعمودية؛ لأن معمودية الرب هي بذرة صليبه، وارتبطت آلام المسيح بعطاء الروح؛ لأن الروح لم يكن من المستطاع إعطاؤه لإنسانية لم تتطهر بعد من أدناسها. ونلاحظ كيف ربط الرسول متى بين عمل الروح والمعمودية والمعجزات، فهو يقدم للمعجزات بالاقتباس من (أشعياء ٤٢: ١، ٢ – ٥٣: ٤، راجع متى ٨: ١٦ – ١٧، ١٢: ١٧ – ٢٢). فالروح القدس يرافق عمل المسيح دائماً؛ لأن المسيح – كذبيحة – يحقق المغفرة، فيفتح الطريق لعمل الروح القدس، وعندما يعمل الروح القدس، فهو يكشف عمق عمل المسيح (راجع يوحنا ١٦: ٧ في ضوء يوحنا ١٥: ٢٦، يوحنا ١٦: ١٤).

هذه الحقائق أساسية جداً في إدراك أننا لسنا أمام مجرد ترتيب، أي طقس، وإنما أمام حياة المسيح التي يسكبها الروح القدس فينا.

ثانياً: المعمودية طقس الانضمام إلى جسد المسيح:

يقول سفر الأعمال: "وكان الرب يضم كل يوم إلى الكنيسة الذين يخلصون" (أع ٢: ٤٧)، وفي أع ٥: ١٤: "وكان مؤمنون ينضمون للرب". وهذه الكلمة – يضم، وينضمون – هي أحد المصطلحات الأساسية في العهد الجديد التي تعبِّر عن القبول في شركة المسيح. كان الرب "يضم"، وكان المؤمنون "ينضمون" إلى جسده أي الكنيسة، ذلك أن الذي يأتي بالغرس الجديد هو الرب. هو الذي أحبنا أولاً (١ يو ٤: ١٩)، وأسس طريق الخلاص قبل أن توجد، وبالتالي قبل أن نؤمن، نحن نأتي إلى الدنيا لنجد الخلاص جاهزاً إذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير.

وعندما نأتي إلى الكنيسة، فإننا نجد أن الرب جهَّز لنا كل شيء، أي بما قدَّمه لنا، وما المعمودية والإفخارستيا سوى الأسرار التي تزرعنا مباشرةً في سر موته وقيامته. إن الكنيسة تصر على تعميد الأطفال، واحتجاج طائفة المعمدانيين لا يتمشى مع تعليم

الرسل في العهد الجديد، ذلك أنهم يقولون إن المعمودية للبالغين فقط؛ لأنها جواب الإنسان على دعاء الله له بالتوبة والإيمان. ولو انحصر معنى المعمودية في الإيمان فقط لتعين علينا أن نقول إن معمودية الأطفال مستحيلة طالما أن المعرفة التي تسبق الإيمان مستحيلة بالنسبة للرضعان.

ويصبح من الصعب علينا أن نفسر أموراً لاهوتية هامة، فالعهد الجديد لا يصرح باستحالة تعميد الأطفال، وليس هناك ولو تلميح بسيط غير مباشر على استحالتها. ولذلك يُعد الجدال بين الكنيسة الشرقية والمعمدانية جدالاً ليس حول المعمودية فقط، بل حول فهم علاقة المعمودية بالانضمام إلى الكنيسة، وفهم علاقة الكنيسة بحياة المسيح، وعلاقة حياة المسيح بما لدينا من نعمة. ومع أننا سوف نؤجل هذا للمجلد الثالث، إلَّا أننا نستطيع أن نقول إن معمودية الأطفال هي انضمام للجماعة، التي جاءت ووجدت كل شيء كاملاً وفي انتظارها.

وفي الواقع إن موضوع معمودية الأطفال غائب بالمرة عن العهد الجديد كموضوع مستقل. وغياب الموضوع له أسباب هامة جوهرية، هي:

أولاً: كانت الكنيسة في عصر الرسل كنيسة كارزة، وكانت الكرازة تقتضي الإيمان وتعليم حقائق الإيمان، ولما كان العهد الجديد قد كُتِبَ في فترةٍ كان الرسل لازالوا فيها أحياء يبشِّرون بالمسيح، فإننا على وجه اليقين نقرأ تاريخ الجيل الأول من المسيحيين الذين شاهدوا الرسل وآمنوا بكلامهم، ولذلك لم نسمع شيئاً عن تعميد الأطفال.

ثانياً: ومناسبات تعيد الأطفال كانت تعتمد على الوضع القائم في الكنيسة زمن الرسل وهو:

أ– حالة وجود أطفال لوالدين آمنوا بالمسيحية.

ب – حالة وجود أطفال وُلدوا بعد إيمان أحد الوالدين أو الوالدين معاً. ولقد سبقت اليهودية المسيحية في حل هذه المشكلة بالنسبة للدخلاء ***Proselytes*** وهؤلاء كان وضعهم كالآتي:

عندما يؤمن وثني باليهودية كان هو وأولاده يُعمَّدون بطقس يهودي معروف باسم معمودية الدخلاء – وسوف ندرسه في حينه – وأما إذا وُلِدَ الأطفال بعد إيمان والديهم، فقد كانوا يختنون فقط ولا يمرون بطقس التعميد. هذه القاعدة هي إحدى الأسباب التي دفعت الرسول بولس إلى أن يقول: "إن أولاد المؤمنين مقدَّسون بسبب إيمان والديهم" (١كو ٧: ١٤)، انطلاقاً من الإيمان بأنهم ولدوا في العهد الجديد، أو ولدوا من والدين هم أعضاء في جسد المسيح، وهذا يجعلهم مؤهلين لنعمة المعمودية، ولذلك فإنه لا يوجد أي نص عن تعميد أولاد بالغين لوالدين مؤمنين بالمرة في العهد الجديد كله، ذلك أننا إذا افترضنا أن وثنياً آمن بالمسيحية وهو بالغ أي مَن له من العمر ٢٠ سنة، فإنه لكي يتزوج وينجب أطفالاً يعمدون في سن البلوغ يكون الوالدان قد أدركا سن ٣٨، أي عام ٥٨م وهو تاريخ كانت أغلب أسفار العهد الجديد قد دُوِّنت فيه، ما عدا إنجيل يوحنا.

لقد أشار القديس بولس إلى حالة الأطفال الذين يولدون من والدين مسيحيين، هؤلاء وصفهم الرسول بأنهم مقدسون (١كو ٧: ١٤)، وهذا لا يمكن فهمه إلَّا على أساس حصولهم على نعمة التبني، غير أننا يجب أن نعود إلى السؤال الرئيسي: ماذا تعني المعمودية بالنسبة إلى الذين ينضمون إلى جسد المسيح ويشاركونه موته وقيامته؟

وهنا، فإن الخلاف – كما ذكرنا – هو في الطريقة التي تنظر بها الكنائس إلى المعمودية، والفكر اللاهوتي الخاص الذي يختفي وراء الاختلافات القائمة. لكن علينا أن نعود إلى العهد الجديد نفسه، وأن نحاول – بقدر الإمكان – التخلص من الأفكار المسبقة.

إن الكنيسة في زمن الرسل – بلا شك – كانت في وضع فريد في طور التكوين، وبالتالي فالإيمان كان شرطاً أساسياً بالنسبة للكرازة بالرسالة الجديدة. لكن من الخطأ، بل من الخطر أن نظن أن الإيمان مرتبط بمناسبة التعميد وحدها. ذلك أن الإيمان مرتبط بكلمة التعليم وبالاعتراف العلني بالإيمان أثناء الصلوات، وأثناء سر الإفخارستيا. وإذا كان الموقف نفسه هو الذي فرض ضرورة الإقناع والإيمان كشرط مسبق للمعمودية بالنسبة للجيل الأول من المسيحيين، فإن هذا الشرط سوف يتغيَّر بكل تأكيد عندما تنمو الكنيسة؛ لكن بصورة عامة إن تعميد الأطفال لا يتعارض بالمرة مع تعليم العهد الجديد عن المعمودية، ولقد اعتمد الرب نفسه عندما عُلِّق على الصليب نيابةً عن كل الإنسانية، وما المعمودية إلَّا اشتراكٌ في هذا السر.

هذا الاشتراك الذي يبدأ بالمعمودية، يصل إلى كماله في الإفخارستيا، وكلا السرين هو اشتراكٌ في موت المسيح وقيامته. فالمعمودية بداية اشتراك في حياة المسيح. هي ولادة، ولذلك لا تتكرر. أمَّا الإفخارستيا فهي "غذاء"، ولذلك تتكرر. والمعمودية هي سر الانضمام إلى جسد المسيح، بينما الإفخارستيا هي مشاركة الجماعة في جسد الرب. المعمودية هي مناسبة زرع الفرد الواحد في جسد الجماعة أو جسد المسيح. ولذلك تسبق المعموديةُ الإفخارستيا. فهي عملية زرع وتجديد وانضمام للجماعة لكي يؤهَّل الفرد للاحتفال مع الجماعة بسر موت الرب وقيامته، ولذلك فمعمودية الأطفال لا تضيِّع على الغرس الجديد فرصة النمو ولا الفرص الكثيرة القادمة للاعتراف بالإيمان ومشاركة الرب في موته وقيامته. ولعل المعمودية هي الفرصة الأولى التي تُدخل الإنسان في سر الخلاص. ولكن بعد ذلك الدخول، هو حيٌ مع الجماعة مشتركٌ معها في هذا السر[١].

---

(١) سوف نرى أن الفرق الجوهري بين المعمودية والإفخارستيا هو فرق مبني على تمايز عمل الابن والروح القدس. فالابن هو الوسيط الذي يجعلنا نقبل الروح القدس في المعمودية، أما الروح القدس فهو الوسيط الذي يجعلنا نقبل المسيح في الإفخارستيا.

علينا أن نعود إلى (رو ٦: ٣ حتى آخره) حيث يتحدث الرسول عن عملية الزرع في موت المسيح وقيامته، وقد أوضح هو نفسه هذه النقطة في (١ كو ١٢: ١٣) حيث يظهر بوضوح أن الزرع يتم "لأننا بالروح الواحد قد اعتمدنا إلى الجسد الواحد" (الكنيسة أو جسد المسيح).

وهكذا نأتي إلى النقطة الهامة، **وهي أنَّ الصليب كان معمودية الإنسانية بأسرها. أمَّا معمودية الكنيسة، فهي الانضمام أو الزرع أو المشاركة،** وهذه المصطلحات الثلاثة سوف تبرز أهميتها عندما ندرس الآباء. وجسد المسيح الذي نُزرع فيه هو الجسد المصلوب، والذي قام أيضاً وتمجَّد بالصعود. هذا الجسد الذي أصبح ملكاً للإنسانية لأنه منها أُخِذَ، وأعطى لها جسداً حياً بلا فساد منتصراً على الخطية والموت حاملاً كل هبات الله للإنسانية. هذا الجسد هو ذاته في اتحادٍ وثيق بلا انفصال مع الابن حتى أن ما يُنسب للابن يُنسب للناسوت، وما يُنسب للناسوت يُنسب للاهوت، ولذلك فإن ما أُعطيَ في الإفخارستيا هو سر المسيح الذي يجمع كل الكنيسة إلى واحد، فيُصبح الكل متَّحدين معاً في شركة الحياة الجديدة، ويصبح الكل أيضاً جسد المسيح على نحو سرى تحقق بمشاركة الإنسانية في موت المسيح وقيامته "أنتم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح أنتم واحد في المسيح" (غل ٣: ٢٧ – ٢٨).

فالمعمودية كبداية الخلاص تشبه فتح الباب الذي تحدث عنه الرب في الرؤيا: "ها أنا واقف على الباب وأقرع" ومتى فتح الباب دخل الإنسان إلى مائدة العرس وظل هناك ليس كضيفٍ، بل كصاحب عُرسٍ مدعواً من العريس إلى سر موته وقيامته. لكنه لا يدخل إلى العرس إلَّا بعد أن يلبس ثياب العريس لكي يصبح مشاركاً لكل الذين في العُرس، بل وواحداً منهم يأكل من ذات ما يأكلون ويفرح معهم بذات الفرح الذي يتقاسمونه.

وعندما تقبل الكنيسة تعميد الأطفال، فهي تعرف بوجه خاص أنها تضم إلى شركة المؤمنين من لا يفهمون؛ لأنهم فيما بعد سيفهمون. الأطفال جزءٌ أساسيٌ في الفهم المسيحي للزواج وشركة الجماعة. وهنا يظهر بوضوح معنى كلمة يضم في اللغة اليونانية، ففي المعمودية ينمو جسد المسيح "ليملأ الكل"؛ إذ ينضم إليه الأعضاء الجدد. لكن في الإفخارستيا ليتحقق مشاركة الجسد (راجع ١ كو ١٠: ١٦)، ويتعرف الأعضاء على "الغرس الجديد"، كما يتعرف هو عليهم ويصبح الكل في شركة انتصار وفرح بالخلاص الثمين الذي حققه الرب. الأطفال ينضمون إلى الجماعة في شركة العهد الجديد. إنهم أولاد هذه الجماعة، وقد وُلدوا في الإيمان بالمسيح، بل لقد قاد الإيمان والديهم إلى الزواج، وهم ثمرة للرب سبق وأخبر عنها داود النبي (مز ١٢٨) وهو إحدى القطع الأساسية عن الأسرة المسيحية، الملتفة حول سر الرب.

الفكرة الفلسفية غير اللاهوتية وراء رفض معمودية الأطفال:

ولما كانت شيعة المعمدانيين قد نشأت في الغرب في نهاية القرن السادس عشر، فقد انطلقت من المفهوم الغربي الفلسفي، وهو أن إرادة الإنسان هي العنصر الحاسم في الإيمان. ولذلك يسألون عن حرية اختيار الطفل في قبول المسيح. ويظنون أن هذا هو أقوى الحجج ضد معمودية الأطفال، بينما يمكن توجيه أسئلة اعتراضية في ذات النوع وهي أن الطفل لم يكن حراً في اختيار والديه، كما أنه ليس حراً في أن يوجد في هذه الدنيا، وهي ذات الموضوعات التي طرحتها الفلسفة الوجودية بكل مدارسها، والسؤال الواقعي هو: ما هو المصير؟ لأنه ليس من إجابة على السؤال الخاص بالحرية. والذين لم يكن لهم حرية في قبول المعمودية، لهم مطلق الحرية في رفضها بعد ذلك إذا كانت قد فعلت بهم سوءاً. والمنطق المسيحي هو أن كل إنسان يجيء إلى العالم، يجد خلاص المسيح في انتظاره، ولأن اتجاه المسيحية دائماً هو الرجاء والتفاؤل، فإن الغرس الجديد

ينضم إلى المسيح على أمل أنه سيخلص، لكن هذا لا يمنع بالمرة أن يرفض المعمودية والإيمان في المستقبل. وإذا كانت البروتستانتية تشدد على التبرير بالإيمان وحده بدون أعمال، وتؤكد أن الخلاص هو منحة الله المجانية، التي لا يؤثِّر فيها صلاح الإرادة الإنسانية أو شرّها، فقد أدى هذا التشديد بدوره إلى إعطاء أهمية كبرى لدور الإرادة الإنسانية في القبول وتأكيد ممارسة حرية قبولنا للمسيح، وهذه بلا شك مفاهيم فلسفية غير لاهوتية مردها إلى نزعه التشاؤم التي سادت في القرن السادس عشر، **والتي عكست يأس الإرادة الإنسانية وعجزها عن إرضاء الله بسلوك أخلاقي فاضل. وهذه النقطة بالذات هي الخلفية الأساسية لعقيدة التبرير بالإيمان وحده،** ولقد أدى هذا بدوره إلى المغالاة في دور الإرادة الإنسانية في قبول عطية الله المجانية، وبهذا فقد عادت إلى عقيدة التبرير بالأعمال، لكن من الباب الخلفي. وقد يقال في هذا المجال إن قبول الإنسان هو أيضاً عمل خفي للنعمة، لكن العمل الخفي للنعمة يتعارض مع التأكيد على شرعية حرية اختيار الإنسان.

وتعليم العهد الجديد عن مجانية نعمة الله ومحبته للخطاة، هو أساس التعليم بمعمودية الأطفال، وهو أساس لاهوت الأسرار، ذلك أن الإنسان يدخل في شركة المسيح بناء على دعوة المسيح التي توجهها الكنيسة كسفير للمسيح (٢ كو ٥: ٢٠)، وعلينا دائماً أن لا ننسى أنه منذ أن صار الكلمة جسداً (يو ١: ١٤)، فإن العلاقة القائمة بين الله والإنسان هي علاقة ثنائية؛ لأنها تجمع بين الله والإنسان، وبالتالي إذا أكدنا دور النعمة الإلهية وحدها أو دور الإرادة الإنسانية وحدها، فقد جعلنا العلاقة علاقة طرف واحد بالآخر، ولذلك فكل حديث عن نعمة الله المجانية يجب أن يمس أيضاً الإرادة الإنسانية والعكس.

وهذه هي نظرة الآباء الذين أكَّدوا أنه في الإله المتجسد اتحد اللاهوت بالناسوت حتى أنه لا يجوز أن نميِّز بين اللاهوت والناسوت. إلَّا أن الاتحاد لا يقوم إلَّا

بين اثنين أو أكثر، ولذلك فوجود الاثنين ضروري للإتحاد. هذا يعني اشتراك الإنسان المباشر في المسيح.

على هذا القياس تبني الكنيسة الجامعة لاهوتها، وهو أن كل ما يُعطى من نعمة إلهية يؤثِّر في كيان الإنسان، وما يؤثر في كيان الإنسان هو قبول بمنهج حياة المسيح وموته وقيامته، فالتجسد هو نموذج *type* الحياة الجديدة التي جاء بها ابن الله للإنسانية، ووهبها نعمة مشاركته موته وقيامته، وهو ما يجعل معمودية المسيح تسبق موته وتدل عليه، كما تدل معموديتنا على موتنا وصلبنا الدائم مع المسيح وقيامتنا الآتية.

لذلك كان الكلام عن ضرورة اختيار الإنسان – باعتباره العنصر الحاسم في المعمودية – هو كلام عن علاقة من طرف واحد وليس عن اتحاد، ونفس الكلام ينطبق على مشكلة التبرير.

أمَّا بخصوص معمودية الأطفال، فهم يواجهون دعوة الله التي تصلهم عن طريق الجماعة، أي الكنيسة التي لا يمكن الانتماء إليها إلَّا عن طريق سر المسيح، أي المعمودية. والفرق الأساسي بين الكنيسة وأي تجمُّع بشري، هو أن الجماعة البشرية تتفق فيما بينها على أمور معينة تجمع الكل في وحدة إنسانية، أمَّا الكنيسة فيجمعها سر المسيح، وهو الإله المتجسد الذي يعطي نعمة الاشتراك في موته، وهو هبة إلهيه لكي تزداد الروابط الإلهية — البشرية به وبالآب.

ومن المستحيل لمن وُلدوا في الإيمان أن يكونوا أعضاء في جسد المسيح إلَّا بالمعمودية. هذه النقطة جديرة بالاهتمام؛ لأن الذين يعمِّدون في الكنيسة بشر. وحتى عند الهراطقة يقوم بَشَرٌ بخدمة المعمودية، فهم — كبشرٍ – يفتحون طريق الخلاص سواء بالنسبة للأطفال أو بالنسبة للبالغين. وعندما يؤمن الإنسان، فهو يؤمن بكرازة الآخرين، وحتى عندما يهلك، فهو يهلك ومعه الذين ساعدوه أو شاركوه في خطاياه. الإنسانُ كفردٍ واحدٍ مقطوعٍ عن الجماعة الإنسانية، هو وضعٌ مستحيلٌ تماماً. **وسر الخلاص**

نابعٌ من هذه العلاقة التي تناولت آدم الأول الذي فيه مات الكل، وآدم الثاني الذي فيه قام الكل. وليست مصادفةً أن الرسول بولس أكَّد أنه بإنسانٍ واحدٍ دخل الموت وبالإنسان الجديد جاءت الحياة (رو ٥: ١٢ – ١٩).

وهكذا أدت الفكرة الأوربية القائلة بمسئولية الفرد المطلقة إلى تدمير الفهم المسيحي الأصيل للحياة المسيحية، ولعلاقة الإنسان بالله في العهد الجديد.

فالطفل ليس فرداً منفرداً عن والديه، ولن يكون كذلك في حالة البلوغ (ولا حتى) بعد الموت. سيظل مع الجماعة التي انتمى إليها أو التي أراد الانتماء إليها. وما أراده أي إنسان ليس سوى نتيجة لإرادة الذين سبقوه، وهذا لا ينطبق فقط على المسائل المادية مثل اللغة والعادات الاجتماعية والأنظمة السياسية... الخ. بل أيضاً على الأمور الروحية التي تعطى للكل والتي يؤسِّسها الكل من أجل الكل. وحتى القديس الأنبا أنطونيوس أب جميع الرهبان الذي وُصِفَ بأنه عاش وحده من أجل جميع المؤمنين، أعطت حياته عمقاً للمسيحية وللمسيحيين، رغم أنه حاول قدر جهده أن يكون منفرداً لكي يتقدم فيه الكل. ولذلك لم نسمع عن إنسان عمّد نفسه، أو ناول نفسه (أع ٨: ٢٦).

وانطلاقاً من هذا، استخدم الرسول بولس وصفين للمعمودية، وهما: الختان – عبور البحر الأحمر.

والختان مثل عبور البحر الأحمر، هو زرعٌ للقادم الجديد في عهد الله الجديد لنسل إبراهيم، أو عبورٌ للكل معاً تحت قيادة موسى الجديد.

إن الكنيسة لا يمكن أن تكون واحدة (غل ٣: ١٦) إذا لم يتحقق للأغصان الجديدة مشاركة فعلية في حياة المسيح، فهي التي تجعل الكلَ واحداً.

ثالثاً: المعمودية والإيمان:

الذين جاءوا إلى الكنيسة في زمن الرسل كانوا إمَّا يهوداً أو وثنيين. ومن هؤلاء تكوَّنت الكنيسة في فلسطين والشتات، ثم الأمم. بالنسبة لليهودي كان الإيمان بالمسيح أسهل عليه من الوثني الذي لا يعرف الأنبياء ولا المواعيد الإلهية التي أُعلنت في العهد القديم. لذلك كان حتماً أن تختلف الطريقة التي قُبِلَ بها كلاهما في الكنيسة، ذلك أن شرح الإيمان بالنسبة للوثني كان يعني شرح كل شيء من البداية، بينما كان الجهد أقل في حالة اليهود.

كان إيمان الوثني قبل المعمودية ضرورياً، لذلك جاءت كل النصوص لتؤكد ضرورة الاعتراف بالإيمان قبل المعمودية. وكما قلنا إن العهد الجديد كُتبت معظم أجزائه في الفترة التي كانت الكرازة تشمل اليهود والوثنيين أو الجيل الأول الذي سمع كلمة الوعظ من الرسل مباشرةً. بالنسبة لهؤلاء، فإن الإيمان بالمسيح قبل المعمودية كان ضرورة حتَّمها الموقف نفسه. لكن بالنسبة للجيل الثاني، أي أولاد وبنات المسيحيين، وهؤلاء ليسوا بعيدين عن العصر الرسولي، فقد وُلدوا قبل كتابة إنجيل يوحنا (٧٥م – ٩٠م)، هؤلاء كان وضعهم في الجماعة المسيحية مختلفاً عن وضع اليهود والوثنيين، لأنهم نشأوا وعندهم وعي بالإيمان بالمسيح.

المعمودية ميلادٌ جديد (تي ٣: ٥، يو ٣: ٤). وكميلاد، من الضروري أن يعقبه نمو. وكميلاد، لا يعتمد إلَّا على النعمة الإلهية وحدها التي أعطاها المسيح، وليس على إيمان الذي يقبل المعمودية، ولذلك من الخطر أن نظن أن أعمال الله تكتسب فاعليتها أو تأخذ قوتها من إيمان الإنسان؛ ذلك لأننا بذلك، نضع قيداً على قوة الله نفسه. في المعمودية يمر الإنسان بثلاث مراحل، ودور الإيمان فيها يختلف. ما قبل المعمودية – أثناء المعمودية، وما بعد المعمودية. قبل المعمودية لدينا ثلاثة أنواع لطالبي المعمودية: اليهودي والوثني، والطفل المسيحي.

هؤلاء طبعاً يعرفون أن الميلاد الجديد لا يتوقف على الإرادة الإنسانية، وإلَّا ما معنى قول الرسول يوحنا: "الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله" (يو ١: ١٣)، فماذا يفعل الإيمان هنا؟

بالنسبة للبالغين، الإيمان هو ضرورة حتَّمها انتماؤهم السابق إلى إيمان مخالف لإيمان الكنيسة. وبالنسبة للأطفال الذين قدَّمهم والدوهم، هؤلاء هم في شركة الإيمان مع الوالدين، وعلى رجاء النمو في شركة الكنيسة يعمَّدون.

قبل المعمودية الإيمان شرطٌ للغرباء عن الكنيسة، لكنه – كشرط – لا يزيد ولا يضعف من قوة المعمودية؛ لأن المعمودية – كعمل إلهي – لا تستند على الجسد والدم ورغبات الناس، بل على الله مباشرة.

أثناء المعمودية لا ينفع الإيمان؛ لأن الإنسان يموت ويمضي الإنسان العتيق بكل أفكاره إلى الزوال.

لكن بعد المعمودية، الإيمانُ مطلوبٌ من الكل، ولذلك يحذِّر الرسول بولس الذين اعتمدوا في رو ٦: ١١ ويطالبهم بأن يموتوا عن الخطية؛ لأن هذا الموت هو برهانٌ على صحة الإيمان.

وتطبيقاً لهذا يأخذ الرسول بولس مثلاً، وهو قصة الخروج من أرض مصر. الذين خرجوا، اعتمدوا في البحر الأحمر في العهد الموسوي. هؤلاء جميعاً من رجال ونساء وأطفال لم يستفيدوا من العبور، وهو عمل الله وحده؛ لأنهم بعد ذلك لم يؤمنوا بمن أخرجهم بقوته الإلهية، ولذلك لم يدخلوا أرض الموعد.

وهذا النموذج يؤكِّد لنا لماذا وضع بولس ١ كو ١٠: ١٥ كمثال للمعمودية. فأثناء المعمودية، الإنسان لا يبذل جهداً لكي يُولد، ولكن بعد المعمودية هناك الصراع الذي يتخذ مثلاً له تجارب الرب بعد معموديته من يوحنا، والذي يمكن أن ينتهي بعدم الدخول إلى أرض الموعد أي أورشليم السماوية، أو ينتهي بالانتصار.

وفي الغرب لا يدرك ذلك الذين انعكس وضعهم الحضاري والثقافي على لاهوتهم. إن للمسيحية الشرقية نظرة معينة خاصة بوحدة الأسرة المسيحية. الإنسان الغربي لا يفهم معنى قول الرسول: "آمن بالرب يسوع المسيح، فتخلص أنت وأهل بيتك" (أع ١٦: ٣١). هذا القول يبدو بلا معنى؛ إذ لم تعد الأسرة وحدة واحدة متضامنة. ذلك أن الرسول يطالب السجَّان وحده بالإيمان، لكن الوعد بالخلاص هو للأسرة. ومن الواضح أن الرسول لا ينظر إلى الموقف على أساس ما يحدث بالنسبة لأسرة سجان فيلبي، بل يتحدث مباشرةً عن البيت أي الزوجة والأولاد والعبيد، وهذا هو البيت في زمن القديس بولس. إن نفس طريقة الرسول بولس في كلامه عن تضامن الأسرة، هي ذاتها التي يتحدث بها الرسول بطرس: "الموعد هو لكم ولأولادكم" (أع ٢: ٣٩). هذا التضامن والإتحاد القائم بين أفراد الأسرة الواحدة هو الذي يعبِّر عنه الرسول في ١ كو ٧: ١٤ "الرجل غير المؤمن (الوثني) مقدس في المرأة والمرأة غير المؤمنة (الوثنية) مقدسة في الرجل، وإلَّا فأولادكم نجسون. وأمَّا الآن فهم مقدسون". فالواحدية الأسرية تفتح الطريق إلى قداسة الكل، حتى الطرف الوثني هو مقدسٌ بسبب الإتحاد القائم، حتى الأولاد الذين وُلدوا من زواج مختلط أيضاً مقدسون؛ لأنهم شركاء في العهد الجديد بيسوع المسيح الذي قدَّس الإنسانية كلها فيه عندما تجسَّد وصُلب ومات وقام.

رابعاً: المعمودية ختان العهد الجديد:

أشار العهد الجديد إلى المعمودية كختان المسيح، وعلامة عهد الله مع الإنسانية في المسيح يسوع (راجع كو ٢: ١١، رو ٢: ٢٥، غل ٣: ٦، أف ٢: ١١).

ما علاقة الاثنين؟ يؤكد العهد الجديد أن المعمودية مثل الختان هي ختم الإيمان وعلامة الانتماء إلى عهد الله مع إبراهيم. وفي فلسطين كان "الدخلاء"، أي الوثنيون الذين يعتنقون اليهودية يعمَّدون ثم يختتنون، وكانت هذه المعمودية والختان بمثابة الدخول

في العهد. والمصادر اليهودية المعاصرة للمسيحية تؤكد أن الدخيل قد وُلد لحياة جديدة، ووُلد مرةً ثانية.

كان الختان في اليهودية علامة الدخول في العهد من خلال الأسرة، والأسرة من خلال الشعب أو الجماعة كلها. لم يكن الميلاد الجسدي كافياً لجعل أي يهودي منتمياً إلى عهد الله مع إبراهيم، بل كان الختان هو العلامة الأساسية التي تتم بعد الميلاد لتأكيد انتماء الطفل إلى عهد الله.

الختان علامة إيمان، وهذا ما يؤكده الرسول بولس في قوله إن إبراهيم قَبِل ختم بر الإيمان، أي الختان، أي بمجرد أن آمن (رو ٤: ١١) كان الإيمان سابقاً على الختم في حالة إبراهيم، وهذا ما يؤكده الرسول بولس لأن إيمان إبراهيم مؤسَّس على الوعد بأن يكون إبراهيم أباً لأمم كثيرة. (رو ٤: ١٧ – ١٨).

وقد سبق الإيمانُ الختانَ؛ لأن الوعد يسبق العلامة الظاهرة، فالعلامة تظل دائماً مرتبطة بما حدث. كان العهد هو دخول الأمم في شركة المسيح، وكان الختان علامةً على ما هو آتٍ، أي ختان المسيح. لم يكن ختان إبراهيم الذي لحق الإيمان قاصراً على إبراهيم وحده الذي آمن، بل كان للكل حتى الطفل الذي لا يزيد عمره عن ثمانية أيام. وهنا كان الختان يُعطى على أساس ما سيأتي. كان الطفل يُختن لأنه سوف يفهم فيما بعد، والمقارنة تؤكد لنا أن إسماعيل الذي وُلد حسب الجسد وخُتِّنَ لم يكن ابناً للموعد؛ لأنه لم يولد بقوة الوعد، بل بولادة طبيعية ليست مثل ولادة إسحق الذي وُلد بمعجزة وبقوة الموعد صار ابناً لإبراهيم الذي شاخ وعجز عن الإنجاب حسب القوة الجسدية، فصار إسحق هو الوارث للموعد لأنه ابن الإيمان. هذا يؤكده الرسول في حديثه عن المعمودية التي ليست حسب الجسد بالمرة؛ لأنها ليست ختاناً مصنوعاً باليد (كو ٢: ١١، أف ٢: ١١)، بل هي ختان القلب بالروح. تماماً مثل إسحق الذي خُتِّنَ وهو أصلاً ابن الإيمان وثمرة المعجزة. هذا يحدث لنا نحن الذين نولد حسب الموعد أي بالمعمودية؛ لأننا

لا ننتمي لجماعة المسيح حسب الجسد، بل حسب الروح (غل ٤: ٢٨). وختان المسيح هو ختان القلب (رو ٢: ٢٩)؛ لأن كل من يُولد للمسيح ويدخل عهده بختان المسيح تماماً مثل كل من يُولد لإبراهيم يدخل عهد إبراهيم بختان إبراهيم. هنا معمودية الأطفال واضحةٌ، ذلك أن الختان كان يُعطى لمن لا يعرف ولا يفهم، ومع هذا فالمختتن ينتمي لإبراهيم. كان الختان ختماً للإيمان بالقيامة، ومع أن إسحق لا يعرف شيئاً عن القيامة، لكنه قَبِل علامة العهد. ونلاحظ أنه كيف اتهم اليهودُ بولس الرسول بأنه يُعلِّم بأن لا يختن الأطفال (أع ٢١: ٢١) ذلك أن هناك ختاناً آخر للأطفال، ولكل من يؤمن، وهو ختان الله في القلب أي المعمودية (كو ٢: ١١).

خامساً: الترتيب الطقسي الخاص بالمعمودية في العهد الجديد:

كان التعليم والكرازة من الضروريات التي تسبق المعمودية، وهو أمرٌ لا يحتاج إلى الإشارة إليه، وقد عرفته الكنيسة. وكان الاعتراف بالإيمان يسبق المعمودية كما هو واضح في (أع ٨: ٣٦ – ٣٧)، ولكي نفهم كيف عالجت الكنيسة في عصر الرسل موضوع قبول الداخلين إليها، علينا أن نفحص سفر الأعمال بدقة.

يقول سفر الأعمال: "وفيما هما سائران في الطريق أقبلا على ماء، فقال الخصي هوذا ماء. ماذا **يمنع** أن أعتمد" (أع ٨: ٣٦).

– "أترى يستطيع أحد أن **يمنع** الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس" (أع ١٠: ٤٧).

– "إن كان لله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً بالسوية مؤمنين بالرب يسوع المسيح فمن أنا. أقادر أن **أمنع** الله" (أع ١١: ١٧).

– "حينئذ جاء يسوع .. إلى يوحنا ليعتمد منه ولكن يوحنا **منعه**" (مت ٣: ١٣ – ١٤).

من النصوص السابقة يظهر لنا أن هناك فعلاً مشتركاً ورد في كل النصوص وهو الفعل "منع – Κωλυειν"، وذلك في كل مرة جاء فيها ذكر المعمودية. ولذلك فقد سأل علماء تاريخ الكنيسة مع علماء العهد الجديد: ألا يبدو من هذه النصوص أن الكنيسة في عصر الرسل كانت تسأل سؤالاً: ماذا يمنع معمودية هذا أو ذاك؟ ألا يمكن أن نستدل من هذا على أن الكنيسة كانت تسأل هذا السؤال؟

لقد سمع فيلبس هذا السؤال من الخصي، الذي كان قد بدأ من أشعياء وبشَّره بيسوع. وسؤال الخصي غريبٌ، ذلك أنه كان من الممكن أن يقول: هل يمكن أن أعتمد؟ ولو كان هذا السؤال عفوياً، فلماذا ورد فعل "منع" و "يمنع" في مناسبات أخرى خاصة بالمعمودية وبالذات (أع ١٠: ٤٧)، حيث يسأل الرسول بطرس ماذا يمنع الماء، أي المعمودية عن هؤلاء الذي قبلوا بالروح القدس كما نحن أيضاً؟ وفي (أع ١١: ١٧) يردد الرسول نفس السؤال ويستخدم نفس الفعل "منع"، ويؤكد أن الله هو الذي أجاب على سؤاله وأعطى علامة القبول.

ولو عُدنا إلى معمودية المسيح من يوحنا لوجدنا أن يوحنا يمنع الرب؛ لأن هناك حائلاً، وهو قداسة المسيح الذاتية (مت ٣: ١٤)، بل حتى الإنجيل المزوَّر المعروف باسم "إنجيل الأبيونيين" يستخدم نفس الفعل "منع" في النص الذي اقتبسه القديس ابيفانيوس: "وسجد يوحنا ليسوع وقال له أرجوك يا رب عمِّدني أنت. لكن يسوع منعه" (ضد الهراطقة ٣٠: ١٣).

من كل ما سبق يظهر لنا أن هناك سؤالاً أساسياً سبق المعمودية، وهو سؤال عن المانع أو الحائل الذي يحول بين هذا الشخص وبين قبوله للمعمودية.

وقد استخدم هذا الفعل في مناسبة أخرى، وهي إشارة غير مباشرة إلى المعمودية، عندما قال الرب: "دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات" (مر ١٠: ١٣ – ١٤).

من هنا يظهر لنا بكل وضوح أن ما سنراه من أسئلة خاصة بالإيمان، والاعتراف، والمنع، سيظهر بعد ذلك في العصور التالية في شكل أكمل، لأن المصادر أسهبت في الوصف والشرح.

الفصل السادس

الاعتراف بالإيمان في العهد الجديد

عندما كتب الآباء الرسل أسفار العهد الجديد، تركوا في كل صفحة من صفحاته اعترافاً بالإيمان بالمسيح، أو بالآب أو بالروح القدس. وقد جاءت هذه الاعترافات بسيطة واضحة تُعبِّر عن الإيمان بدون اهتمام بالصياغة اللاهوتية. كان أبرز ما في هذا الاعتراف هو أن يسوع المسيح هو الرب، وقد استخدم العهد الجديد صيغة مشهورة "Κυριος Ιγσους" لا يستطيع أحد أن يقول إنَّ يسوع هو الرب إلَّا بالروح القدس".(١ كو ١٢: ٣). ثم لاحظ جيداً هذا النص: "إذا اعترفت بفمك أن يسوع هو الرب وآمنت بقلبك أن الله أقامه من بين الأموات خلُصت" (رو ١٠: ٩)، ومن هذا النص نُدرك أن هناك اعترافاً بالمسيح وأن عدم الاعتراف هو خيانة (راجع مت ١٠: ٣٣، ٢٦: ٣٤).

كانت المحاكمات تحاول أن ترغم المسيحي على أن يقول: "يسوع أناثيما *Anathema* أي ملعون أو مرفوض (كورنثوس الأولى ١٢: ٣٠). وفي محاكمة الشهيد بوليكارب، طلب منه الوالي أن يلعن المسيح، فأجاب بوليكارب: "كيف ألعن ملكي" (استشهاد بوليكارب ٩: ٣). وفي خطاب بلين يقول للإمبراطور: "أُحاول أن أجعلهم يلعنون المسيح" (١٠: ٩٣).

كانت أهم المناسبات للاعتراف بالإيمان هي المعمودية، ويلاحظ علماء العهد الجديد أن المعمودية باسم الرب يسوع (أع ٨: ١٦، ١٩: ٥) تعني الاعتراف بالمسيح يسوع.

ويمكننا أن نتصور الجماعة المسيحية وهي مجتمعة معاً للعبادة والتي يصفها القديس بولس: "لتجثو كل ركبة مما في السماء ومن على الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو الرب لمجد الله الآب ... " (في ٢: ١١). هذه الجماعة التي يخاطبها الرسول قائلاً: "أنتم الذين قبلتم المسيح يسوع الرب... " (كو ٢: ٦) عندما بشَّرهم الرسل بالرب يسوع (أع ١١: ٢٠).

والاعتراف بيسوع الرب هو أيضاً الاعتراف به مسيحاً، أي الممسوح بالروح القدس. وهذه النقطة على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن يسوع هو المسيح، وهو موضوع كل نبوات العهد القديم التي تمَّت وأُكملت في يسوع الناصري، وهذا هو ما يعنيه يوحنا الرسول: "مَن هو الكذّاب إلَّا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح" (١ يو ٢: ٢٢)، "والرب يسوع هو ابن الله" (١ يو ٥: ٥)، "والذي جاء في الجسد" (١ يو ٤: ٢)، ويمكننا أن نلاحظ كيف استخدم الرسول بولس كلمات معينة سبقت الاعتراف بالإيمان:

"**لأني سلَّمت إليكم ما استلمته أنا نفسي، أن** المسيح مات عن خطايانا حسب الكتب وأنه دُفن وأنه قام في اليوم الثالث **حسب الكتب**" (١كو ١٥: ٣).

ومن الواضح هنا أن القديس بولس يتحدَّث عن تسليم الإيمان الذي استلمه هو نفسه. هذا الإيمان خاص بموت المسيح وقيامته... وأن هذا الإيمان تؤكده أسفار الكتاب المقدس بعهديه "القديم بنوع خاص" (مع مراجعة رو ١: ٢ – ٣، تي ٢: ٨، رو ٨: ٣٤).

ويمكننا أن نلاحظ تكرار عبارات معينة مما يؤكد أنها مألوفة لدى الكل، وهي على سبيل المثال: "المسيح يسوع أسلم نفسه عن خطايانا" (غل ١: ٤). "الرب يسوع الذي مات لأجلنا" (تس ٥: ٩). بل لاحظ كيف تظهر هذه التعبيرات بكل وضوح في فقرة طويلة عند الرسول بطرس: "لأن المسيح تألم لأجل خطايانا... مماتاً في الجسد ولكن مُحييً في الروح.... بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات الذي هو في يمين الله إذ قد مضى إلى السماء" (١ بط ٣: ١٨ – ٢٢). والاعتراف بالله الواحد هو أيضاً جزء أساسي من

الاعتراف بالإيمان: "لنا إله واحد الآب الذي منه كل الأشياء ونحن به ورب واحد يسوع المسيح الذي به كل الأشياء ونحن منه" (١كو ٨: ٦).

وإذا لاحظنا أن هذا الاعتراف وُضِعَ في نطاق التعليم عن خلق العالم وعن الخلاص، أمكننا أن ندرك كيف قدَّم الرسل الإيمان، وكيف ارتبط الخلق بالخلاص؛ لأن الخالق الآب، والمخلص ابنه يسوع المسيح (راجع ١تي ٢: ٥).

كان الاعتراف بالإيمان علامة على السلوك الحسن، أو السلوك حسب التقوى: "أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن أن تحفظ الوصية، إلى ظهور ربنا يسوع المسيح" (١ تي ٦: ١٣). قارن هذا النص بالنص المشهور في (٢ تي ٤: ١).

والعهد الجديد عندما يخاطب المؤمنين، يذكِّرهم دائماً بالاعتراف بالله والرب يسوع المسيح: بميلاده – موته – قيامته – مجيئه الثاني – بالروح القدس (راجع رو ٤: ٢٤، ٨: ١١، ٢كور ٤: ١٤، غل ١: ١، ١تس ١: ١٠، كو ٥: ١٢، أف ١: ٢٠، ١بط ١: ٢١، ٢بط ١: ٢، ٢يو ١: ٢ – ٣). ولم تكن التحية الرسولية مجرد كلام عادي يتضمن الحديث عن الصحة أو الأحوال الجوية أو الأخبار الأخرى، بل كانت دائماً: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس تكون معكم" (٢كو ١٣: ١٤). هذه التحية موجهة إلى المؤمنين الذين عرفوا الآب والابن والروح القدس في معموديتهم: "تلمِذوا – عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (مت ٢٨: ١٩). هذا الاختبار الحي في المعمودية هو الكامن خلف هذه الكلمات: "لكن الذي يثبتنا معكم في المسيح هو الله الذي مسحنا وختمنا وأعطانا عربون الروح القدس" (٢كو ١: ٢١).

الجزء الثاني

طقس المعمودية في القرون الأربعة الأولى في الكنيسة الواحدة الجامعة

الفصل الأول

الإعداد لقبول المعمودية

كانت الكنيسة تُعد الآتين إلى الله لقبول المعمودية، وكان هذا الإعداد يتطلب دقةً واهتماماً لكي لا يدخل الكنيسة إلَّا من يفهم.

تمهيد:

سوف ندرس طقس المعمودية من مصادر القرون الأربعة الأولى، وسنجد أنفسنا ندرس اللاهوت نفسه من خلال الترتيب الطقسي. ذلك أن الترتيب نفسه يُعبِّر عن إيمان الكنيسة، بل هو بناءٌ مُشيَّدٌ على أساس لاهوتي بدونه لا يمكن فهم الطقس نفسه، ولذلك كان من الضروري أن نشرح ترتيب الطقس نفسه أولاً حتى يمكننا أن نكتشف الأساس اللاهوتي الذي بُني عليه الطقس، وسوف نعتمد على كتابات الآباء وحدها.

الموعوظون

١ – مَن هم الموعوظون؟ Κατηχυμενος

الموعوظ هو كل من يستمع كلام الوعظ والتعليم في الكنيسة بغرض الانضمام إلى شركة المؤمنين، ونوال نعمة التبني في المعمودية المقدسة. والكلمة في اليونانية جاءت من الفعل Κατηχεω أي يعلِّم أو يعطي التعليم. ويسمي ترتليان الموعوظين "جنود

الرب الجدد" *De Peonitent VI*. وتُسمي المصادر القديمة الموعوظين بالسامعين، أي الذين سُمِحَ لهم بسماع الكتاب المقدس وكلمة الوعظ.

وكان الموعوظ – حسب شهادة التقليد الرسولي وقوانين الرسل – يُقبل في الكنيسة بطقس خاص معروف باسم وضع اليد. وحتى الملك قسطنطين نفسه قبل أن يموت ذهب ليصلي في كنيسة *Helenopolis* التي أخذ فيها وضع اليد عندما كان موعوظاً **.***Vit Const IV.IXI* وقد أشار القانون السابع من قوانين المجمع المسكوني الثاني الذي عُقد في القسطنطينية سنة ٣٨١م إلى وضع اليد لقبول الأمم الراغبين في أن يصبحوا موعوظين.

وقد ميَّزت قوانين الإمبراطور ثيؤدوسيوس، الكتاب ١٤ فصل *Tit VII. De Apost at beg II* بين نوعين من أعضاء الكنيسة:

- الأول المسيحيين المؤمنين،
- والثاني المسيحيين الموعوظين.

والمؤمنون هم الذين دخلوا شركة الكنيسة بالمعمودية، أمَّا المسيحيون الموعوظون فهم الذين يرغبون في الانضمام إلى هذه الشركة، وقُبِلوا كسامعين بوضع اليد والصلاة.

وكان وضع اليد يعقبه وضع علامة الصليب على الجبهة. وقد أشار القديس أوغسطينوس إلى هذا الطقس في كتاب الاعترافات، حيث قال: "إنه عندما قُبِلَ في الكنيسة، وُضِعَت علامة الصليب على جبهته" (الاعترافات، الكتاب ١٠: ١١). وفي سيره القديس بورفوريوس أسقف غزة في القرن الثالث ذُكر أن الوثنيين سجدوا له وطلبوا علامة المسيح، فرشمهم الأسقف بعلامة الصليب وصيَّرهم موعوظين (حياة بوفوريوس بقلم ماركوس، طبعة بارونيوس، ت ٤٠١).

٢- في أي سن كان يُقبل الموعوظ؟

من الواضح أنه بالنسبة للمؤمنين الذين كانوا يأتون إلى الكنيسة، كانوا يُقبَلون في أي سن يجيئون فيها، وهؤلاء حتماً كانوا في سن النضوج؛ لأن تغيير الإيمان يقتضي أن يكون الوثني على معرفة بالمسيحية.

في حالة الأطفال الرضعان الذين وُلدوا من أبوين مسيحيين، كانت الكنيسة تسمح بدخولهم كموعوظين في الكنيسة حسب شهادة القديس كيرلس السكندري دون أي تحديد للعمر. وفي حالة أطفال الوثنيين، يذكر البابا تيموثاؤس السكندري أنهم كانوا يأتون مع أبويهم إلى الكنيسة في سن السابعة على الأقل (الأجوبة القانونية – السؤال الأول).

٣- ما هي مدة تعليم الموعوظ؟

في سفر الأعمال لا نعرف بالضبط المدة التي انتظرها تيموثاؤس، أو ليديا، أو سجان فيلبي، ولا يُنتظر من الرسول لوقا أن يدخل في هذه التفصيلات. لكن كتاب المراسيم الرسولية حدّد مدة ثلاث سنوات (الكتاب الثامن: ٣٢). لكن على ما يبدو أن اختبار الموعوظين كان يتبعه اختباراً ثانياً للذين حصلوا على معرفة يقينية، وأبدوا استعداداً للمعمودية أكثر من غيرهم. هؤلاء كانوا يسمعون التعليم الأخير، وشرح معتقدات الكنيسة الرئيسية خلال الصوم الأربعيني، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس الأورشليمي في عظاته للموعوظين، والقديس جيروم اللاتيني الذي ذكر في رسالته *Ad Pommach IV* أن الصوم الأربعيني كان يُخصص لشرح قانون الإيمان بنوعٍ خاص، وكان الموعوظ يراقَب بدقة لمعرفة مدى استعداده القلبي للإيمان، حتى أن القديس كيرلس السكندري يقول في رسالته لأساقفة ليبيا إنَّ الموعوظ الذي سقط وارتد عن الإيمان الذي قبله، أو ارتكب جرائم وخطايا، يُعاقَب بالطرد من جماعة الموعوظين، ويُعمَّد ساعة وفاته، إلَّا إذا أظهر التوبة والندم اللائق.

لكن كانت الكنيسة على قدر كبير من الرحمة والمحبة؛ لأنها كانت تسمح بمعمودية الموعوظ إذا كان في خطر الموت. وقد ذكر القديس باسيليوس في رسالته ١٨٦ أن القنصل الروماني *Arintheus* الذي قبل المسيحية عن طريق زوجته كان في خطر الموت وعُمِّد فوراً. ويقول القديس إبيفانيوس أسقف سلاميس في قبرص إن الموعوظ الذي آمن بالقيامة من الموت وسكن هذا الرجاء في قلبه كان يُعمَّد إذا تعرض للموت لكي لا يموت رجائه. (ضد الهرطقات ف ٢٨: ٦).

٤- ما هي الموضوعات التي كانت تُدرس للموعوظ؟

من عظات القديس كيرلس الأورشليمي نعرف على الفور أن قانون الإيمان كان الموضوع الرئيسي في تعليم الموعوظين، وكان هذا يشغل الجانب الرئيسي في التعليم الأخير أثناء الصوم الأربعيني. ويذكر كتاب المراسيم الرسولية والدسقولية العربية: "على الموعوظين أن يتسلموا قبل المعمودية **معرفة الله الآب والابن الوحيد والروح القدس، ونظام خلق العالم والإعلانات الإلهية، ولماذا خُلِق الإنسان والعالم، ويتعلم عن ناموس الطبيعة لكي يعرف الهدف الذي خُلِقَ لأجله. ويتعلم كيف عاقَب الربُ الخطاةَ بالماء والنار، وكلَّل قديسيه في كل جيل مثل شيث وأنوش وأخنوخ ونوح وإبراهيم وملكي صادق... الخ، ويتعلم تجسُّد المسيح وآلامه وقيامته وصعوده، وما معنى جحد الشيطان والدخول في عهد مع المسيح**" (الكتاب السابع: ٣٩).

وكانت الكنيسة تسمح للموعوظين بقراءة الكتاب المقدس، وبدقة أكثر أجزاء معينة منه. كما أكد القديس أثناسيوس أن الموعوظين كانوا يقرأون الحكمة لابن سيراخ مع يهوديت وطوبيت وتعليم الإثنى عشر وراعي هرماس *Epist Heortastic* ويؤكد القديس كيرلس الأورشليمي – دون تحديد – أنه كان مسموحاً لهم قراءة الكتب المقدسة

التي تُقرأ في الكنيسة فقط، أي الأسفار القانونية كما يحذِّرهم من عدم الابتعاد عن الكتب الابوكريفا *(Cat IV.22,)*.

٥- درجات الموعوظين:

من المصادر اليونانية فقط نسمح عن نوعين من الموعوظين هم:

١- غير الكاملين. ٢- الكاملين.

وحسب شرح أساتذة القانون الكنسي مثل بلسامون وزوناروس ***Balzamon Zonaros*** للقانون الخامس لمجمع نيوقيصرية، الذي يذكر أن الموعوظ الذي يدخل الكنيسة يقف مع غيره من الموعوظين إذ وُجِد في ذنب. وإن كان في الراكعين، فليصبح مع السامعين بشرط أن لا يعود إلى خطيئته، لكن إذا ظل في خطيئته وهو مع السامعين فليُطرد خارج الكنيسة. وبذلك تصبح درجات الموعوظين على النحو التالي:

أ-السامعون

هؤلاء كان يُسمح لهم بحضور الوعظ وسماع فصول الكتاب المقدس، ولم يكن من حقهم حضور الصلوات في الكنيسة، ولذلك كان في القداسات القديمة نصٌ يقول: "لا يبقى أيٌ من السامعين" (المراسيم الرسولية ٨: ٥)، وكان الشماس هو الذي يتولى إخراج هؤلاء الذين وصفهم قانون ١٤ من مجمع نيقية بالسامعين للتمييز بينهم وبين الموعوظين الذين كان من حقهم حضور الصلوات، والركوع مع المؤمنين خصوصاً لقبول وضع اليد بعد انتهاء التعليم.

ب – الراكعون:

يقول قانون ١٤ لمجمع نيقية: "قرر المجمع العظيم المقدس أن الموعوظين الذين سقطوا يصبحون سامعين ثلاث سنوات، وبعد ذلك يُسمح لهم بالصلاة مع الموعوظين".

والصلاة مع الموعوظين كانت حضور قداس الموعوظين الذي كان يبدأ بقراءة الأسفار المقدمة وعظة الأسقف ثم يعقبه الصلاة من أجل الموعوظين حسب القانون ١٩ لمجمع اللاذقية، وهي جزء من الأواشي بعد العظة، وقد ذكرت المراسيم الرسولية نص هذه الصلوات (٨: ٦ وذهبي الفم العظة الثانية على ٢كو). وكان الراكعون يحضرون الأواشي بعد العظة، ثم يأخذون وضع اليد وهم ركوع، لذلك وصفهم القانون الخامس من قوانين مجمع قيصرية الجديدة بالراكعين وعُرفت الصلاة الخاصة بصرف الموعوظين بصلاة وضع اليد.

جـ – المستنيرون أو الذين سيُعمَّدون:

تصف المصادر المسيحية القديمة الذين أُختيروا للمعمودية باسمين هامين:

١– المستنيرون. ٢– الذين سيُعمَّدون.

هؤلاء قد تم اختيارهم وقُدِّمت أسماؤهم للأسقف، وبدأ إعدادهم للمعمودية. وقد استخدم القديس كيرلس الأورشليمي الاسم الأول، أي "المستنيرون" *(Cat:1.2)* لوصف هؤلاء الذين يرغبون فعلاً في المعمودية. ويلاحظ أن كلمة "مستنير" هي إحدى الكلمات الأساسية في العهد الجديد (عب ٦: ٤). التي تصف عمل الروح القدس والكلمة في إنارة عقل الموعوظ. وفي القوانين الرسولية أستُخدم الاسم الثاني وهو الاسم الذي يظهر في كل الطقوس القديمة وبالذات في الطقس القبطي، (المراسيم الرسولية ٨:٨). وهؤلاء الذين استعدوا للمعمودية تُقرأ عليهم الصلاة في الكنيسة أثناء الخدمة، وتُعرف هذه الصلاة باسم الصلاة من أجل الذين سيُعمَّدون.

الفصل الثاني

الاستعداد للمعمودية
والطقوس الأخيرة قبل التعميد

كانت أسماء المختارين للمعمودية تُقدَّم إلى الأسقف، وحسب شهادة المصادر القديمة، كان هؤلاء يسجِّلون أسماءهم في الأحد الأول من الصوم الكبير. وقد ذكرت إيجيريا الأسبانية ما يلي:

من يرغب في أن يُقدِّم اسمه للمعمودية يذهب إلى القس عشية بداية الصوم الأربعيني، ويكتب القس الأسماء، وفي اليوم التالي أي في بداية الصوم حيث تبدأ الأسابيع الثمانية، وفي الكنيسة الوسطى المعروفة باسم ***Martyrium*** يجلس الأسقف على كرسيه، ويقود القس كل راغب في المعمودية واحداً تلو الآخر إلى الأسقف. ويأتي كلٌ مع عرَّابه الرجال والنساء على حدٍ سواء. عندئذ يسأل الأسقف الذين جاءوا مع طالب المعمودية، وخصوصاً جيرانه: "هل يحيا حسب التقوى؟ هل يحترم والديه؟ هل يسكر ويكذب؟" فإذا وجد أنه بلا لوم وشَهِدَ عنه الذين قدَّموه، يكتب الأسقف بنفسه الاسم. أمَّا إذا وجد أنه لم يعش حسب التقوى، يقول له الأسقف: "أذهب وأصلح حياتك، وعندما تُصلح حياتك تعال إلى المعمودية...".

ومن أنطاكية يأتينا وصفٌ آخر لثيؤدور المصيصي حيث يذكر من يرغب في المعمودية المقدسة فليقدم ذاته إلى كنيسة الله، وسوف يقبله بفرح الرجل المكرس لهذه

الخدمة. وحسب العادة المرعية تُكتب أسماء طالبي المعمودية، وسوف يُبحث عن سيرة طالب المعمودية وطريقة حياته. ويكتب الكاهن الأسماء في سفر الكنيسة، ويكتب معه أسماء الذين قدَّموه كما لو كان في دار القضاء ويدافع الموعوظ عن نفسه، ويدافع عنه الذين قدَّموه، ويدافع طالب المعمودية عن نفسه، ويرفع يديه إلى فوق للصلاة، ويخفض عينيه إلى أسفل، ولذلك السبب عليك يا طالب المعمودية أن تخلع ثيابك الخارجية ونعليك وتقف على قطعة من الصوف (*Cat XII:1*). ويؤيد ذلك شهادة الكتاب القديم المعروف باسم الرئاسة الكهنوتية لديونيسيوس الأريوباغي حيث يذكر هو أن أسماء طالبي العماد مع شهودهم تُكتب في كتاب الكنيسة الذي يسميه بسفر الحياة διπτυχαξωντων (ك ٢:٤). وفي شرح هذا الطقس عند ثيئودور المصيصي رأينا أن الجانب الأساسي هو بداية دخول المستنير في صراعه مع الشيطان، ومحاولة الشيطان استرجاعه وإعادته إلى سلطانه. ومن الواضح أن قطمارسات الكنائس القديمة[١] كلها تقرأ الفصل الخاص بتجربة الرب على الجبل في أول الصوم الأربعيني. أي في ذات الأحد الذي كان طالبوا العماد يُسجَّلون فيه في كتاب الكنيسة أو سفر الحياة. وهنا يظهر بكل جلاء كيف ترتبط تجربة المسيح آدم الثاني بسقوط آدم الأول، بل لعل وقوف الموعوظ على قطعة من الصوف أو الشعر هو إشارة إلى ثياب آدم التي ارتداها بعد السقوط، والتي لا يزال الموعوظ يرتديها، وهو هنا يستعد لكي يخلعها.

وكانت مناسبة تسجيل الأسماء ذات أهمية عند الآباء حتى أنهم وصفوها على النحو الآتي الذي نراه عند القديس غريغوريوس النيسي والقديس كيرلس الأورشليمي: "أعطوني أسماءكم لكي أكتبها بالحبر، لكن الرب نفسه سوف يحفرها على الألواح التي لا تفسد، وسوف يكتب بإصبعه كما كتب الوصايا العشرة التي أعطاها للعبرانيين... أنتم الذين تتقدمون للمعمودية. إن الذي يسره كتابة أسمائكم وقد دُعى لهذه الوظيفة سوف

---

(١) لازال هذا الفصل يقرأ في قطمارس الكنيسة القبطية في الأحد الأول من الأربعين المقدسة.

يسجِّل أسماءكم في سجل الكنيسة، لكن من الآن أسماؤكم مكتوبة في السموات وسوف يعلِّمكم عرَّابكم كل شيء" (عظة للذين يؤخرون المعمودية، مجلد ٤٥: ٤١٧ – ٤١٩).

ومن خلال الصوم الأربعيني كان المستنير يذهب إلى الكنيسة يومياً **لتلقي كلمات التعليم ووضع اليد،** وقد أشار كيرلس الأورشليمي إلى أهمية الاستعداد للمعمودية في هذه الفترة، وطلب من الذين يستعدون، أن يأخذوا الأمر بجدية أكثر من الذي يستعد للزواج، والذي ينسى كل شيء ما عدا زواجه.

وحسب شهادة أيجريا كان المستنير يخضع لطقس طرد الشياطين طوال مدة الصوم، ويؤكد هذا القديس كيرلس الأورشليمي إذ يقول: "خلال طرد الشياطين يجب أن يظل الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء على أن يقرأ الرجال الكتب النافعة عندما يُصلِّي طاردوا الأرواح على غيرهم، أمَّا النساء فإنهن يرتلن المزامير في صمت حتى لا يشتت صوتهن تفكير الباقين *(Praefat Ad, Cat)*.

ويقول القديس غريغوريوس الثيؤلوغوس: "لا تحتقروا دواء طرد الشياطين ولا تتعب من طوال الصلوات؛ لأن كل هذه هي امتحان لصدق النفوس وإخلاصها وطلبها المعمودية باشتياق" (عظة على المعمودية: ١٥).

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي: "أقبلوا طرد الشياطين بكل اهتمام وورع أثناء التعليم وسواء أكان بالنفخ أو وضع اليد، فإن كل هذا لفائدة النفس؛ لأن المعادن التي اختلطت ببعضها لا يمكن فصلها بدون النار، هكذا النفس التي ملأتها الأرواح الشريرة بالشر لا يمكن أن تطهر إلَّا بطرد الشياطين، وهو طقسٌ إلهي مأخوذ من الكتب المقدسة". ويقول بعد ذلك: "إن طارد الشياطين يقوم بخدمته بقوة الروح القدس، وهو يرعب الشياطين، ويجعل الأرواح النجسة تهرب من النفس وتتركها في حالة نقاء وفي رجاء الحياة الأبدية". (المرجع السابق).

وطرد الشياطين هو صلوات مأخوذة من الكتاب المقدس يتم فيها استدعاء اسم الله والرب يسوع، وهو توسل وطلب إلى نعمة الله لكي تقهر الأرواح النجسة وتكسر سلطانها على النفس خصوصاً روح الضلال والشر الذي قاد البشرية إلى عبادة الأصنام. ويصف القديس كيرلس الأورشليمي طرد الشياطين: "بنفخة طارد الشياطين، وكأن هناك ناراً خفية هي نار الروح القدس تزعج الشيطان وتكسر السلاسل التي ربط بها النفس". (المرجع السابق، وقانون ٥٤ من قوانين المجمع الرابع لقرطاجنة).

هذا الجانب من طقوس ما قبل المعمودية، يعتمد على تعليم الكنيسة منذ عصر الرسل. على أن سقوط الإنسان أدَّى إلى خضوع الإنسان إلى سلطان وسيادة الشيطان عليه "ليرجعوا من ظلمات إلى نور، ومن سلطان الشيطان إلى الله... " (أع ٢٦: ١٨). وكسر هذا السلطان وقوته ظهر أولاً بشكل واضح في التجسد. وهنا يجب أن نلاحظ كيف حشد الإنجيليون الأربعة عدداً ضخماً لا يمكن تقديره من معجزات إخراج الأرواح النجسة، والتي تمت حتى قبل موت الرب على الصليب. وعلينا أن نلاحظ كيف استخدم الإنجيل تعبير "سلطان" بالنسبة لإخراج الأرواح النجسة "سلطان يأمر حتى الأرواح النجسة" (مر ١: ٢٢، لو ٤: ٣٦).

هذا السلطان أعطاه الرب للرسل (مت ١٠: ١، مر ٦: ٧، لو ٩: ١). وهو الذي يُستخدم الآن للقضاء على عبودية الإنسان للشيطان (عب ٢: ١٤)، وهي عبودية الموت.

ولذلك يمكننا أن نرى بكل وضوح أن تبعية البشر لآدم هي تبعية خضوع للشيطان، وهو ما يقتضي تحرير الإنسان من هذا الخضوع، قبل تجديد طبيعته في المعمودية.

الصوم:

حسب شهادة مصادر القرن الثاني كانت المعمودية دائماً يسبقها الصوم، ولذلك يقول الشهيد يوستينوس: "كل الذين يؤمنون بأن هذه الأمور صحيحة ويَعِدون بأن يعيشوا بالتقوى حسب وصايا ديانتنا، يتعلمون أولاً أن يطلبوا من الله الصفح عن خطاياهم القديمة بالصلوات والأصوام، وحتى نحن أيضاً نشترك معهم بالصلوات والصوم" (الدفاع الثاني: ٩٣). ومن الواضح أن يوستينوس، وإن كان لا يذكر صراحةً الصوم الأربعيني، إلَّا أن اشتراك الكنيسة بأسرها في الصلاة والصوم مع الذين يرغبون المعمودية هو دليل على اهتمام الجماعة المسيحية بالذين يأتون إليها.

وقد ذكر الديداكي: "قبل العماد ليصُم المعمِّد والمعمَّد وغيرهما، ومن يستطيعون يوماً أو يومين قبل العماد" (٧: ٤). وقد أكد ترتليان في مقالته عن المعمودية: ٢٠ إن الصوم والسجود والاعتراف بالخطايا يسبق المعمودية. وكان الاعتراف بالخطايا علنياً، وأحياناً للكهنة. (راجع كيرلس الأورشليمي *Cat1:5* وغريغوريوس النزينزي: مقالة عن المعمودية.*Orat 40*).

وبالطبع فقد أدَّى هذا إلى ترتيب الصوم الأربعيني نفسه، وأثَّر ذلك على القراءات الكنسية وجعلها تعطي اهتماماً كبيراً لموضوع تجديد النفس وعودة الإنسان إلى الله، وهو الهدف الذي نراه في كل قراءات الكنائس الشرقية أثناء الصوم الأربعيني إلى هذا اليوم.

تسليم قانون الإيمان:

عندما كتب الآباء الرسل أسفار العهد الجديد تركوا في كل صفحة من صفحاته اعترافاً بالإيمان جاء بشكل واضح وصريح. عندما نقرأ العهد الجديد علينا أن نلاحظ أن الذين كتبوا، كانوا يتحدثون عن "إيمانهم بيسوع المسيح"، ولذلك جاءت صيغ الاعتراف

بالإيمان طبيعية لا صناعة فيها ولا تزويق. علينا أن نراجع مثلاً بعض النصوص لنرى كيف يتم الاعتراف بالإيمان في صيغة محدودة:

يسوع هو الرب: Κυριος Ιησους

"لا يستطيع أحد أن يقول: **يسوع هو الرب** إلَّا بالروح القدس" (١ كو ١٢: ٣). "إذا اعترفت بفمك أن **يسوع هو الرب** وآمنت بقلبك أن الله أقامه من بين الأموات خلصت" (رو ١٠: ٩). وعلينا أن نقرأ جيداً كيف اعتبر العهد الجديد إنكار السيد المسيح خيانةً وارتداداً (راجع مت ١: ٣٣، ٢٦: ٣٤). وعندما يؤكد الرسول بولس أن المسيحي لا يستطيع أن ينكر الإيمان بالمسيح الرب طالما سكن فيه الروح القدس، فمن المؤكد أن عمل الروح القدس هو مساعدتنا على الاعتراف. لكن لاحظ كيف يقول الرسول: "لا يستطيع أحد أن يقول أن يسوع أناثيما *Anathema* (ملعون أو مرفوض)"، ولذلك فإن الشهيد بوليكاروبوس عندما طُلب منه أن يلعن المسيح رد وقال: "كيف ألعن ملكي" (استشهاد بوليكاربوس ٩: ٣).

وفي خطاب بليني *Pliny* حاكم إقليم بيثينيا إلى الإمبراطور تراجان يقول للإمبراطور: "إنني أحاول أن أجعلهم يلعنون المسيح" (الرسالة ١٠: ٩٦). وبالطبع كانت أهم مناسبات الاعتراف بيسوع الرب هي المعمودية. ولقد استقر الآن في كل دراسات العهد الجديد المعاصرة "أن المعمودية باسم الرب" (أع ٨: ١٦، ١٩: ٥) تعني أصلاً الاعتراف بالمسيح يسوع الرب في المعمودية[١].

ويمكننا أن نتصور الجماعة المسيحية المجتمعة معاً للعبادة، والتي يصفها بولس قائلاً: "لتجثو كل ركبة مما في السماء ومن على الأرض... ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو الرب لمجد الله الآب... " (في ٢: ١١)، هذه الجماعة هي التي يخاطبها الرسول

([1]) Cullmann, Les Premiers Confersions de foi. Chretiennes. Paris 1943.

قائلاً: "أنتم الذين قبلتم المسيح يسوع كرب" (كو ٢: ٦) عندما بشَّرهم الرسل "**بالرب يسوع**" (أع ١١: ٢٠).

والاعتراف بيسوع الرب كان أيضاً يتضمن الاعتراف به مسيحاً، وهذه النقطة على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن يسوع هو المسيح، وهذا هو محور كل نبوات العهد القديم التي تمت وأُكملت في الرب يسوع. يقول يوحنا الرسول: "مَن هو الكذاب إلَّا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح" (١ يو ٢: ٢٢).

"والرب يسوع هو ابن الله" (١ يو ٥: ٥)، "الذي جاء في الجسد" (١ يو ٤: ٢). ويمكننا أن نلاحظ كيف استخدم الرسول بولس كلمات معينة سبقت الاعتراف بالإيمان: "**لأني سلَّمت إليكم** ما استلمته أنا نفسي أن ... المسيح مات عن **خطايانا حسب الكتب**، وأنه دُفن وأنه قام في اليوم الثالث **حسب الكتب**" (١ كو ١٥: ٣). من الواضح أن الرسول هنا يتحدث عن تسليم الإيمان الذي استلمه هو نفسه، هذا الإيمان خاصٌ بموت المسيح وقيامته، وأن هذا الإيمان تؤكده أسفار الكتاب المقدس بعهديه (العهد القديم بنوع خاص). يمكن للقارئ مراجعة (رو ١: ٣، ٢تي ٢: ٨، رو ٨: ٣٤). وهناك عبارات فيها اعترافٌ واضح، هذه العبارات تتكرر بشكل ظاهر غير متغير، مثل "المسيح يسوع الذي أسلم نفسه عن خطايانا" (غل ١: ٤). "الرب يسوع المسيح الذي مات لأجلنا" (تس ٥: ٩). بل لاحظ كيف تظهر هذه التعبيرات بكل وضوح في فقرة طويلة عند الرسول بطرس: "لأن **المسيح تألم** لأجل خطايانا ... البار لأجل الأثمة لكي يقربنا لله **مُماتاً في الجسد** لكن مُحياً في الروح ... قيامة المسيح من بين الأموات الذي هو عن يمين الله إذ قد مضى إلى السماء ... " (١ بط ٣: ١٨). بل كان الاعتراف بالإيمان يؤكد وحدانية الله: "لنا إله واحد الآب الذي منه كل الأشياء ونحن به، ورب واحد يسوع المسيح الذي

به كل الأشياء ونحن منه" (١ كو ٨: ٦). ولاحظ كيف يوضع هذا الاعتراف في نطاق محدد وهو خلق العالم؛ لأن الخالق هو الآب في ابنه يسوع المسيح.

وقد أعاد الرسول صيغة الاعتراف وهو يتحدث عن عمل المسيح لأجلنا: "لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس يسوع المسيح الذي قدم ذاته فدية عن الجميع" (١تي ٢: ٥)، بل حتى عندما يتحدث الرسول بولس إلى تلميذه تيموثاؤس عن السلوك الحسن يقول له: "أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن... أن تحفظ الوصية ... إلى ظهور ربنا يسوع المسيح" (١ تي ٦: ١٣). والصيغة الإيمانية خلف هذا الكلام ظاهرة، خصوصاً صلب المسيح على عهد بيلاطس البنطي، وهنا الصليب والظهور الثاني معاً يكوّنان بندين من بنود الإيمان. ولاحظ كيف تكرر نفس الكلام: "أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته" (٢ تي ٤: ١).

الإيمان هو القاعدة التي تفسر لنا كل شيء في العهد الجديد، ولذلك فإنه ما أن يذكر العهد الجديد أن شيئاً ما يخص الحياة الروحية إلَّا ويضع له القاعدة اللاهوتية، وهي عادةً الاعتراف بالله والرب يسوع المسيح، بميلاده وموته وقيامته ومجيئه الثاني وبعمل الروح القدس (راجع مثلاً رو ٤: ٢٤، ٨: ١١، ٢كور ٤: ١٤، غل ١: ١، ١تس ١: ١٠، كو٥: ١٢، أف ١: ٢٠، ١ بط ١: ٢١، ٢ بط ١: ٢، ٢ يو ١: ٢ – ٣). بل لاحظ كيف يرسل بولس تحيته الرسولية: "نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله وشركة الروح القدس تكون معكم" (٢كو ١٣: ١٤). ولعلنا إذا قارنَّا بين هذه الكلمات وبين مت ٢٨: ١٩ حيث يوصي الرب تلاميذه: "تلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس"، أمكننا أن نرى أن إيمان المعمدين أو إيمان المعمودية هو أساس التحية الرسولية، ولاحظ كيف يفهم المعمدون إيمانهم: "لكن الذي يثبّتنا معكم في المسيح هو الله الذي مسحنا وختمنا وأعطانا عربون الروح القدس" (٢كو ١: ٢١).

لقد خَلَقَت الممارسات الكنسية مناسبات الاعتراف بالإيمان، ليس لأن الممارسات مثل المعمودية هي مجرد مناسبات، وإنما لأن هذه الممارسات تعتمد قبل أي شيء آخر على ما يعطيه الله فعلاً في المسيح وبالروح القدس، هذا العطاء لا يمكن فهمه، إلَّا بإدراك العلاقة بين الأسرار وعطاء الله والحياة اليومية. فقد كان المسيحيون يشيرون دائماً إلى ما أخذوه وما هو فيهم – كدليل – ليس فقط على الحياة الجديدة، بل على القوة التي تجعلهم يعيشون وفق أسلوب يومي خاص يختلف عن أسلوب العالم، وهو ما جعل الرسول يشير إلى قبول الروح القدس في المعمودية كقوة حياة لكل يوم من أيام العمر:"هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم أن لا تطفئوا الروح" (١تس ٥: ١٨).

الاعتراف بالإيمان في المصادر التالية للعهد الجديد:

الآباء الرسوليون:

في رسالة القديس أكليمنضس الروماني نقرأ: "أليس لنا إله واحد والمسيح الواحد والروح الواحد الذي أعطانا النعمة وسكب على الكل" (فقرة ٧)، وبلا شك فإننا نسمع صدى أفسس ٤: ٤ – ٦.

وبعد رسالة أكليمنضس يقول راعي هرماس: "أول كل شيء آمِن بالله الواحد الذي خلق وكون كل الأشياء... *Mandi,318*". وأول كل شيء هو بداية التعليم، وراعي هرماس يعكس لغة الرسول بولس بالذات: "الآب خالق كل الأشياء الذي في ابنه المحبوب يسوع المسيح دعانا من الظلمة إلى النور" (*Sim,5.5.*).

ولعل أوضح نصوص الاعتراف بالإيمان نجدها عند الشهيد أغناطيوس الإنطاكي: "أثبتوا إذاً على تعاليم الرب والرسول، لتنجحوا فيما تعملون بالجسد والروح في الإيمان والمحبة في الابن والآب والروح القدس" (مغنيسيا: ١٠)، وقبلها يقول الشهيد: "ليس

سوى إله واحد ظهر بابنه يسوع المسيح كلمته" (مغنيسيا: ٦). ولاحظ جيداً كيف يُعبِّر القديس أغناطيوس عن إيمانه بالمسيح: "إن إلهنا يسوع المسيح قد حملته أحشاء مريم كحسب التدبير الإلهي، فوُلد من ذرية داود ومن الروح القدس. وُلد وأعتمد **ليطهِّر الماء بآلامه** (أف: ١٧). وفي دقة يقول: "أصموا آذانكم عن أي شيء آخر سوى المسيح يسوع سليل داود المولود من مريم العذراء الذي وُلد حقاً وأكل وشرب حقاً وصُلب حقاً على عهد بيلاطس البنطي ومات حقاً أمام السمائيين والأرضيين والذين تحت الأرض، وقام حقاً من الموت. فالآب هو الذي أقامه **وسيقيمنا معه على مثاله** نحن الذين آمنا به وبدونه لا حياة حقيقة لنا" (ترالیا: ٧).

والشهيد بوليكاربوس، وهو معاصر للشهيد أغناطيوس يقول في رسالته إلى فيلبي: "من لا يعترف بأن يسوع المسيح قد جاء في الجسد فهو المسيح الدجّال ومن لا يسلِّم بشهادة الصليب فهو من الشيطان وكل من يسيء تأويل أقوال الرب حسب رغباته الخاصة وينكر القيامة والدينونة فهو بكر الشيطان، لذلك فلندع الأحاديث الضالة والباطلة والأقوال الفاسدة ولنتمسك بالتعاليم التي سُلِّمت إلينا منذ البدء".

ولو عُدنا إلى بداية الرسالة لعرفنا ما هو هذا الإيمان المسلَّم منذ البدء: "شدِّوا أحقاءكم واتقوا الله بالمخافة والحق طارحين جانباً كلام الثرثرة الفارغ وضلال الأمم موطدين الإيمان على من أقام ربنا من الموت وأعطاه المجد والملك عن يمينه وله يخضع كل ما في السماء وعلى الأرض ويعطي كل من فيه نسمة حياة وعندما يأتي ليدين الأحياء والموتى سيقاضي عن دمه كل من رفض الإيمان به" (٢ – ٧).

يقول الشهيد يوستينوس في دفاعه للإمبراطور بيوس، وحواره مع اليهودي تريفو عن الإيمان المسيحي: "**نحن نعبد الإله الحقيقي**، وابنه الذي جاء منه، **والروح** الذي أعطى النبوة" (الدفاع ١: ٦). وعندما يشرح هذا الإيمان للإمبراطور يقول: "الآب الذي خلق كل الأشياء بابنه يسوع المسيح وبالروح القدس (الدفاع ١: ٦٧). ويدفع تهمة الإلحاد

عن نفسه وعن المسيحيين: "نحن لسنا ملحدين لأننا نعبد خالق هذا العالم... ولدينا أسباباً حسنة تجعلنا نوقِّر الذي علَّمنا هذه الأشياء، والمولود منه يسوع المسيح الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي والي اليهودية في عهد طبياريوس قيصر... والروح القدس الذي أعطى النبوة..." (الدفاع ١: ٣١).

وعندما يتحدث الشهيد يوستينوس عن المعمودية، فإنه يذكر شيئاً هاماً جداً: "نحن ندعو اسم الآب ورب الكون وإلهه عندما نعمِّد الذي أُختير ليولد من جديد والذي تاب عن خطاياه. والذي يُعمِّد – عندما يقود الذي أُختير للمعمودية إلى الحياة – يصف الله هكذا بأنه خالق الكون وربه وإلهه ولا يزيد شيئاً، كما أنه يُعمِّد باسم يسوع المسيح الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي، وبالروح القدس الذي أخبر سابقاً عن طريق الأنبياء بكل الأشياء الخاصة بيسوع، وعند ذلك يغسل المستنير" (الدفاع ١: ٦١).

ويهمنا هنا أن نؤكد على حقيقة هامة، وهي **الأشياء الخاصة بيسوع**؛ لأن هذا التعبير جاء أثناء الحديث عن الروح القدس الذي أخبر عن طريق الأنبياء بكل الأشياء الخاصة بيسوع، وهذا يؤكد بكل وضوح أن تعليم الموعوظين كان يتضمن ليس الحديث فقط عن الآب والابن والروح القدس، بل استعمال النبوات على النحو الذي نراه بكل وضوح في العهد الجديد، والذي أشار إليه الرسول بولس بالذات في حديثه عن المسيح: "المسيح مات عن خطايانا **حسب الكتب**، وأنه دُفن وقام **حسب الكتب**" (١كو ١٥: ٣).

ولا يتسع المجال لاقتباس كل النصوص الهامة عند الشهيد يوستينوس عن المسيح، لذلك نكتفي بأهمها: "نحن نعلم بأن الكلمة هو بكر الآب مولودٌ منه بدون زرع بشر، يسوع المسيح معلِّمُنا الذي صُلب ومات وقام وصعد إلى السموات" (الدفاع ٢: ٢١). ونحن نجد في كُتب الأنبياء التي سبقت وأخبرت عنه "أن يسوع مسيحنا سوف يأتي لكي

يُولد من عذراء ويُصبح إنساناً ويُصلب ويموت ويقوم ويصعد إلى السماء" (الدفاع ١: ٣١، راجع أيضاً ١: ٤١، ١: ٤٦، ثم الحوار مع تريفو ٦٣: ١، ٨٥: ٢، ١٢٦: ١، ١٣٢: ١).

لقد أخذنا شهادة الشهداء الثلاثة العظام: أغناطيوس – وبوليكاربوس، ثم يوستينوس. ويهمنا الآن أن ننتقل إلى الجيل الثاني من المسيحيين بعد جيل تلاميذ الرسل[١].

القديس إيريناوس:

كتب القديس إيريناوس في الفترة ما بين ١٥٠ – ٢١٠م وهي فترة هامة اشتد فيها ساعد الهرطقات وانتشرت في كل مكان. يقول: "إن الكنيسة مبعثرة في كل أرجاء المسكونة لكن لها إيمان واحد سُلِّمَ من الرسل، ثم إلى تلاميذ الرسل، وعلى الرغم من أن لغات البشر تختلف إلَّا أن جوهر التقليد واحد في كل مكان (ضد الهرطقات ١: ١٠،١: ٢، مجلد ٧: ٥٤٩). ولدى القديس إيريناوس تعبير دقيق تكرر في مناسبات مختلفة هو "**قاعدة الإيمان**"، واتفق علماء الآباء على أن قاعدة الإيمان هي محتويات الإيمان المسيحي التي سُلِّمت إلى الكنيسة الجامعة؛ لأن إيريناوس نفسه قدَّم في المناسبات التي تحدث فيها عن قاعدة الإيمان محتويات العقيدة وعرض ملخصاً لتعاليم الكنيسة.

ولعل من أهم ما في هذا الملخص، المقالة المشهورة المعروفة باسم شرح الإيمان الرسولي، وهذا الكتاب يوجهه إلى صديقه مرقيانوس ***Marcianus*** يقول إيريناوس في الافتتاحية: "أول كل شيء علينا أن نتذكر أننا قبلنا المعمودية لمغفرة الخطايا باسم الله الآب، وباسم يسوع المسيح ابن الله الذي تجسد ومات وقام، وباسم روح الله الروح القدس". ثم يعود إلى تأكيد أهمية هذه الموضوعات الثلاثة في الفصل السادس والسابع، فيؤكد أن "... ولادتنا الجديدة تمت من خلال دعامات الإيمان الثلاثة. وهي الآب الذي

---

(١) لم نقتبس من الديداكي أو برنابا أو ديوجنيتس، رغم قدم هذه الوثائق بسبب الخلاف على تاريخ كتابتها، ومع ذلك فهي لا تختلف عما قرأناه.

ولدنا من جديد في ابنه يسوع المسيح وبالروح القدس". ولذلك يهمنا أن نقتبس نص الفصل السادس: "هذا هو ترتيب قاعدة إيماننا، وهي أساس البناء الثابت الذي شُيِّد عليه تحديدنا: الله الآب ليس مخلوقاً ولا محسوساً (مادياً) غير منظور. إلهٌ واحد. خالق كل الأشياء، هذا هو أول موضوع في إيماننا. والموضوع الثاني هو كلمة الله. ابن الله. المسيح يسوع ربنا. الذي أُعلن للأنبياء بطريقة نبوية، وحسب تدبير الآب. الذي به (الكلمة) خُلقت كل الأشياء. الذي في آخر الأزمنة لكي يكمِّل ويجمع كل شيء؛ تجسَّد وصار إنساناً وعاش مع الناس، بل صار ظاهراً ومحسوساً لكي يبيد الموت، ويُظهر الحياة، ويخلق شركةً بين الله والبشر. والموضوع الثالث هو الروح القدس الذي به تنبَّأ البطاركة (إبراهيم وإسحق ويعقوب) وعلَّموا ما يخص الله، وقاد الأبرار إلى طريق البر، والذي في آخر الأزمنة سُكِبَ على البشرية في كل أرجاء الأرض بطريقة جديدة لكي يجدد الإنسان ويعيده لله". (الفصل السادس ص ١٠٠ في الترجمة الإنجليزية).

بكل يقين يحصر إيريناوس الموضوعات الثلاثة التي على كل مؤمن أن يتعلمها لأنها مرتبطة بالمعمودية، وهذه الموضوعات هي: الآب، والابن، والروح القدس. وإذا عدنا إلى كتابه (ضد الهرطقات)، فإننا نقرأ ذات الشيء حيث يذكر إيريناوس في فقرة مشهورة جداً الذين سمَّاهم رجال الكنيسة الأرثوذكسيين الذي آمنوا وبشروا "بإله واحد ضابط الكل الذي به خُلقت كل الأشياء... وبابن الله يسوع المسيح ربنا الذي به كل الأشياء، وبالتدبير الخلاصي الذي بموجبه صار ابن الله إنساناً... والروح القدس روح الله الذي في كل جيل أعلن جهراً للبشر تدبير الخلاص الذي للآب والابن حسب إرادة الآب" (ضد الهرطقات ٤: ٢٣، ٧ مجلد ٧: ١٠٧٧).

وعندما يتحدث القديس إيريناوس عن إيمان الكنيسة يقول: "لأن الكنيسة المبعثرة في كل أرجاء المسكونة وحتى أقصى الأرض قد استلمت من الرسل وتلاميذهم ما وصل إلينا: إيمانهم في الله الواحد الآب ضابط الكل الذي خلق السماء والأرض والبحار

وكل ما فيها. وبالمسيح الواحد يسوع ابن الله الذي تجسَّد لأجل خلاصنا، وبالروح القدس الذي أعلن من خلال الأنبياء التدبير الخلاصي الذي تضمن مجيء (الابن)، والميلاد من العذراء والآلام والقيامة من بين الأموات، وصعوده إلى السموات، ومجيئه الثاني من السموات بمجد الآب لكي يجمع كل الأشياء ويقيم من جديد أجساد البشرية كلها... لكي يدين بالعدل كل البشر لأنه سيرسل إلى النار الأبدية كل قوات الشر الروحية والملائكة الذين أخطأوا أو عصوا وكل الأشرار من الناس، أمَّا الأبرار فإنه سيعطيهم الحياة والخلود ضامناً لهم المجد الأبدي" (ضد الهرطقات ١: ١٠، المجلد ٧: ٥٤٩).

وشهادة إيريناوس على قدر كبير من الأهمية، فهو نفسه يشعر بقيمة تحديد الإيمان في صيغة معروفة عندما يتحدث عن القبائل البربرية (الذين لا يتحدثون اليونانية أو اللاتينية)، هؤلاء ليس لديهم الأسفار المقدسة بلغتهم، لكنهم يعرفون محتويات الرسالة والإيمان المسيحي؛ لأنه مكتوب على قلوبهم، وهم يعلنون – مع الذين لديهم الأسفار — الإيمان بإله واحد خلق السماء والأرض وكل ما فيها في المسيح يسوع المسيح ابن الله الذي جاء من أجل عظم محبته للخليقة، ووُلد من العذراء لكي يتحد فيه الإنسان بالله، ومات على عهد بيلاطس البنطي، وقام وصعد بمجد عظيم، وسيأتي في اليوم الأخير... وبالروح القدس... (ضد الهرطقات ٣: ٤، ٢ مجلد ٧: ٨٥٥).

القديس هيبوليتوس:

لعل أهم ما ذكره هيبوليتوس عن الاعتراف بالإيمان هو الصيغة التي أقرها الأساقفة بسميرنا في آسيا الصغرى (تركيا الآن) وهي صيغة اعتراف وُضعت ضد هرطقة نوئيتس: "نمُجِّد الإله الواحد، ولكن كما نعرفه، ونقبل المسيح ابناً لله الذي تألم كما هو معروف لنا، ومات بالطريقة المعروفة (الصليب)، وقام في اليوم الثالث، وهو عن يمين الآب، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات" (ضد نوئيتس ١: ٢٣٥ – ٢٣٧). وعندما تصل إلى

هيبوليتوس، فإننا لا يجب أن ننسى التقليد الرسولي المعروف عندنا في الكنيسة القبطية باسم قوانين أبوليدس، وسوف ندرسه في موضع آخر.

رسالة الرسل Epistula Apostlorum:

والنص القبطي هو أقدم النصوص التي وصلتنا. وقد وُضعت هذه الرسالة لمحاربة الهرطقات الغنوسية، وكما يظهر من الاسم، فإن الهدف من كتابتها هو تحديد الإيمان الرسولي كما أعلنه الرسل. ولعل أهم فصل هذه الوثيقة الهامة هو الشرح الذي تقدمه لمعجزة الخمس خبزات؛ لأن الخمس خبزات هم بنود الإيمان الخمسة التي أشبعت جميع المؤمنين وهي الإيمان:

- بالآب خالق الكون
- ويسوع المسيح فادينا
- وبالروح القدس المعزي
- وبالكنيسة الجامعة
- وبمغفرة الخطايا.

(أخذ النص القبطي عن طبعة كارل شميدث سنة ١٩١٩ ص ٣٢).

الممارسة الطقسية للاعتراف بالإيمان في القرن الثالث:

لم تقدم لنا المصادر السابقة سوى صيغ الاعتراف بالإيمان والمناسبات التي تشير إليها، أي المعمودية. وحتى نهاية القرن الثاني لا نعرف على وجه التحديد كيف كان الاعتراف يمُارَس في الكنيسة، فمن المؤكد أنه كان يمُارَس، لكن متى وكيف؟

والرد يأتي وبشكل واضح من وثائق القرن الثالث، وأهمها القوانين المعروفة باسم قوانين أبوليدس، أو التقليد الرسولي للقديس هيبوليتوس الذي يبدو في الدراسات المعاصرة أنه اعتمد على قوانين الرسل. وهي أقدم بكثير من قوانين أبوليدس.

في الفصل الخاص بالمعمودية نقرأ هذا الوصف الطقسي القديم الذي يقول: "عند صياح الديك يقترب طالبوا العماد من المياه التي يجب أن تكون جارية ونقية، ويخلع الكل ملابسهم. ليعمَّد الأطفال أولاً، وإذا استطاع هؤلاء أن يجيبوا بأنفسهم فليجيبوا وإلَّا فليرد ذووهم أو أحد أفراد أسرتهم، ثم فليعمَّد الرجال البالغون، وأخيراً النساء بعد إسدال شعورهن وخلع جواهرهن. ولا ينزل أحد إلى الماء بشيء غريب وفي الساعة المحددة للعماد يبارك الأسقف الزيت ويضيفه في وعاء. وهذا يسمى (بزيت الخاريسما) وليأخذ زيت آخر ويتلو عليه صلاة الاستقسام، ويسمى هذا الزيت (بزيت الاستقسام)، أي (طرد الشياطين)، وليحمل الشماس هذا الزيت وليقف على يسار الأسقف بينما يقف شماس آخر على يمين الأسقف.

عندئذ ينفرد الأسقف بكل مَن يجب أن يعتمد ويأمرهم بالجحد العلني وهم متجهون نحو الغرب وذلك بقولهم: "أجحدك يا شيطان وأباطيلك وأعمالك".

وعلى أثر هذا الإعلان يدهن الأسقف طالب العماد بزيت الاستقسام قائلاً: "ليبعُد عنك كل روح شرير"، ثم يسلمه إلى الكاهن الواقف بجوار الماء. بينما ينزل شماس في الماء مع طالب العماد وينزل هذا الأخير في الماء ويضع الكاهن يده على رأسه ويسأله:

– هل تؤمن بالله الآب ضابط الكل؟ فيرد المعمد قائلاً: أؤمن به. عندئذ فليعمده للمرة الأولى. ويده على رأسه، ثم فليقل:

– هل تؤمن بالمسيح يسوع ابن الله الذي وُلد بفعل الروح القدس من العذراء مريم ومات وقُبر وقام حياً من بين الأموات في اليوم الثالث وجلس عن يمين الآب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات؟ فيقول: أؤمن. عندئذ يعمده للمرة الثانية.

وليقل له من جديد:

– هل تؤمن بالروح القدس وبالكنيسة المقدسة وبقيامة الجسد؟ فيقول المعمد: أؤمن. وعليه يعمده للمرة الثالثة.

وعندما يخرج من الماء يدهنه الكاهن بزيت الخاريسما قائلاً: "أمسحك بالزيت المقدس باسم يسوع المسيح...".

وإذا عَلِمنا أن هذا النص هو بذاته في التقليد الرسولي للقديس هيبوليتوس، فإننا يجب أن نبحث عن مدى شيوع هذه الممارسة في الكنيسة، لاسيما في القرن الثالث. وطبعاً أن تحديد القرن الثالث هو تحديد تاريخي، لكن لا يعني هذا أن النصوص وُلِدت في القرن الثالث طالما أن الوثائق من القرن الثالث. فقد تكون هذه ممارسة أقدم من القرن الثالث بكثير، ولكن المشكلة الرئيسية أنه لا توجد مدونات تقدم لنا هذه الصورة الواضحة قبل القرن الثالث. كان الاستجواب يتم في الماء وأثناء التعميد، وهو ما يبدو غريباً أو شاذاً، ولكنه كان طقساً معروفاً في الكنيسة كلها في الشرق والغرب، وهو ما يجعل شهادة قوانين الرسل والتقليد الرسولي لهيبوليتوس ذات أهمية.

متى كان يتم الاستجواب؟

في العهد الجديد كان الاعتراف بالإيمان مرتبطاً بالمعمودية كما جاء في حادثة الخصي: "هوذا ماء، ماذا يمنع من أن أعتمد فأجاب فيلبس إذا كنت تؤمن من كل قلبك يجوز". هنا اعترف الخصي بالإيمان وقال: "أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله" (أع ٨: ٣٦ – ٣٨، راجع أع ١٦: ١٤ – ٣٠، ٢٢: ١٦).

متى يتم الاعتراف؟

في رسالة القديس بطرس الأول ٣:٢١ يذكر الرسول أن المعمودية ليست حماماً للاغتسال وإزالة قذارة الجسد، بل هي سؤال من الله للضمير الصالح عن قيامة يسوع من بين الأموات. فكأن سؤالاً ما، كان يوجَّه لمن يعتمد عن معنى المعمودية. وهذه الطريقة

أوقع وأعمق؛ لأن السؤال هنا يتم لحظة التعميد، ويا لها من لحظة، عندما يغطس الموعوظ ثلاث مرات وفي كل غطسة يعترف بالآب والابن الذي تجسَّد ومات وقام بالروح القدس، وكأن كل غطسة هي دخول في شركة مع الأقانيم الثلاثة وشهادة على الإيمان نفسه.

لقد أخذنا من الشهيد يوستينوس عدة نصوص هامة عن صيغ الاعتراف بالإيمان. لكن كيف وصف يوستينوس نفسه خدمة المعمودية: "كل الذي اعتقدوا وآمنوا بأن تعاليمنا ورسالتنا حقيقية ووعدوا بأنهم سيعيشون حسب هذه التعاليم، نوصيهم بأن يصلوا ويصوموا وأن يتضرعوا إلى الله لأجل مغفرة خطاياهم السابقة. ونحن أيضاً نصلي ونصوم معهم. عند ذلك نقودهم إلى مكان حيث يوجد ماء لكي يولدوا ميلاداً ثانياً مثل ميلادنا الثاني عندما يغتسلون في الماء باسم الآب رب وإله كل الخليقة ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس". وبعدها يقول: "وندعو باسم الآب رب وإله كل الخليقة عندما نعمِّد الذي يريد أن يولد من جديد بعد ما تاب عن خطاياه، والذي يعمِّد يقود طالب المعمودية إلى المياه، ويقول هذه الكلمات فقط ويصف الله هكذا ... واسم هذا الميلاد الثاني هي (الاستنارة) والسبب في ذلك هو أن الذين يأخذون هذا التعليم استنارت عقولهم، كما أن هذه الاستنارة تمنح باسم يسوع المسيح الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي وباسم الروح القدس الذي أخبر الأنبياء سابقاً عن كل ما يخص يسوع وهكذا يغتسل الذي استنار" (الدفاع ١: ٦١).

نكاد نلمح في لغة يوستينوس نوعاً من الأسئلة عن الآب والابن والروح القدس. ويخطئ من يظن أن يوستينوس يتحدث عن صيغة التعميد كما جاءت في (مت ٢٨: ١٩)، ذلك أن الذي يعمِّد يعطي المعمودية باسم الآب رب وإله الخليقة، والإشارة إلى يسوع المسيح الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي، وباسم الروح القدس الذي أخبر الأنبياء

سابقاً. وهذا يقطع بأن هذه الكلمات ليست هي الصيغة البسيطة "أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس"، بل تؤكد وجود استجواب في الماء.

والقديس ترتليان بعد الشهيد يوستينوس كتب حوالي سنة ٢٠٠م على الأكثر يذكر نفس الممارسة، وهي شهادة تأتينا من شمال أفريقيا، وأوضح بكثير من شهادة يوستينوس: "عندما نغطس ثلاث مرات نجيب إجابة أطول من تلك التي قررها الرب في الإنجيل (الإكليل ٣: ٤٢ - ١). وفي مقال آخر يقول: "عندما ننزل إلى الماء، نؤكد إيماننا المسيحي بالإجابة على الكلمات التي حددها الطقس لأننا نشهد بشفاهنا أننا جحدنا الشيطان وكل قواته وكل ملائكته" *(De Spectar 4:231)*.

ومن المؤكد هنا أن القديس ترتليان يتحدث عن استجوابٍ في الماء وأثناء التعميد، وإلَّا ما معنى النص السابق، وبالذات الإجابة على الكلمات التي حددها الطقس "نجيب إجابةً أطول"، فإذا كانت مقالة ترتليان الأخيرة قد كُتبت حوالي سنة ٢٠٠م وبعدها بحوالي ٣٦ سنة سجَّل هيبوليتوس نفس الممارسة في التقليد الرسولي. (هناك بعض علماء الآباء يحدد تاريخ التقليد الرسولي بعام ٢١٧م)، فإن هذا يضعنا أمام أقدم وصف اجتمعت عليه المصادر، لا سيما إذا أضفنا هذا إلى قوانين الرسل والتقليد الرسولي. ولعل أهم ما يجيب أن نلاحظه هو أننا نقرأ هذا الوصف في كتاب يحمل اسم "التقليد الرسولي"، أي أننا أمام طقس قديم جدا في الكنيسة الجامعة.

وبعد ترتليان تأتينا شهادة كبريانوس الذي كتب ضد نوفاتيان المنشق وقال في رسالته (٦٩: ٧) ما يلي: "إذا عارض أحدٌ وظنَّ أن نوفاتيان يحترم ذات القاعدة التي تتمسك بها الكنيسة الجامعة وأنه يعمِّد بنفس القانون مثلنا، ويعترف بنفس الإله الآب وبابنه يسوع المسيح وبذات الروح القدس، وأن لنوفاتيان السلطة على أن يعمِّد لأنه لا يختلف عنا في الاستجواب الذي يتم أثناء المعمودية، من يظن هذا، فهو على خطأ؛ لأن عليه أن يلاحظ أن التشابه بين الكنيسة الجامعة والمنشقين لا يجعل معموديتهم صحيحة،

حتى وإن كان الاستجواب في المعمودية هو نفسه الذي في الكنيسة الجامعة؛ لأنهم عندما يقولون: "هل تؤمن بمغفرة الخطايا والحياة الأبدية في الكنيسة المقدسة"، هذا السؤال لا يقدر المنشقون على الإجابة عليه دون أن يكذبوا؛ لأنهم بلا كنيسة". وفي رسالة إلى فرمليان *Firmillan* يتحدث الشهيد عن امرأة مجنونة كانت تعمِّد أتباعها، ومن ضمن خداعها الذي استمالت به جمعاً من الناس، كانت تدَّعي أنها تقدِّس الخبز وتطيل الصلوات والدعاء، بل لقد عمَّدت كثيرين واستخدمت الكلمات المعتادة الطقسية للاستجواب حتى لا تظهر كأنها مختلفة عن الكنيسة الجامعة في أي قاعدة من القواعد ... بالتأكيد سوف يقبل اسطفانوس (أسقف روما) وأتباعه معموديتها خصوصاً وأنها لم تحذف القانون الثابت الخاص بالثالوث ولا الاستجواب الكنسي في المعمودية" (٧٥: ١٠).

ومن الإسكندرية تأتينا شهادة من نفس القرن الثالث، فإن البابا ديوناسيوس السكندري في رسالته إلى *Xystus* أكسيتوس أسقف روما يقول: "إن رجلاً كان في كنيسة الإسكندرية من أيام سلفه ياراكلاس عندما سمع الأسئلة والأجوبة في المعمودية "عرف أن هناك خطأً قد حدث عندما اعتمد هو؛ لأنه كان قد اعتمد من الهراطقة" (تاريخ الكنيسة ليوسابيوس ٧: ٩).

ولعله قبل هذه القصة بسنوات عندما كتب العلامة السكندري أوريجينوس تفسيره لإنجيل القديس يوحنا قال في شرحه لنص يو ١٣: ١٩: "هناك بنود للإيمان كل مَن يؤمن بها يخلص ... أولاً وقبل أي شيء آخر الإيمان بإله واحد الذي خلق وثبَّت كل المخلوقات وجاء بالكل من العدم. ويجب علينا أن نؤمن أيضاً بأن يسوع المسيح هو رب، وبكل التعاليم الحقيقية التي تخص إلوهيته وبشريته، وكما يجب علينا أن نؤمن بالروح القدس، وأننا بإرادتنا الحرة سوف نعاقَب على أفعالنا الرديئة والخيرة. وعلى سبيل المثال ماذا يحدث لو أن شخصاً ظهر منه أنه يؤمن بيسوع دون أن يؤمن بالله الواحد الذي

أعطى الناموس والإنجيل الذي يملأ مجده السموات ... مثل هذا الشخص إيمانه ينقص واحداً من بنود الإيمان الأساسية". لا شك أن هذا النص يعكس لغة الاستجواب، في الماء.

ومن ميلان يخبرنا القديس امبروسيوس أن الذي يذهب للمعمودية بعد جحد الشيطان وكل أعماله "يُسئل بعد ذلك: هل تؤمن بالله الآب ضابط الكل؟ ستقول: أنا أؤمن. عند ذلك تغطس، أي تُدفن. ومرة ثانية تُسئل: هل تؤمن بربنا يسوع المسيح وصليبه؟ ستقول: أنا أؤمن. عند ذلك تغطس، وهكذا تُدفن مع المسيح؛ لأن كل من يُدفن مع المسيح يقوم من الموت معه. وفي المرة الثالثة سوف تُسئل: هل تؤمن بالروح القدس؟ ستقول: أنا أُؤمن. ومرة ثالثة ستغطس. وهكذا تُغطس ثلاثة مرات، ويمحو اعترافك المثلث كل خطايا حياتك السابقة" (مقالة عن الأسرار ٣: ١، مجلد ١٦: ٤٢٣).

العلاقة بين صيغ الإيمان السابقة والاستجواب في الماء:

كانت المعمودية هي الفرصة الأولى التي تحتِّم ضرورة الاعتراف بالإيمان، ذلك أن خدمة المعمودية كانت أولاً صلوات طرد الشيطان، وهي أصلاً صلوات تحتوي على صيغة لاهوتية من الدرجة الأولى، وعلى سبيل المثال تلك المواجهة بين عرَّافة فيلبي، كيف انتهر القديس بولس الروح النجس: "أنا آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها" (أع ١٦: ١٨). ولاحظ بعدها كيف يذكر سفر الأعمال هذه الحادثة المشهورة: "فشرع قوم من اليهود الطوافين المعزِّمين في أن يسمّوا على الذين بهم الأرواح الشريرة باسم الرب يسوع قائلين: "نقسم عليك باسم يسوع ..." (أع ١٩: ١٣).

وتجئ شهادة يوستينوس كأقدم مصدر معروف لنا بعد سفر الأعمال، إذ يذكر الشهيد في حواره مع تريفو: "لأنه باسم ابن الله نفسه بِكر كل خليقته الذي وُلد من العذراء واحتمل الألم وصُلب على عهد بيلاطس البنطي بواسطة شعبك (اليهود) ومات

وقام من بين الأموات، نقسم على كل شيطان ونطرده بهذا الاسم، بل نهزمه ونُخضِعُه لنا" (٨٥: ٢).

وكانت المناسبة الثانية هي المعمودية نفسها عندما كان يتم الاستجواب في الماء حسب شهادة رسالة القديس بطرس وقوانين الرسل ونصوص الآباء، ومع انتهاء طقس المعمودية لا تنتهي الفرصة للاعتراف بالإيمان، ذلك أن كل صلاة واجتماع مسيحي يعني الاعتراف بالإيمان لاسيما الإفخارستيا.

لكن حوار الكنيسة مع العالَم هو حوار مع قوتين: القوة المدنية التي كانت تضطهد الكنيسة، والقوة الفكرية التي كانت ولا تزال تحارب الإنجيل عن طريق التفاسير الملتوية والهرطقات، وهي كلها تهدف إلى تحريف الحق. لذلك كانت هناك ضرورة لعدم الاكتفاء بما تم في المعمودية من استجواب في الماء وضرورة الاعتراف بالإيمان، خصوصاً إذا رغب هراطقةٌ في العودة إلى الكنيسة، ولعل النص الذي قرأناه عند أوريجينوس على قدر كبير من الأهمية؛ لأنه يؤكد أن غياب بند واحد من بنود الإيمان يعني نقص الإيمان كله، ولذلك يهمنا أن نحصل على نماذج من اعتراف الشهداء وما كتبه الآباء ضد الهراطقة بالذات، فهو بداية صياغات أكثر دقة.

من **أعمال الشهداء:** يسأل الوالي يوستينوس ومن معه: ما هو إيمانك؟ أجاب يوستينوس: "الإيمان الذي بتقوى نعترف به، هو إيماننا بإله المسيحيين الذي نعتبره واحداً، وهذا الواحد من البدء خلق كل الخليقة المنظورة وغير المنظورة وصنعها، كذلك نعتقد بالرب يسوع ابن الله الذي سبق وأخبر الأنبياء عن مجيئه الحتمي وتجسده بين البشر من أجل خلاص البشر، وهو أيضاً الذي علَّمنا كل التعاليم الصالحة" (أعمال الشهداء، النص اليوناني، طبعة كنوبف ومراجعة كروجر ٢: ٤ – ٥). إذا تذكرنا أن هذا النص يعود للجيل الثاني، فإننا نلاحظ أن الشهيد يعترف بالإيمان مع الالتزام بالحق نفسه ودون اهتمام بصيغة محددة.

وشهيدٌ آخر يسمى بيونيوس *Pionisus* عندما سأله الوالي: "ما اسم الإله الذي تعبده؟ أجاب: الله ضابط الكل الذي خلق السماء والأرض وكل ما فيها وكلنا نحن البشر، الذي أعطانا كل شيء بغنى، والذي عرفناه في كلمته يسوع المسيح" (المرجع السابق ٨: ٣).

وشهيدة أخرى تدعى سابينا *Sabina* مع رفيق لها يدعى أسكلبيادس *Asclepiades* أجابا معاً بكلمتين عندما سُئلا عن إلههما، قالا: "الرب يسوع" حتى أن الوالي الذي كان يستجوبهما دُهِش لقصر الإجابة (المرجع السابق ٩: ٦ – ٨).

في مثل هذه المواقف لا يذكر الشهيد إلَّا ما يؤمن به، وما قد تجمع وسكن في أعماق نفسه؛ لأنه يعرف أن كل كلمة يتفوه بها تعني موته.

وفي مجال الرد على الهراطقة شدَّد الآباء على قاعدة الإيمان، وهذا ما يجب أن نراه في مجال محاولات الآباء الكشف عن زيف الهرطقة. كان الاستجواب في الماء أثناء المعمودية لا يكفي؛ لأن الهرطقات سممت الجو العام للكنيسة الجامعة، وجعلت من الضروري أن يتحدد الإيمان لا في الصيغة الرسولية فقط المعروفة لنا في العهد الجديد، بل بإضافة كلمات معينة تردُّ على الهرطقات الشائعة.

وعلى سبيل المثال سجَّل لنا أحد التلاميذ على بردية نص حوار العلامة أوريجينوس مع بعض الأساقفة وأشهرهم هيراقليدس *Heracledes* وكان الأسقف هيراقليدس قد اتُّهِمَ بالهرطقة. جرى الحوار حوالي سنة ٢٤٦م. وكان أوريجينوس قد طلب من الأسقف أن يشرح له إيمانه، وسجل الحوار بهذه الكلمات: "عندما جرى الحوار بين الأساقفة الحاضرين حول إيمان الأسقف هيراقليدس وطلب منه الحاضرون أن يعترف بالإيمان أمامهم، ولما كان كل شخص يؤكد ضرورة الاعتراف بأشياء معينة قال الأسقف هيراقليدس (أنا أُؤمن بما ذكرته الكتب المقدسة، وهو أن الكلمة من البدء كان عند الله، وأن كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان). وهكذا ترون أننا نتفق على الإيمان

كما عبّر عنه الإنجيل لمعلمنا يوحنا. ولذلك نحن نؤمن بأن المسيح أخذ جسداً وأنه وُلد وأنه صعد إلى السماء بالجسد الذي أقامه، وأنه هو جالس عن يمين الآب وفي وقت معين سوف يأتي لكي يدين الأحياء والأموات، وبذلك نعتقد أنه إله وإنسان". (الحوار مع هيراقليدس نشر النص اليوناني جون شير ص ١١٨ - ١٢٠)[١].

وعندما ندقق في النص نرى أن هناك تركيزاً واضحاً على جسد المسيح. وعلى حقيقة لاهوت المسيح وناسوته. بهذا الفهم يجب أن نقرأ الإزائية التالية، وهي من إيريناوس – ترتليان – هيبوليتوس – أوريجينوس – أي من ليون (فرنسا)، وشمال أفريقيا، ثم روما، والإسكندرية.

القديس ايريناوس

الله الآب ضابط الكل الذي خلق السماء والأرض والبحار وكل ما فيها.	إله واحد خالق السماء والأرض وكل ما فيها.	إله واحد الآب ضابط الكل الذي منه كل الأشياء.
الواحد المسيح يسوع ابن الله الذي تجسد لأجل خلاصنا.	يسوع المسيح ابن الله الذي به خُلِقَت كل الخليقة الذي وُلِد من عذراء، وفيه اتحد الله والإنسان ومات على عهد بيلاطس البنطي وقام وصعد إلى المجد، وتعيَّن ليجيء لخلاص الذين	ابن الله يسوع المسيح ربنا الذي به خُلِقَت كل الأشياء وبتدبيره الذي به صار ابن الله إنساناً.

(١) قمنا بترجمة هذا الحوار إلى اللغة العربية لأول مرة، ونشرناه في كتابنا: التمييز بين العقيدة والهرطقة والرأي، والمنشور على موقع www. Coptology.com كنموذج للحوار اللاهوتي، ص ٣٧ وما بعدها.

	يخلصون، وديَّاناً للذين رفضوه وسوف يرسل الذين شوهوا الحق إلى النار الأبدية. (ضد الهرطقات ٤: ٤ – ١).	
الروح القدس الذي أعلن سابقاً للأنبياء التدبير وظهوره وميلاده من عذراء وآلامه وقيامته من بين الأموات ... الخ (أنظر ضد الهرطقات ١: ٢).		روح الله الذي أعطى معرفة الحق وأعلن تدبير الآب. والابن الذي بموجبه جاء الابن وحلَّ في الجنس البشري بالطريقة التي أرادها الآب (ضد الهرطقات ٤: ٥٣ – ١).

العلامة ترتليان

نؤمن بإله واحد الذي بتدبيره وحده كإله واحد له ابنٌ هو كلمته الذي وُلد منه والذي به كل الأشياء خُلِقَت والذي لم يُخلَق أيُّ	لنا إله واحد وليس سواه أو غيره مؤسَّس العالم الذي به خُلِقَت كل الأشياء ومن العدم وبواسطة الكلمة الذي جاء.	قاعدة الإيمان من كل مكان هي الإيمان بإله واحد ضابط الكل ومؤسَّس العالم.

شيءٍ بدونه.		
هذا الابن جاء إلى العذراء ووُلِد منها كإنسان، ولكنه الله ابن الإنسان وابن الله ودُعي يسوع المسيح. هذا الابن تألم. هذا الابن مات ودُفن حسب الكتب وأقامه الآب وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الآب وسوف يأتي لكي يدين الأحياء والأموات.	هذا الكلمة دعاه (الآب) ابنه وسمي الله في مواضع مختلفة من قبل البطاركة وسمعه الأنبياء باستمرار إلى أن جاء إلى العذراء مريم بالروح القدس ومع الله الآب، وتجسد في أحشائها ووُلِد منها وعاش كإنسان ودُعي يسوع المسيح، ويلي ذلك في الإيمان أنه بشَّر بناموس جديد، ووعد جديد بملكوت السموات وصنع معجزات وصُلب وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الآب.	وبابنه يسوع المسيح الذي وُلد من العذراء مريم وصُلب على عهد بيلاطس البنطي وقام من بين الأموات في اليوم الثالث وصعد إلى السموات وهو يجلس الآن عن يمين الآب وسوف يأتي لكي يدين الأحياء والأموات.
ويلي هذا في إيماننا ما تحقق حسب وعد الآب عندما أرسل (الابن) الروح القدس الباراقليط مقدس إيمان	وأرسل لنا القوة الخالقة التي للروح لكي يحيي المؤمنين. وسوف يأتي ثانيةً بمجدٍ؛ لكي يأخذ القديسين لفرح الحياة الأبدية والمواعيد	وبالروح القدس.

الذين يؤمنون بالآب والابن والروح القدس. ضد براكسيان ٢	السمائية وقيامة الجسد سوف تتم للصالحين والأشرار. ضد كتب الهراطقة ١٣: ١ – ٦.	العذارى ١

هيبوليتوس

راجع التسليم الرسولي – الجزء الخاص بالاستجواب في الماء، والذي أوردناه سابقاً في هذا الفصل، ثم المجمع الذي عقده هيبوليتوس حيث طُلب من القس نوئيتس *Nautin* أن يميز بين تعاليمه والهراطقة.

أوريجينوس

في مقدمة الكتاب المشهور "المبادئ" يتحدث عن الإيمان، ويقول: "الحقيقة التي يجب أن تكون مفهومة هي أن الرسل القديسين عندما بشَّروا بإيمان المسيح، اعتبروا أن هناك تعاليم هامة، ويجب الإيمان بها وسلَّموها للمؤمنين في كلمات واضحة ... وهذه التعاليم التي سلَّمها الرسل في كلمات واضحة هي:

أولاً: الله واحد، الذي خلق كل الأشياء ونظَّمها. الذي عندما لم يكن شيء خلق العالم من لا شيء. وهو إلهٌ منذ بداية الخليقة وتأسيس العالم، إله كل الأبرار، آدم وهابيل ... والأنبياء. وهذا الإله في الأيام الأخيرة – حسب نبوات أنبيائه – أرسل الرب يسوع المسيح أولاً لكي يدعو إسرائيل إلى الإيمان، وثانياً لكي بعدما يرفضه شعب إسرائيل، يُكرَز به للأمم.

وبعد هذا، المسيح يسوع الذي جاء إلى الأرض ووُلد من الآب قبل كل شيء، وبعد أن يخدم الآب ككاهن ووضع أساس كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان

(يو ١: ٣)، في الأيام الأخيرة أخلى ذاته وتأنس وصار جسداً، ورغم أنه تأنس إلَّا أنه ظلَّ الله. وفي تجسده أخذ جسداً مثل أجسادنا مع فرق وحيد: أن جسده وُلد من عذراء وبالروح القدس. ويسوع المسيح نفسه وُلد حقاً وتألم، ولم يكن الأمر خيالاً. وحقاً مات مثلنا. ولكنه قام من بين الأموات وبعد قيامته صعد إلى السموات.

وأيضاً سلَّمنا الرسل هذا التعليم، وهو أن الروح القدس متَّحد في الكرامة والسلطان مع الآب والابن ... والكنيسة تعلِّم بجلاء كامل أن الروح القدس قد أوحى لكل واحد من القديسين وبالذات للأنبياء والرسل.

بعد هذا علَّم الرسل أن النفس لها جوهر وحياة قائمة بذاتها، وأنها سوف تُحاسَب بعد خرجها من العالم حسب أعمالها. وسلَّمت إلينا الكنيسة في تعليمها أن كل نفس عاقلة لها إرادة حرة.

أما بخصوص الشيطان وملائكته والقوات الروحية المضادة لنا، فإن الكنيسة تعلِّم بوجود هؤلاء، وتعلِّم بأن الأسفار قد أوحي بها الروح القدس (كتاب المبادئ – مقدمة الكتاب – تعليم أوريجينوس وترجمة روفنيوس النص اللاتيني ص ٣ – ٦).

وما نراه في هذا النص هو أنه يؤكد التعاليم المسيحية ضد الهرطقات الشائعة في زمن الآباء، وهذا واضح بصورة صارخة في تأكيد أوريجينوس على أن الروح القدس الذي أوحى للأنبياء هو ذاته الروح القدس الذي حلَّ في التلاميذ الذي عاينوا مجئ المسيح، ذلك أن الغنوسية نادت بأن إله العهد القديم يختلف عن إله العهد الجديد ولا علاقة بينهما، وهذا الفصل المتعسِّف بين العهدين هو الذين جعل الآباء يستخدمون طريقة معينة لكتابة العقائد المسيحية كما رأيناها في النصوص السابقة.

وثمةُ نصٍ من الشهيد كبريانوس يوضح ما نحن بصدده، إذ يتحدث فيه عن الفرق بين إيمان الكنيسة وإيمان مرقيان الغنوسي: "بكل تأكيد لا يؤمن مرقيان بنفس الإله الآب وخالق كل الأشياء كما نعلِّم نحن. هل هو يعترف بنفس الابن المسيح المولود من

العذراء مريم الذي هو الكلمة المتجسد، والذي حمل خطايانا وقهر الموت، وهو أول من أسس قيامة الجسد في أقنومه عندما أقام جسده وأظهر لتلاميذه أنه أقام نفس الجسد". (رسالة ٧٣: ٥).

وكبريانوس يتحدث هنا مثل أوريجينوس حيث يؤكد إنسانية المسيح، وأنه حقاً وُلد ومات مثلنا، وأن قيامته هي بدء القيامة للإنسانية؛ لأن قيامة الرب أسَّست القيامة.

ولعل خير ما نختتم به هو رسالة ديوناسيوس أسقف الإسكندرية، وهو نصٌ أكتُشف حديثاً باللغة الأرمينية، وهو أصلاً كتاب البابا تيموثاؤس السكندري سنة ٤٦٠م (ضد مجمع خلقدونية) الذي أقتبس من أسلافه لتأكيد صحة إيمانه، وأنه تابعٌ لآبائه. ونلاحظ أن النص صريحٌ قاطعٌ فيما يخص المسيح بالذات؛ لأن الجدل في القرن الثالث وحتى نهاية الرابع كان كله يدور حول المسيح: "هناك مسائل لها أهمية وأولوية على كل ما عداها ونضعها في المقام الأول. إذا نطق أيُ إنسانٍ بعبارات عدم تقوى ضد الله كأن يقول إنه بلا رحمة، أو أن يدعونا إلى عبادة آلهة غريبة، مثل هذا أوصى الناموس أن يُرجم بالحجارة. أمَّا نحن، فإنه بكلمات إيماننا القاطعة سوف نرجمه. إن الذي لا يقبل كل سر المسيح أو يحرِّف أو يغيِّر أي شيء قائلاً إن المسيح ليس الله، أو أنه لم يتأنس، أو أنه لم يمُت، أو أنه لم يقُم، أو أنه لن يأت ثانيةً لكي يدين الأحياء والأموات، أو أن يبشِّر بما هو مختلف عما نبشِّر به، فليكن ملعوناً، كما قال القديس بولس أو إذا خطَّأ الكلمات الخاصة بقيامة الجسد، فليكن محسوباً في عداد الموتى" (النص الأرمني والسرياني طبعة العالم الإنجليزي *F.C. Conybear*).

الفصل الثالث

عصر قوانين الإيمان

يمكننا أن نقول إن بداية القرن الثالث كانت بداية الاتجاه نحو تحديد الإيمان بكلمات أكثر وضوحاً من تلك التي رأيناها من المصادر الخاصة بالقرن الثاني، كان الصراع بين الأرثوذكسية والهرطقات قد اشتد عن أيام إيريناوس وهيبوليتوس، ولذلك يمكننا أن نقول دون أدنى خطأ إن أحداث النصف الثاني من القرن الثالث كانت ترتب دون شك لأحداث القرن الرابع. ومن الأخطاء الشائعة التي وقع فيها مؤرخو الكنيسة المعاصرون هو اعتبار القرن الرابع "عصر المجامع" التي صاغت الإيمان. هذا الخطأ ينطوي على جهلٍ بمسألتين هما:

أولاً: يُعد أسلوب المجامع هو الأسلوب الرعائي القديم لحل المشاكل الرعائية، ووضع أساس حياة الشركة ومسئولية الكرازة بكل أعبائها، وهذا الجانب على قدر كبير من الأهمية، وواضحٌ بشكل لا يمكن إنكاره في أقدم المصادر الكنسية مثل قوانين الرسل ورسائل أغناطيوس. فالمجامع قديمة، قِدم الكنيسة كلها.

ثانياً: يتجاهل البعض الفترة ما بين ١٩٥ – ٢٩٥م، وهي الفترة التي اكتفى فيها الآباء بنشر كتب لمحاربة الهرطقات، وليست مصادفة بحتة أن ينشر ايرنياوس وهيبوليتوس وترتليان كل منهم كتاباً يحمل ذات الاسم: (ضد الهرطقات). كما لم يكتف الآباء بالقطع أو الفرز، بل صدرت مع أحكام القطع والفرز ما يوضح أسباب صدور

هذه الأحكام، وهي عبارات قاطعة تفصل بين الأرثوذكسية والهرطقة. كما عقدت الكنيسة مجامع هامة سبقت نيقية. فالبدعة المشهورة باسم "المونتانية" والتي سبق وتحدث عنها القديس كبريانوس، كانت قد أزعجت الكنائس، ولذلك سجَّل يوسابيوس هذه الملاحظة: "المؤمنون في آسيا طالما اجتمعوا في أماكن مختلفة في كل أرجاء آسيا للتفكير في هذا الأمر، وفحصوا الأقوال الغريبة وأعلنوا فسادها، ورفضوا البدعة، وهكذا أُبعد هؤلاء الأشخاص من الكنيسة ومُنعوا من الشركة" (كتاب ٥: ١٦).

هذا النص يعود إلى حوالي سنة (١٦٠ – ١٨٠)، ثم هناك المجامع الخاصة بعيد الفصح، وعنها يقول يوسابيوس: "إن الاختلاف على تاريخ الاحتفال أدَّى إلى عقد المجامع واتفاق الكل على رأي واحد بعد تبادل الرسائل على إصدار أمر كنسي بأن سر قيامة الرب يجب أن لا نحتفل به في أي يوم آخر سوى يوم الرب" (الكتاب ٥: ٢٣).

ثم هناك المجامع التي عقدها أسقف قرطاجنة اجريبنيوس *Agrippinus* حوالي سنة ٢٢٢م التي أشار إليها كبريانوس في رسالتيه (٧١، ٧٣). بل حتى أن مسألة بسيطة كرسامة العلامة أوريجينوس كاهناً في فلسطين، اقتضت عقد مجمع في الإسكندرية سنة ٢٣١م لتجريده من الكهنوت (يوسابيوس ٦: ٢٣).

ثم هناك المجامع الثلاثة ضد بولس السومساطي (يوسابيوس ٧: ٢٧) الذي أنكر لاهوت الابن، وعُقدت ضده ثلاثة مجامع (من سنة ٢٦٤ – ٢٦٩م) راجع رسالة أساقفة الكنيسة الجامعة (يوسابيوس ٧: ٣٠).

وهكذا يتضح لنا أن الكنيسة عالجت أمورها وبكل يقين عن طريق المجامع. ونظراً لازدياد هذه المجامع كان من الحتمي أن تتحول قرارات هذه المجامع إلى قواعد ثابتة أو قوانين للإيمان، ولذلك لم يتأخر ظهور قوانين الإيمان عن نهاية القرن الثالث وبداية الرابع.

وبالفعل سجَّلت لنا المصادر المسيحية السابقة على نيقية قوانين الإيمان، أشهرها قانون الإيمان الذي رأيناه في صيغة الاستجواب في الماء من قوانين الرسل وغيره من المصادر القديمة التي أشرنا إليها.

قاعدة الإيمان وقانون الإيمان:

لقد مر بنا في الفصل السابق التعبير المشهور "قاعدة الإيمان" الذي استخدمه كل من إيريناوس وترتليان ومن المفيد بنا أن نسأل. ماذا قصد الآباء جميعاً من استخدام ذلك التعبير "قاعدة الإيمان"، وما علاقة قاعدة الإيمان بما عُرِفَ في القرن الرابع باسم "قانون الإيمان"؟

قبل نيقية كان تعبير "قاعدة الإيمان" يُستخدم بطريقة حرة غير مقيدة بالعقيدة فقط، بل بالطقس أيضاً، ولذلك يقول بوليكراتس ***Polycrates*** أسقف أفسس في نهاية القرن الثاني، عندما تحدَّث عن مسألة عيد الفصح، فوصف الاحتفال بعيد الفصح بأنه "حسب قاعدة الإيمان" (يوسابيوس ٥: ٢٤). وهنا نرى أن الطقس هو جزء جوهري من قاعدة الإيمان.

وعندما يختلف أحد مسيحي القرن الثاني مع أحد الهراطقة حول علاقة الآب بالابن، فإن المسيحي ينتهر الهراطقة قائلاً عنهم: "لقد تركوا قاعدة الإيمان القديم ولذلك هم لا يعرفون المسيح ولا فحصوا جيداً الأسفار المقدسة الإلهية". (يوسابيوس ٥: ٢٨). فإذا كان هذا النص يعود إلى ما بين (١٩٨ – ٢١٧م)، فإننا ندرك أن قاعدة الإيمان هي مقياس يُقاس به صحة الاعتراف بالإيمان، وصحة تفسير الكتاب المقدس نفسه.

وعند القديس هيبوليتوس نقرأ نصاً هاماً يقول فيه: "لقد كتبنا كتباً دفاعية عن الإيمان، وبكفاية وبكل إسهاب شرحنا قاعدة الحق لكل من يرغب". (***Eleneshos 10:5:1.***).

وقاعدة الحق هي حسب شرح نفس القديس: "القاعدة التي تطبق بخصوص عودة أحد المنشقين إلى الشركة ". (نفس المرجع السابق ٩: ١٢).

في الإسكندرية يقول القديس أكليمنضس السكندري: "إن الإيمان له قاعدة، وإن هذه القاعدة هي قانون الإيمان أو القانون الكنسي أو قاعدة الحق والتسليم" (راجع المتنوعات ٧: ٧ مجلد ٩: ٤٥٧، ٦: ١٥ مجلد ٩: ٣٤٩، ٦: ١٨ مجلد ٩: ٣٩٧).

وعند ترتليان قاعدة الإيمان هي بنود الإيمان، تماماً كما رأينا سابقاً من النصوص الخاصة بترتليان وإيريناوس. وترتليان يؤكد على أن قاعدة الإيمان هي "من الرسل وحتى بولس الرسول بعد اهتدائه صعد إلى أورشليم لكي يقارن قاعدة إنجيله، أي كرازته بقاعدة الإيمان عند باقي الرسل" (ضد مرقيان ٥: ٣، ١). و"قاعدة الإيمان هي التي بموجبها يتم فرز الهرطقات والهراطقة". (ضد فالنتيان ٤: ١).

ومن رسالة أكليمنضس الروماني وهي من مؤلفات القرن الثاني عندما تتحدث عن سلطان الحلّ والربط الذي سلَّمه بطرس لمن خَلَفَه يقول: "لكي يربط ما يجب ربطه، ولكي يحل ما يجب حله حسب قاعدة الكنيسة التي يعرفها". (رسالة أكليمنضس ٢: ٤).

وكأحد آباء القرن الثالث كتب العلامة أوريجينوس عن الإيمان بالمسيح ووصفه بهذه الكلمات: "إن كل ما يخص المسيح حددته الكنائس حسب القاعدة التي تقبلها كل الكنائس". (تفسير يوحنا ١٣: ١٦). "والوعظ والكرازة يجب أن يكونا حسب قاعدة الإيمان أو قانون الإيمان أو قانون الكنيسة". (تفسير أرميا ٥: ٤، تفسير متى النص اليوناني مجلد ١٣: ٢٨). "أو قانون الكنيسة السمائية ليسوع الذي سُلِّم حسب الخلافة الرسولية" (المبادئ ٤: ٢٠٢). ولعل آخر ما أكتُشِف من كتابات أوريجينوس وهو الحوار مع هيراقليدس، يقول العلامة للأسقف إذا كان لديك شك في أي نقطة من نقط القانون ***Kanonos*** عليك أن تذكرها لأننا سوف نعطي تفسيراً لها من الأسفار المقدسة (الحوار مع هيراقليدس ص ١٤٤) والقانون هنا هو الإيمان الرسولي كما هو واضح من سياق الحوار.

وهكذا يظهر لنا بجلاء أن تعبير قاعدة الإيمان هو كل محتويات الإيمان والطقس، ولذلك لم نشأ أن نستخدم هذا التعبير للإشارة إلى ما عُرِف بعد ذلك بـ "قانون الإيمان" الذي يشير إلى صيغة محددة لا يربطها بالطقس علاقة خاصة، فالآباء لم يفصلوا بين الإيمان والطقس والكتاب المقدس، وكل هذه الأمور معاً تسمى "قاعدة الإيمان" وهي أكمل من الصيغة التي صارت بعد ذلك تُعرَف باسم "قانون الإيمان" التي صيغت في نيقية والقسطنطينية.

قوانين الإيمان قبل نيقية في الإسكندرية

وصلنا من المصادر الطقسية وآباء الإسكندرية وبالذات أوريجينوس قانون إيمان قديم سابق على قانون الإيمان النيقاوي معروفٌ لدى علماء الليتورجيات باسم قانون "دير البلايزة"، وهو قانون الإيمان المستخدم في المعمودية في الكنيسة القبطية حتى هذه اللحظة. وهو نفسه القانون الذي يردده الأسقف والبطريرك أثناء الرسامة كاعتراف بالإيمان، وهذا القانون كما ورد في البرديات:

النص كما جاء في البرديات	النص كما جاء في أقدم مخطوطات طقس المعمودية القبطي
أعترف بالإيمان قائلاً: أؤمن بالله الآب ضابط الكل، وبابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح، وبالروح القدس، وبقيامة الجسد، وبالكنيسة المقدسة الجامعة.	لَقِّنه الإيمان وليعترف قائلاً: أؤمن بإله واحد الله ضابط الكل، وبابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا، وبالروح القدس المحيي، وبقيامة الجسد، وبالكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة.

وبالطبع، الاختلافات الطفيفة جاءت من نقل النص عدة مرات، ومن لغة إلى أخرى، لكن ترتيب بنود الإيمان أي بنود القانون ترتيبٌ واحد. وإضافة كلمة "المحيي"

للروح القدس و"الواحدة" للكنيسة، هو من الكلمات الأساسية في كتابات القرون الأولى. وأول إشارة إلى هذا القانون وردت عند العلَّامة أوريجينوس في النقطة الثامنة على سفر الخروج حيث يقول: "عندما نأتي إلى نعمة المعمودية، فإننا نجحد كل الآلهة والأرباب ونثق فيك يا الله وحده الآب والابن والروح القدس". وهذا الاعتراف بالإيمان الذي يسبق المعمودية أشار إليه ديوناسيوس السكندري في رسالته إلى ديوناسيوس الروماني عن نوفاتيان: "وعلاوة على كل هذا، فإنه يرفض المعمودية المقدسة والإيمان والاعتراف اللذين يسبقانها" (يوسابيوس ٧: ٨).

قانون إيمان الرسل:

من روما تأتي شهادة روفينوس عن قانون الإيمان المعروف باسم قانون إيمان الرسل، وهو وإن كان قد جاء في مصادر القرن الخامس بأن روفينوس كتب شرحه حوالي سنة ٤٠٤م إلَّا أن نص القانون قديم، وقد أكد علماء الآباء أن القانون يعود إلى بداية القرن الثالث، وهناك شواهد كثيرة على صحة هذا في كتب الآباء اللاتين المعاصرين، ونص هذا القانون هو:

"أؤمن بالله الآب ضابط الكل ... وبابنه الوحيد المسيح يسوع ربنا ... الذي وُلد من الروح القدس ومن العذراء مريم ... وصُلب على عهد بيلاطس البنطي ودُفن وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السموات ... وجلس عن يمين الآب. وسيأتي لكي يدين الأحياء والأموات ... وبالروح القدس ... وبالكنيسة المقدسة ... وبغفران الخطايا ... وبقيامة الجسد...".

وفي هذا المجال لا يسعنا إلَّا أن نذكر قانون إيمان الكنيسة الأم، كنيسة أورشليم كما سجَّله لنا القديس كيرلس الأورشليمي في عظاته للموعوظين، وحسب النص المأخوذ من عظاته:

"نؤمن بإلهٍ واحدٍ الآب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، وبربٍ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور كإله حقيقي. هذا الذي به خُلقت كل الأشياء، الذي تجسَّد وتأنس وصُلب ودُفن، وقام في اليوم الثالث وجلس عن يمين الآب، وسيأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكِه انقضاء، وبالروح القدس الباراقليط الذي تحدَّث في الأنبياء، وبمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. وبكنيسة واحدة مقدسة، جامعة، وبقيامة الجسد وبالحياة الأبدية".

لعلنا بعد هذه الدراسة ندرك كم نخطئ إذا تصوَّرنا أن الذي وضع قانون الإيمان هو المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥م وأن الكنيسة عاشت ٣٢٥ سنة بدون قانون الإيمان أو حتى صيغة للاعتراف بالإيمان.

أسماء قانون الإيمان في المصادر القديمة:

في المصادر اللاتينية قبل الانشقاق نجد أن الآباء الذين كتبوا باللاتينية مثل ترتليان وأمبروسيوس يُسمُّون قانون الإيمان *Symbolum* وهي كلمة متعددة المعاني، لكن الذي استقر عليه الآباء هو أن قانون الإيمان هو علامة وختم وعقد العهد بين المؤمن والله، والذي تُصادِق على صحته الكنيسة، هكذا شرح أمبروسيوس معنى *Symbolum* راجع *De Veland.Virgin* وبطرس كيرسولوجوس *Chrysologus* في العظة ٦٢ ... وكذلك مقدمة شرح قانون الإيمان[١] لروفينوس الذي يصف قانون الإيمان بأنه علامة الانتماء إلى المسيح...

ومن المصادر اليونانية كما مر بنا استعمل الآباء وكتب القانون كلمة κανων أي قاعدة أو قانون، وهكذا وصف مجمع أنطاكية بولس السموساطي بأنه "خرج على

---

(١) كلمة قانون تعني أصلاً الدفة التي تسيّر السفينة وتتحكم في الاتجاه. ولذلك القانون الكنسي ليس مثل القانون العام، بل يختلف في طبيعة دوره وجوهره. فهو أصلاً موضوع لتوجيه حياة الجماعة على قاعدة الإيمان وليس للعقوبة.

القاعدة" (يوسابيوس ٧: ٣)، وتسمى "الأمانة" (راجع ثيؤدوريت ١: ٧)، وتسمى أحياناً "بالدرس"، أو "الفصل" (راجع سقراط ٣: ٢٥).

الفصل الرابع

التسليم السري

لم تسمح الكنيسة للموعوظين بحضور أي خدمة من الخدمات الكنسية ماعدا الجزء الخاص المعروف عندنا باسم قداس الموعوظين، وهو دراسة أسفار الكتاب المقدس التي تُتلى في الكنيسة، ثم سماع العظة. وكما نعلم من المصادر القديمة لم تسمح الكنيسة للموعوظين بالآتي:

١- حضور تكريس الميرون.
٢- رسامة الأساقفة.
٣- القداس.
٤- سماع قانون الإيمان أو الصلاة الربانية.
٥- حضور خدمة المعمودية نفسها.

يقول القديس باسيليوس: "إن المعمودية والإفخارستيا وزيت الميرون هي الأشياء التي لا يُسمح لغير المعمدين بالنظر إليها أو الإطلاع عليها". (مقالة عن الروح القدس: ٢٧).

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي: "نحن لا نتحدث علناً عن الأسرار أمام الموعوظين، بل نتحدث بطريقة غير واضحة يعرفها المؤمنون فقط والذين لا يعرفون فلا تؤذيهم الكلمات التي يسمعونها" (تعليم الموعوظين).

وعندما كان القديس غريغوريوس النزينزي يعظ قال للشعب: "لقد سمعت كثيراً عن السر حسبما هو مسموح لنا أن نتحدث علناً وأمام الكل، أما باقي الحديث، فسوف تسمعونه في السر لكي يبقى هذا الكلام سراً خاصاً بكم" (عظة ٤٠ عن المعمودية).

ولم يكن هذا الوضع قاصراً على القرن الرابع فقط، بل امتد حتى القرن الخامس، مما جعل القديس كيرلس يشير في كتابه ضد يوليانوس الجاحد (الكتاب ٣: ١٨): "نحن لا نُعلِّم كل شيء عن المسيح بطريقة جهرية معروفة ولا عن المعمودية" (راجع كذلك العظة ٤٦ على سفر الأعمال للقديس يوحنا ذهبي الفم).

ويقول القانون ٨٥ من قوانين الرسل: "وصايا الرسل التي أوصوا بها لكم أيها الأساقفة هي محررة بواسطتي أنا أكليمنضس في ثمانية كتب التي لا ينبغي إشهارها تجاه الكل لأجل الأمور السرية التي تحويها".

وبالطبع فقد انعكس هذا الوضع على المصادر المسيحية نفسها، فما سجَّله الآباء كان التعليم العلني المعروف الخاص بكل الشعب، أما التعليم السري غير المعلَن، فقد تسلمته الكنيسة بدون تدوين، بل وأبقت عليه غير مدون.

كانت الكنيسة تدرك أن هناك أموراً لاهوتية بالغة الصعوبة لا يمكن فهمها إلَّا لمن تدرَّج في المعرفة واقتبل استنارة الروح القدس. ولذلك ماذا يعني حضور موعوظ خدمة تقديس زيت الميرون وهو لا يُدهن به ولا عرف استعماله في الكنيسة. إن منهج الكنيسة أن تُولد المعرفة في الإنسان من خلال الاختبار والتسليم لا من مجرد الدراسة العقلية.

وعن رسامة الكهنة يقول القانون ٥ لمجمع اللاذقية: "الرسامات لا يجب إجراؤها في حضور السامعين، أي الموعوظين". ويشرح ذهبي الفم سر هذا المنع، ويؤكده بقوله: "الذي يقوم بالرسامة يحتاج إلى صلاة الكنيسة معه، ولذلك عندما تصلي الكنيسة تردد ذات الكلمات التي يقولها من يقوم بالرسامة. والمعمدون وحدهم يعرفونها لأننا لا يجب أن نردد هذه الصلوات في حضور الموعوظين". (عظة ١٨ على ٢ كو).

ومن المؤكد أيضاً أن الموعوظين لم يكن لهم حق المشاركة في اختيار أي شخص لأيٍ من درجات الكهنوت. أمَّا عن منع الموعوظين من حضور القداس، فهو مؤكد من نصوص القداسات القديمة ومن القواعد الطقسية المعروفة التي كانت تُلزِم الأبوذياكون

بإقفال الأبواب لكي لا يدخل الموعوظون (راجع ذهبي الفم عظة ٢٣ على إنجيل متى – وراجع نص قانون الرسل كما جاء في المراسيم الرسولية وفي الدسقولية العربية، كتاب ٢: ٥٧). وكان الخروج على هذا القانون لا يقابَل بالصمت بالمرة من آباء الكنيسة، ولذلك كان نقد أبيفانيوس لشيعة مرقيان الغنوسي هو أنهم يسمحون للموعوظين بالإطلاع على الأسرار ومشاركة المؤمنين الصلاة (ضد الهراطقات ٣:٤٣، تفسير جيروم لرسالة غل ٩:٥)، ولذلك اشتكى بيلاديوس خصوم ذهبي الفم بأنهم سببوا إزعاجاً شديداً حتى أنهم فتحوا أبواب الكنيسة عنوةً وكانت فرصة للموعوظين لرؤية الأسرار (حياة ذهبي الفم: ٩). وقد أنقذت هذه القاعدة القس مكاريوس رفيق البابا أثناسيوس في صراعه، عندما ادُعيَ عليه ضرب ميليتوس والأريوسيين في مجمع صور بأن مكاريوس كسر كأساً مقدسةً لأن الذين شهدوا كانوا من الموعوظين، وهنا يقول القديس أثناسيوس: "حيث يوجد موعوظ لا تقدمة" (الدفاع ٢، راجع مقدمة تعاليم كيرلس الأورشليمي ٧).

ولذلك لم تحتو كتب الآباء على كل ما نريد معرفته، وبالذات في موضوع دقيق مثل الإفخارستيا، حيث يذكر ذهبي الفم، وهو أشهر وعاظ زمانه: "أريد أن أتكلم جهراً ولكنني لا أجرؤ بسبب غير المعمدين؛ لأن شرح هذه الأمور صعبٌ عليهم، ولذلك فإن وجودهم يرغمنا على الحديث بطريقة غير واضحة، هذا أسهل من أن نعلن لهم ما لا يجب إعلانه" (عظة ٤٠ على ١ كو).

ولعل من الطريف أن نشير إلى الطريقة التي حاول بها أبيفانوس أسقف سلاميس أن يشرح كلمات الرب: "هذا الخبز هو جسدي وهذا الخمر هو دمي"، فقال للشعب: "هذا هو هكذا، وهكذا هو هذا". بل لقد أحصى الذين درسوا مؤلفات ذهبي الفم أنه في خمسين موضعاً على الأقل استعمل عبارة واحدة "سوف يفهم معنى كلامي المعمَّدون فقط".

والصلاة الربانية – حسب الآباء – هي تخص المعمَّدين فقط ولا تعلَن لغير المعمَّدين بالمرة إلَّا عند اقتراب موعد معموديتهم؛ لأن غير المعمَّد لا يمكنه أن يخاطب الله بقوله: "أبانا الذي في السموات" (ثيؤدوريت في مقال الأسرار الإلهية كتاب ٥: ٢٨). وذهبي الفم في العظة ١٩: ٢٠ على إنجيل متى يقول: "هذه الصلاة تخص المؤمنين فقط، وهذا ما تؤكده القاعدة الكنسية وبداية الصلاة نفسها؛ لأن غير المعمد لا يستطيع أن يخاطب الله "أبانا". هذا يؤكد لنا أن كل كلمة لها معنى عند الكنيسة حتى نداء الله "أبانا"، لا يمكن أن يبنى إلَّا على الاختبار الذي يُولد في الذين ينالون التبني في المعمودية. والصلاة الربانية تحتوي على الطلبة الخاصة بالخبز الجوهري (أو خبز الغد حسب استعمال الكنيسة المصرية، وهو النص الذي استخدمه أوريجينوس)، وخبز الغد هو الإفخارستيا، والخبز الجوهري هو أيضاً الإفخارستيا أو جسد المسيح. وقد فهم الآباء معنى الصلاة من أجل الخبز في ضوء كلام المسيح المباشر والواضح عن ترك كل شيء (لو ١٤: ٣٣)، وعن عدم الاهتمام بما للغد (مت ٦: ٣٤)، ثم حديث المسيح عن نفسه باعتباره الخبز الحقيقي (يو ٦: ٥١)، وصار هذا هو السبب الثاني في منع الصلاة الربانية عن الموعوظين.

أمَّا قانون الإيمان، فإنه من الطريف أن نشير إلى حديث المؤرخ سوزومين عن امتناعه عن تسجيل كلمات القانون؛ لأن كتابه عن تاريخ الكنيسة قد يقع في يد غير المؤمنين (كتاب ١: ٢٠). ولذلك فإنه حسب شهادة جيروم كانت الكنيسة تؤجِّل إعلان كلمات قانون الإيمان والصلاة الربانية حتى نهاية فترة التعليم واقتراب الصوم الأربعيني حيث تبدأ فترة إعلان الأسرار الخاصة بالتعليم (رسالة ٦١: ٤ إلى ***Pammach***). راجع قرار مجمع الإسكندرية في دفاع أثناسيوس: ٢ عن عدم إعلان الأسرار أو السماح للموعوظين بحضور الإفخارستيا؛ لأن هذا مضاد للتقوى ولتعاليم الأسفار المقدسة التي أمرت أن لا تعطي القدس للكلاب أي الذين لم ينالوا التبني.

الفصل الخامس

العرَّاب أو الإشبين

كلمة الإشبين هي كلمة سريانية ويقابلها في العربية العرَّاب، وهي كلمة هامة، ولكنها صارت ضمن الكلمات المهجورة التي لا تُستعمل اليوم. وكلما تذكرنا الإشبين، طاف بذهننا الكبار المسئولين عن الأطفال، لكن الوضع لم يكن كذلك في الكنيسة الأولى. حقيقي إن الصغير يحتاج إلى مَن يجيب عنه، وسوف ندرس هذه النقطة في معمودية الأطفال، لكن لماذا اختارت الكنيسة هذا الترتيب؟

بالطبع الإجابة سهلة، بالنسبة للصغار يُعد الإشبين مسئولاً عن تربية ابنه في المعمودية، لكن بالنسبة للكبار يعتبر الإشبين المعلم الكنسي الروحي المهتم بتعليم ابنه. ومن الأدلة الواضحة على ضرورة وجود أشابين بالنسبة للكبار ما يؤكده ديوناسيوس الأربوباغي في (رئاسة الكهنوت ٢: ٨) عن وجود الإشبين، بل حتى في تاريخ بيلاديوس نقرأ أن الناسك المشهور إيفاجريوس البنطي أصبح إشبين الوالي روفينوس وهو من كبار شخصيات بلاط الإمبراطور أركاديوس (تاريخ بيلاديوس ١٣). وفي مقالة أوغسطينوس (عن المعمودية ٤: ٢٤ ندرك أن الإشبين في معمودية البالغين مسئول عن نمو ابنه وابنته في المعمودية فقط، ولا يجيب عن أي سؤال طالما أن البالغ قادر على الكلام، وأشار أوغسطينوس إلى ما جاء في إنجيل يوحنا "هو كامل السن ... اسألوه" كما مر بنا سابقاً.

كان اسم العرَّاب يُكتب في سفر الحياة مع اسم الذي سيعتمد تأكيداً للمسئولية الروحية.

وفي الشرق لم تصدر أي تشريعات قانونية بخصوص العرَّابين سوى ما جاء في مجموع قوانين الإمبراطور جوستنيان *Justinian* حيث منعت القوانين الزواج بين العرَّاب وابنه وابنته في المعمودية تأكيداً للقرابة الروحية *Codex Lib 5:4 de Nuptus* .

وقد توسَّع الغرب بعد ذلك في تخفيف هذه القاعدة. وبخصوص اختيار العرَّابين أكد التقليد الكنسي ضرورة اختيار عرَّاب من نفس الجنس، بمعنى أن يكون العرَّاب رجلاً إذا كان المعمَّد رجلاً، وعذراء أو امرأة إذا كانت المعتمَدَة عذراء أو امرأة، وقد ظهر التمسك بهذه القاعدة بوضوح في حياة القديس ابيفانوس أسقف سلاميس حيث أُختير له عرَّاباً باسم لوسيان ولأخته عرَّابة باسم برنيكي (حياة ابيفانوس النص اليوناني ٨: ٢). وقد عكس هذا التقليد النص المعروف في كتاب المراسيم الرسولية والذي تُرجم بطريقة غامضة في قوانين الرسل – النص العربي حيث أورد المترجم النص: "ولا يَقبَل النساء الرجال ولا الرجال النساء"، بينما من الواضح أن القبول هنا هو قبول مسئولية العِرَابة حسب ما يظهر من النص اليوناني (راجع كتاب ٣: ١٦). وقد أعطت القوانين الرسولية هذه المسئولية للشمامسة والشماسات أيضاً (نفس المرجع ٣: ١٦). وفي حالات المرض المفاجئ الخطير كانت الكنيسة تختار العرَّاب عندما يُخشى على الموعوظ المرض من أن يموت بدون معمودية، وقد شدّد القديس كيرلس السكندري على ضرورة الإسراع وتعميد الموعوظ المريض حتى إذا كان يعجز عن الكلام تماماً بشرط أن يجيب عنه أحد العرَّابين الذين تختارهم الكنيسة (تفسير إنجيل يو ١١: ٢٦).

الفصل السادس

زمان ومكان المعمودية

زمان المعمودية:

من المؤكد أن المعمودية كانت تُعطى في ثلاث مناسبات رئيسية في السنة: الغطاس – الفصح – العنصرة. وأقدم إشارة إلى هذه الممارسة جاءت في مقالة ترتليان عن المعمودية حيث قال: "الفصح هو الوقت الذي نحتفل فيه بالآم السيد المسيح والذي فيه نعتمد، ثم بعد ذلك العنصرة حيث هناك مُتسع كبير جداً من الوقت لهذا الغرض لأنه في ذلك الوقت أظهر السيد المسيح نفسه حياً للتلاميذ، وفيه أيضاً أُعطيت نعمة الروح القدس وبشّر الملائكةُ بمجيئه الثاني" (المعمودية ١٩).

وعن عيد الغطاس يقول القديس غريغوريوس النزينزي وهو يخاطب الذين يؤجّلون المعمودية: "البعض يقول إنه سوف ينتظر الغطاس، أي اليوم الذي اعتمد فيه المسيح وظهر للعالم، والآخر يقول إنه يهتم بالفصح أكثر من غيره من الأعياد، والثالث يقول إنه سوف ينتظر العنصرة" (مقالة ٤٠ على المعمودية).

وعن القديس جيروم يصلنا نص هام جداً وهو نبوة زكريا التي تقول: "وستخرج مياه حية من أورشليم في الصيف والشتاء"، وهي إشارة إلى الغطاس والفصح (تفسير نبوة زكريا ١٤: ٨)[١] ولما كان هذا النص قد تُرجم في السبعينية والفولجاتا إلى "الصيف والربيع"،

---

(١) راجع هذه النبوة في طقس اللقان في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

مـارَس الغربيـون المعموديـة في الفصـح والعنصـرة، وقلمـا أُعطيـت المعموديـة في الشـتاء في الغرب. ولعل ردائة الأحوال الجوية هي السبب.

ومـن المؤكـد أن أورشـليم كانـت تُعمِّـد في الأعيـاد الثلاثـة السـابق ذكرهـا حسـب شـهادة القـديس جيروم (راجع رسالته إلى *Pommach*. وكما يظهر من ذهبي الفم الرسالة الأولى *Ad Innocent*) والمراسيم الرسولية كتاب ٥: ٢٨ – راجع الدسقولية العربي ص ١٥) إن فترة الخماسين كانت مخصصة للتعميد. وحسب شهادة سقراط المؤرخ يظهر أن بعض الكنائس كانت تُعمد في عيد الفصح فقط كما جرت العادة في كنيسة تساليا (كتاب ٥:٢٢)، بينما كانت كنيسة أورشليم تُعمد أيضاً في ذكرى تكريس كنيسة القيامة (سوزومين ٢: ٦).

لكن على الرغم من كل هذا، فإن الكنيسة كانت تمارس المعمودية في أي وقت كانت تراه. كان التعميد في هذه المناسبات الثلاثة: الغطاس – الفصح – العنصرة، هو العـادة الشـائعة، ولـذلك كانـت المعموديـة تكتسـب فيهـا أهميـة طقسـية معينـة حـتى أن بيلاديوس يقول في حياة ذهبي الفم: "إن ثلاثة ألاف اعتمدوا في ليلة عيد الفصح أثناء أسـقفية يوحنـا" (حيـاة ذهـبي الفـم: ٩). ومـع هـذا شـدّد الآبـاء جميعـاً علـى ضـرورة الإسـراع والتعميد حسبما تسمح الأحوال والظروف، ولذلك يقول ذهبي الفم: "تريد أن تنتظر إلى الصوم الكبير، لكن لماذا؟ هل هناك شيءٌ خاص بهذا الوقت أكثر من غيره. الرسل لم يأخذوا هذه النعمة أثناء الفصح، بل في وقت آخر، ولم يكن عيد الفصح عندما اعتمد الثلاثة آلاف والخمسة آلاف الذي ذكرهم سفر الأعمال" (العظة الأولى على سفر الأعمال).

ويقول القديس باسيليوس: "لكل شيء وقت وفصل، هناك وقت للنوم ووقت للسهر، ووقت للحرب وآخر للسلام، لكن لا يوجد وقت خاص للمعمودية لأن عمر الإنسان كله للمعمودية. كل وقت هو وقت مقبول لقبول الخلاص سواء أكان بالنهار أم بالليل. كل ساعة ودقيقة ولحظة تصلُح للمعمودية" (عظة ١٣ على المعمودية).

يقول غريغوريوس النزينزي محذِّراً: "يجب أن لا يؤخر أحد معموديته طالما هو مستعد لها لئلا يفاجئهم الموت في يوم لم يستعدوا له وفي ساعة لا يعرفونها" (مقالة ١١ عن المعمودية).

ولذلك حتى ترتليان وهو أول من أخبرنا عن أوقات المعمودية يعود ويؤكد في نفس المقالة: "إن كل يوم هو يوم للرب وكل ساعة صالحة للمعمودية" (المعمودية :١٩).

مكان المعمودية من الأنهار إلى الكنائس:

بكل يقين أعتمد ربنا في الأردن، وعمّد فيلبس الخصي في مكان فيه ماء قرب الطريق العام، وعمّد بولس الرسول سجان فيلبي في بيته. لم تُخصص الكنيسة مكاناً معيناً لإجراء المعمودية. وترتليان في بداية القرن الثالث يقول: "عمّد بطرس الذين اهتدوا في نهر التيبر *Eltieper* في روما مثلما فعل يوحنا في الأردن. ولذلك ليس ثمة فرق سواء اعتمد إنسان في البحر أم في بحيرة أم في نهر؛ لأن الروح الواحد هو نفسه يقدِّس المياه في كل مكان، ووهب الروح للمياه قوة التقديس بالاستدعاء والصلاة" (مقالة على المعمودية). ومع هذه الحرية إلَّا أن التعميد في الأماكن العامة كان يعرِّض المؤمنين والكهنة لكثير من المشاكل خصوصاً في أيام الاضطهاد، وإزاء سوء الفهم وحملات التشهير التي تعرضت لها المسيحية، اقتصر الأمر على التعميد في الكنائس، وبُنيت لذلك المعموديات. (راجع أيضاً الفصل الرابع من هذا الكتاب).

الفصل السابع

أسباب تأجيل المعمودية في القرون الأولى

شاعت في القرون الأولى فكرة تأجيل المعمودية، وقد ذكر الآباء خمسة أسباب للتأجيل، قاوموها كلها في عظاتهم، وأجابوا على الأعذار التي شاعت في ذلك الزمان، واعتبر الآباء أن:

السبب الأول: هو عدم الإسراع:

إن عدم الإسراع في التعميد هو دليل على عدم الاهتمام بالخلاص وعدم الرغبة في الشركة مع الثالوث، وقد عبّر عن هذا القديس غريغوريوس النزينزي (العظة ٤٠ على المعمودية).

والسبب الثاني: هو الإحساس بمشقة الحياة مع المسيح:

وما تطلبه من جحد العالم، وقد قال القديس باسيليوس عن هؤلاء: "إنهم لا يذكرون سبباً واحداً، بل لا ينطقون بكلمة، إلَّا أن تصرفاتهم تفضحهم، ورغم صمتهم فإن كلاً منهم يكاد أن يقول دعني وشأني سوف أتمتع بجسدي وبكل ما هو قذر، سوف أتمرغ في وحل العثرات الجسدية، وأغمس يدي في دم البشر، واستولي على ممتلكات الآخرين، أعيش على خداع الناس، أحلف وأكذب وبعد ذلك أعتمد عندما أستطيع أن أتوب" (عظة ١٣ على المعمودية).

والسبب الثالث: كان الخوف من السقوط في الخطيئة بعد المعمودية:

وهو موضوع سوف نعالجه في دراستنا للمعمودية في الكنيسة القبطية. لكن يكفي أن نشير إلى أن الفكرة الشائعة في القرون عن خطايا عظيمة لا مغفرة لها مثل الزنا والقتل والارتداد كانت السبب الأساسي لتأجيل المعمودية، ومن المؤسف أن التاريخ سجّل انتشار تعليم نوفاتيان القس الروماني الذي أكَّد انعدام المغفرة لمن سقط بعد المعمودية. وقد قاوم الآباء هذا التعليم بكل قوة. يقول القديس باسيليوس: "مَن الذي حدّد لك أيام عمرك؟ ومَن يمكنه أن يعدك بعُمرٍ طويل؟ ومَن الذي يستطيع أن يضمن لك المستقبل؟ ألا ترى أن الصغير مثل الكبير فجأةً يُخطف؟ ولماذا ننتظر حتى تمرض بالحمى مثلاً فتصبح المعمودية عطية الحمى" (عظة ١٣ على المعمودية).

ولما شاع الرأي بوجود معمودية النية كتب غريغوريوس النزينزي عن الذين يؤجّلون المعمودية اعتماداً على أنهم قد اعتمدوا ماداموا قد قرروا المعمودية: "حِلوا لي هذا اللغز الذي لم أستطع أن أحله: كيف يمكن لإنسان غير معتمد أن يفكر في أنه اعتمد بالنية، وأن الله يعرف عنه هذا، بينما هو أصلاً يتكل على رحمة الله بطريقة خاطئة ويؤجّل المعمودية، أو كيف يتخيل إنسانٌ ما أنه في الملكوت دون أن يعمل الأشياء التي تخص الملكوت" (مقالة ٤٠ على المعمودية).

والسبب الرابع لتأجيل المعمودية كان انتظارُ قسٍ حَسن السيرة:

أو وقت ملائم للتوبة أو عيد من الأعياد. عن هذا يقول غريغوريوس النزينزي: "سوف أنتظر عيد الغطاس أي الوقت الذي اعتمد فيه السيد المسيح حتى أعتمد مثل السيد المسيح، أو أختار الفصح لكي أقوم مع المسيح، أو عيد العنصرة لكي أمجّد حلول

الروح القدس. وماذا بعد كل هذا، بينما تؤجل المعمودية ويأتي الموت فجأة في وقت لا تعرفه وفي ساعة لا تتوقعها" (مقالة ٤٠ على المعمودية).

بينما يقول ترتليان إن البعض يريد أن يعتمد في أورشليم أو في الأردن، ثم يرد على ذلك: "لا يوجد فرق بين الذين اعتمدوا في الأردن أو في التيبر" (مقالة على المعمودية: ٤).

ويقول القديس أمبروسيوس للموعوظين: "تعالوا إلى نبع التقديس حيث يوجد الأردن الذي اعتمد فيه السيد المسيح والذي فيه تغرق كل الخطايا. إن المعمودية في الأردن لا تستدعي السفر إلى فلسطين حيث يوجد النهر، لأنه حيث يوجد المسيح يوجد الأردن وبركة تقديس الأردن شملت كل أنهار العالم" (عظة ٤١).

وسوف نرى فيما بعد لماذا سُمى جُرن المعمودية بالأردن، والأهمية الطقسية واللاهوتية لهذه التسمية.

وعن مشاهير القرن الرابع الذين أجَّلوا معموديتهم الإمبراطور قسطنطين الذي صمّم على أن يعتمد في نهر الأردن، ولكنه اضطر إلى أن يعتمد قبل وفاته ربما بساعات في نيقوميديا (راجع حياة قسطنطين بقلم يوسابيوس ٤: ٦٢). وهو دليل حي ملموس على صحة تأكيد الآباء بأن كل يوم هو يوم مقبول.

وعن الكاهن الحَسن السيرة، أي الملائكي يقول غريغوريوس النزينزي: "لا تقل يعمدني أسقف أو مطران أو أحد الإكليروس من أورشليم؛ لأن النعمة لا يعطيها المكان وإنما الروح. ولا تقل سوف يعمدني شخص من أصل نبيل كما لو كان من العار أن يُعمدك واحدٌ من العامة، ولا تقل إذا عمدني قس فيجب أن يكون غير متزوج أو حَسن السيرة وملائكي كما لو كانت معموديتك يمكن أن ينجسها من لا تنطبق عليه شروطك. لا تجعل نفسك قاضياً للواعظ أو المعمِّد لأنه يوجد القاضي الذي يعرف استحقاق كل واحد. كل كاهن يمكن أن يعمدك طالما أنه من كهنة الكنيسة وليس من

المقطوعين ولا من الغرباء الذين لا نعرفهم ولا من أعداء الكنيسة. لا تقاض قضاتك مادمت أنت نفسك تحتاج إلى الشفاء، ولا أريد أن أسمع منك عن الأفضل أو الأحسن من الآباء الروحيين الذين يطهرونك. ربما هناك من هو أفضل أو أكثر تواضعاً من غيره ولكن أي واحد هو أفضل منك أنت". (مقالة ٤٠ على المعمودية).

السبب الخامس: الانتظار حتى سن البلوغ:

مثل السيد المسيح الذي اعتمد وهو في سن الثلاثين، وسوف نناقشه بتفصيل أكثر في الفصل الخاص بمعمودية الأطفال، إلَّا أن القديس غريغوريوس النزينزي يقول: "المسيح هو الله، لذلك لم يكن محتاجاً للمعمودية، ولكنه اعتمد لأجلنا نحن البشر وحتى إذا أجّل معموديته لم يكن هذا خطراً عليه. كان للمسيح أسبابٌ جعلته يعتمد في سن الثلاثين وليس أي من هذه الأسباب يخص البشر. وقد فعل الرب أموراً كثيرة لا يمكن لأي منّا أن يقلدها أو يتخذها مقياساً فليس كل ما فعله الرب يمكن تقليده" (مقالة ١١ على المعمودية).

الفصل الثامن

الأسماء اللاهوتية للمعمودية

يهمنا أن نناقش في هذا الفصل الأسماء التي أطلقها آباء الكنيسة الجامعة على المعمودية. ذلك أن هذه الأسماء على قدر كبير من الأهمية، فهي تشرح لنا العمل الإلهي الذي يمنحه الرب نفسه لمن يأتي إليه، وعلاقة هذا العمل الإلهي بالنفس والجسد. ولهذا الفصل بالذات قيمة طقسية هامة، فهو يلقي الكثير من الضوء على نصوص صلوات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ويؤكد انتماء هذه الصلوات إلى لاهوت الآباء ومصطلحاتهم اللاهوتية القديمة. وهذه إحدى الطرق العلمية التي يمكننا بها أن نثبت أصالة الطقس القبطي وقدمه. ولن نتقيد هنا بالشرق وحده، بل سوف نعبر على مؤلفات الآباء قبل الانشقاق:

المعمودية هي الولادة الثانية:

يقول ترتليان عن المؤمنين: "نحن السمك نُولد في الماء ونُخلق على مثال اسم ربنا يسوع المسيح". كلمة سمك في اليونانية هي ΙΧΘΥΣ وكل حرف من حروف هذه الكلمة هو أول حرف في الكلمات الآتية:

Ιησους Χριστος Θεου Υιος Σωτηρ

أي يسوع المسيح ابن الله مخلصنا (راجع مقالة ترتليان عن المعمودية).

ونحن نقابل هذا الشرح عند أوبتاتوس *Optatus* وفي كل الآثار المسيحية القديمة، حيث اكتفى المسيحيين برسم سمكة ( )

أو بكتابة ΙΧΘΥΣ وهو – كما رأينا سابقاً – يُعد أقدم اعتراف بالإيمان.

ونحن نولد في الماء لكي نصبح أبناء الله، وهو ما يؤكده كيرلس الأورشليمي حيث يصف المعمودية بأنها Ψυχης παλιχχενεσια "الميلاد الثاني للنفس" (مقدمة تعليم الموعوظين:١٠). ولنفس السبب يقول الشهيد بوستينوس: "المعمودية هي ماء الحياة" (الحوار مع تريفو: ٢٣). ولأن هذا الميلاد هو ميلاد روحي، فهو يختلف عن الميلاد الجسدي، إنه ميلاد بقوة الروح القدس حيث يُصبح الله أبانا والكنيسة أُمنا، وهو تعبير شائع عند كل الآباء لا يمكن حصر مرات استخدامه هنا.

وبسبب عمل الروح القدس في المعمودية يصف القديس غريغوريوس النزينزي المعمودية على هذا النحو: "نحن نسميها العطية – النعمة – المعمودية – المسحة Χρισμα – الاستنارة Φωτισμα – ثياب عدم الفساد وحميم الميلاد الجديد وختم وعلامة" (عظة ٤٠ على المعمودية).

وبالطبع، فإن عمل الروح القدس في المعمودية هو الذي أعطى المعمودية هذه الأسماء، وبالذات **اسم المسحة**: لأن الذي يمسح النفس داخلياً هو الروح القدس، ولهذا السبب عينه يسمى جيروم المعمودية بكهنوت العلمانيين ***Sacerdotium Laici*** وهذا تمييز عن الكهنوت الخاص الذي يُعطى بالرسامة، هذه التسمية تشير إلى عودة المعتمد إلى كهنوت آدم الذي فُقِد بالسقوط والذي يعطيه الروح الجديد من جديد[١].

والمعمودية هي **استنارة**: وقد استخدم هذا الاسم في الرسالة إلى العبرانيين (عب ٦: ٤). ثم عند الشهيد يوستينوس حيث يقول: "هذا الحميم يسمى استنارةً؛ لأن عقول

---

(١) تظهر الإشارة إلى الكهنوت العام في أغلب الطقوس الكنسية ولاسيما طقس الإكليل في الكنيسة القبطية.

الذين تعلموا هذه الأشياء استنارت" (الدفاع الثاني: ٦٤ – راجع أيضاً ديوناسيوس الأريوباغي: رئاسة الكهنوت ١: ٣، وذهبي الفم عظة ١٢ على الرسالة إلى العبرانيين).

والمعمودية هي **الخلاص**: وهو اسمٌ شائعٌ استعمله الآباء وغريغوريوس النزينزي على وجه خاص في المقالة ٤٠ على المعمودية .

والمعمودية هي **ختم** Σφραγις: وقد استخدم العهد الجديد كلمة ختم على الأقل في ثلاثة مواضع إشارةً إلى المعمودية. وقد قال الرسول بولس: "الذي يثبِّتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وأعطانا عربون الروح القدس" (٢كو ١: ٢١، ٢٢؛ راجع أف ١١: ١٣، ١٤)، واستخدم الرسول الفعل اليوناني في صيغة *Aorist* وهو صيغة اختبار دائم عندما وضع الله ختمه كعلامة ملكية، وهو المقصود هنا في استخدام الفعل خَتَمَ.

ولكي نفهم معنى هذا النص علينا أن نعود إلى العهد القديم حيث نكتشف أن الأنبياء كانوا يضعون علامةً مميزةً، وهي وشم على الجبهة لكي يعرفهم الشعب (راجع ١مل ٣٠، ٤١؛ زك ١٣: ٦)، بل يتمنى أشعياء النبي أن يقول "كل مؤمن بالرب أنا للرب، ويكتب هذا آخر على يده أنه للرب" (أش ٤٤: ٥ النص العبراني). وقد شرح بروكوبيوس الذي من غزة، وهو من آباء القرن الخامس وأحد شُرّاح الكتاب المقدس إن نص أشعياء ٤٤: ٥ هو إشارة إلى رشم الصليب على اليد اليمين الذي يمارسه المسيحيون (مجلد ٨٧: ٢٤٠١). والبحث عن أصل كلمة ختم في العهد القديم هو على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن سفر تثنية ٦: ٨ يطلب كتابة الإيمان بالله على قطعة من القماش "واربطها علامةً على يدك ولتكن عصائب بين عينيك" (راجع ١١: ١٨، خر ١٣: ٩) "بينما كان رئيس الكهنة يلبس تاجاً مكتوباً عليه قُدسٌ للرب" (خر ٢٨: ٣٦).

ويؤكد حزقيال النبي أن الرب قال للرجل اللابس الكتان والذي بجانبه دواة الكاتب: "أعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم وسِمْ سِمَةً على جباه الرجال الذين

يئنون ويتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها... اقتلوا للهلاك ولا تقربوا من إنسان عليه السمة... " (حز ٩ ٣ - ٦). وبالطبع إن علامة الرب هي علامة مميزة تمنع الهلاك؛ لأن الذي يُهلك يميِّز إن حامل العلامة هو من قطيع الرب. وكل طلاب التاريخ القديم يعرفون أن الختم يوضع على قطعان الغنم لتأكيد ملكيتها لشخص معين. ومن الجدير بالملاحظة أن السمة التي يتحدث عنها حزقيال هي حرف التاء † وهي علامة الصليب في الحروف العبرانية القديمة، وسوف نرى فيما بعد قيمة هذا النص حز ٩: ٣ – ٦ في الدهن والرشم في المعمودية المسيحية.

وكان الختان يعتبر أيضاً بمثابة ختم العهد (راجع مكابين الأول ١: ١٥، ٤٨، ٦٠). وسوف نرى عندما ندرس معمودية الأطفال كيف لعب محتوى الختان، وهو ختم للإيمان، والمعمودية هي ختم العهد الجديد، دوراً هاماً في تأكيد صحة تعميد الأطفال.

مما سبق يمكننا أن نؤكد أن كلمة ختم لعبت دوراً هاماً في لاهوت المعمودية، ذلك أن (ختم = ملكية). وتعني أيضاً تأكيد صحة العهد مثل الوثيقة التي لا تُعد صحيحة إلَّا بعد أن تُختم ويصبح الختم علامة مؤكدة لصحتها.

هكذا يُعد عطاء الروح القدس كعربون، تأكيد لصحة العهد الجديد في المعمودية. الختم هو عطية الروح ذلك أن الله خَتَمَ أو وقّع باسمه على صحة تجديد الإنسان بالختم أو بالروح القدس. وقد استخدم الآباء كلمة "ختم" للمعمودية؛ ولعل أقدم هذه الاستعمالات ما ذكره القديس أكليمنضس السكندري في مقاله" من هو الغني الذي يخلص" عن الشاب الذي سلَّمه الرسل يوحنا إلى أحد الأساقفة بعد "ختمه بختم الرب" (يوسابيوس ٣: ٢٣).

وفي قصة استشهاد تكلا تلميذة بولس الرسول تقول له: "أعطني ختم المسيح، فلا تقترب مني التجارب"، أي المعمودية.

"الذين هم موتى الآن قد ختموا بختم ابن الله ولذلك دخلوا ملكوت السموات" (راجع: راعي هرماس *Sim 9:16*) ويشرح هرماس معنى ختم ابن الله في عبارة سوف نعود لدراستها بالتفصيل يقول: "قبل أن يأخذ إنسانٌ اسم ابن الله كان تحت سلطان الموت، لكن عندما أخذ الختم تحرر من الموت وأصبح أهلاً للحياة الأبدية" (نفس المرجع السابق).

ويضيف الآباء أحياناً كلمة الإيمان إلى الختم لتصبح المعمودية ختم الإيمان. (ترتليان *de Sectst 4*). ويقول ترتليان في (الدفاع: ٢١): "نحن مميزون عن اليهود بالختم (حرفياً: الإمضاء) الذي على أجسادنا؛ لأن ختمهم هو الختان، أمَّا ختمنا نحن فهو المعمودية".

ويقول غريغوريوس النزينزي: "دُعيَت المعمودية ختماً لأنها ختمٌ يؤكد ملكيتنا والسلطان الذي يملكنا ولأنها عربون الحياة الأبدية" (مقالة ٤٠ عن المعمودية). ولذلك قال الإمبراطور قسطنطين قبل وفاته، وحسب رواية يوسابيوس: "الآن هو الوقت الذي سوف أتمتع فيه بختم عدم الموت. الآن هو الوقت الذي سوف أحصل فيه على ختم الخلاص" (حياة قسطنطين ٤: ٦٢).

وذهبي الفم أيضاً عندما يشرح معنى الختم يقول: "كما توضع العلامة على الجندي، هكذا نُختم بالروح القدس نحن المؤمنين، وكما كان الختان هو سمة اليهود... هكذا نحن أيضاً عربون الروح هو سمتنا" (عظة ٣ على ٢كو، راجع المراسيم الرسولية٢: ١٤).

والمعمودية هي **العطية**: حسب أقدم المصادر لأن الشهيدة تكلا عندما طلبت الختم من الرسول بولس قال لها الرسول: "انتظري واصبري لكي تنالي عطية المسيح". ويقول غريغوريوس التزينزي: "نحن نسميها العطية لأنها تُعطى لنا دون أن ندفع فيها ثمناً" (عظة ٤٠، راجع القديس باسيليوس عظة ١٣ على المعمودية).

ولعل خير ما نختم به هو نص من القديس ايسيذوروس البيلوسي عندما كتب ضد الأريوسيين الذين أنكروا لاهوت الابن، ثم بعد ذلك لاهوت الروح القدس: "إذا لم

يكن الروح من ذات جوهر الآب والابن، فلماذا ذكره الابن عندما تحدَّث عن علامة وختم التقديس، وأمر تلاميذه أن يذهبوا ويعمدوا باسم الآب والابن والروح القدس ..." (رسالة ٣٧). ويقول أيضاً: "إذا كان القس الذي يُعمِّد رديئاً، فإن ختم الخلاص والشخص الذي يأخذه لا يتأثر بشيء ردئ بالمرة، وإنما الذي يُصاب هو القس وحده" (نفس المرجع السابق).

الفصل التاسع

الطقوس التي تسبق المعمودية

أولاً: جحد الشيطان

كان التعليم يسبق التعميد، وكان نضوج الموعوظ معناه أن يستعد لقبول ذلك السر الإلهي الفائق. فما هي إجراءات قبول الموعوظ؟ ولماذا صارت هذه الإجراءات على هذا النحو الغريب؟

يوجد إجماعٌ عام على أن آخر مراحل الاستعداد كانت تبدأ من آخر الجمعة الكبيرة. وحسب شهادة ذهبي الفم، كانت بداية الاستعداد هي الثالثة بعد الظهر يوم الجمعة العظيمة (تعليم الموعوظين ٣: ٤ ص ١٦٦). وكان الكهنة يقودون الموعوظين إلى الكنيسة (تعليم الموعوظين ٢: ٨ النص الثاني). ولا يحدد كيرلس الأورشليمي الوقت بالذات، ولكن يبدو من وصف كيرلس، وقوانين الرسل، وايجيريا أن الاستعداد يبدأ من عشية الجمعة العظيمة، ويصوم الموعوظون جميعاً استعداداً لذلك، يوم السبت الكبير كله، ولعل هذا بدوره أحد الأسباب الأساسية لصوم السبت الكبير. ويؤكد هذا أيضاً الطقس الغربي في ميلان من زمن القديس أمبروسيوس (الأسرار ٢:١). وحسب شهادة كيرلس الأورشليمي: "كان الموعوظ يدخل الغرفة الخاصة التي فيها المعمودية (المغطس)" (تعليم الموعوظين ٢:١). وحسب نصوص العظات نفهم أن مكان المعمودية هو خارج بناء الكنيسة (تعليم الموعوظين ١١:١). ولا تزال معمودية دير مار يعقوب في نصيبين – وتعود إلى عام ٣٥٩م – تقع خارج مبنى

الكنيسة تماماً من الجهة البحرية (راجع رسم الكنيسة والصور التي نشرها العالم الألماني *G.Kretschmar* في مجلة الدراسات الليتورجية ١٩٦٦م- عدد ٣٣ – ص ٢٠٤ - ٢٠٦).

ويقف الموعوظون إلى ناحية الغرب للصلاة (تعليم الموعوظين ٢:١)، ثم يرفعون أيديهم إلى فوق ويطلب منهم أن يرددوا هذه الكلمات الموجهة إلى الشيطان: "أجحدك أيها الشيطان"، ويردد هذه العبارة ثلاث مرات ، ثم يُضيف: "وكل أعمالك وكل مفاخرك πομπαις وكل عباداتك" (المرجع السابق ١: ٥ – ١: ٦ – ١: ٨). وفي الغرب أضاف القديس أمبروسيوس إلى هذا الطقس شيئاً جديداً، وهو أن توضع أصابع الأسقف في أذني كل موعوظ على حدة، ويطلب الأسقف من أجله قائلاً: "أفثا" أي انفتح، وهي مأخوذة من معجزة إبراء الأصم (مر ٧: ٣٤). وبعد ذلك كان الموعوظ يدخل أيضاً غرفة المعمودية (مقالة الأسرار ١: ٤). وقد كشفت الحفريات الحديثة التي تمت اليوم في ميلان أن المعمودية كانت أيضاً خارج الكنيسة، وعلى شكل ثُماني وكبيرة جداً (راجع مقالة *Kretschmar* السابقة ص ٢٣٠). ونفهم أيضاً من كتابات أمبروسيوس أن المعمودية تُسمى "قدس الأقداس" و "قدس الميلاد الثاني" (الأسرار: ٥).

وكان الموعوظ يُدهن بالزيت بواسطة الشماس أو القس قبل أن تتم إجراءات جحد الشيطان (الأسرار ١: ٤). ويشرح أمبروسيوس هذه المسحة بالزيت على أنها مثل مسحة الزيت التي تعطي للمصارعين قبل بدء المصارعة، وهي عادة قديمة شائعة ومعروفة، ويقول أمبروسيوس: "إنكم تُدهنون كمحاربي المسيح" (الأسرار ١: ٤)، ولعل هذا يعني أن الجسد كله كان يُدهن.

وحسب شهادة أمبروسيوس كان الموعوظ يتجه ناحية الغرب وكان يُسئل هذه الأسئلة:

- هل تجحد الشيطان وكل أعماله؟
- أنا أجحد.

– هل تجحد العالم وكل ملذاته؟

– أنا أجحد.

أمَّا الطقس الإنطاكي القديم – حسب شهادة ذهبي الفم – فقد كان يبدأ بالركوع بعد دخول الكنيسة. ولم يترك لنا ذهبي الفم أية إشارة إلى ما إذا كان جحد الشيطان يتم في الكنيسة أم في غرفة المعمودية. وربما كان الطقس يتم في الكنيسة.

عند ركوع الموعوظ يرفع يديه إلى السماء. ويطلب الأسقف من كل واحد على حدة أن يردد خلفه جحد الشيطان، وكانت تتم – حسب نص تعليم الموعوظين – في شكل أسئلة مثل الطقس الميلاني (تعليم الموعوظين ٣: ٤ ص ١٦٦). وكان الموعوظ يجيب قائلاً: "أجحدك أيها الشيطان وكل أمجادك وكل خدمتك وكل أعمالك" (تعليم الموعوظين ٢: ٢٠ النص الثاني).

وحسب شهادة ثيؤدور: "الجحد يتم والموعوظ واقف على قطعة من الصوف من شعر الماعز وقد خلع رداءه الخارجي ورفع يديه إلى فوق سائلاً رحمة الله" (عظة ٢ على المعمودية ٢: طبعة *Mingana* ٣٤ – ٣٦). ويفهم من نص آخر أن قطعة من المسوح كانت توضع على الأرض بدلاً من شعر الماعز، ويركع عليها الموعوظ رافعاً يديه إلى الله (عظة ٢ على المعمودية ٣–٤ نفس الطبعة ص ٣٦). ويقترب الخدام منهم ويقولون نفس العبارة التي قيلت من الملاك لكرنيليوس: "لقد سُمِعَت صلاتك..." (أع ١٠:٤). ويقترب الشماس من كل موعوظ على حدة لكي يلقنه صيغة جحد الشيطان: "أجحدك أيها الشيطان وكل ملائكتك، وكل أعمالك، وكل خدمتك وكل أباطيلك، وكل فخرك العالمي، وأعترف وأنذر أن أؤمن وأن اعتمد باسم الآب والابن والروح القدس" (المرجع السابق ٢: ٥).

وصيغة جحد الشيطان قد تختلف في بعض الألفاظ، ولكن المعنى العام هو السائد حسب شهادة أقدم المصادر وهي قوانين الرسل وكتاب المراسيم الرسولية التي تقول: "فليعلِّموا الموسومين للعماد أن يستحموا ... ويصوموا ... في السبت. إذا اجتمع

الذين يعتمدون في موضع واحد برأي الأسقف فليوصوا كلهم أن يصلوا وأن يحنوا ركبهم ويضع الأسقف يده عليهم ليستحلف (يستقسم) كل روح غريب... وإذا فرغ من أن يستحلف، فلينفخ فيهم ثم يختم (يرشم) جباههم وآذانهم ... ثم يجحد الشيطان قائلاً: "أجحدك أيها الشيطان وكل خدمتك وكل أعمالك" (قانون ٢٧ من قوانين الرسل). "أجحدك أيها الشيطان وكل خدمتك" (قانون ١٩ من التقليد الرسولي). وفي المراسيم الرسولية وهو مصدر متأخر كثيراً عن قوانين الرسل: "أجحدك أيها الشيطان وكل أعمالك وكل مجدك الباطل وكل خدمتك وكل ملائكتك وكل نفاقك وكل ما هو لك وكل ما هو خاضع لك" (كتاب ٧: ٥١).

الشرح اللاهوتي لكلمات الجحد:

الكلمة اليونانية πομπαις التي دخلت اللاتنية *Pompe* وترجماها أمجاد أو مفاخر، تعني أصلاً المناظر الفخمة ومجد هذا العالم –كانت تُستعمل لوصف المواكب الفخمة التي كانت تسير في الشوارع في عواصم العالم القديم في الإمبراطورية الرومانية وكل ما يحيط بها من أُبهة. وقد شرح القديس ذهبي الفم هذه الكلمة على النحو التالي: "إذا قلت من كل القلب أجحدك أنت يا شيطان وكل مجدك الباطل"، فإنك سوف تُعطي حساباً عن ذلك في يوم الدينونة ... والأمجاد الباطلة التي تخص الشيطان هي: المسارح والملذات الشريرة والتفاؤل بالأيام والتفاؤل باللحظات أو الكلمات العفوية التي تُقال للغير وهي أصلاً لا تخصنا ثم التشاؤم من نذير. وأنا أسألكم ما الذي يُعد فألاً في الدنيا؟ أحياناً عندما يترك شخص منزله يرى رجلاً بعين واحدة (أعور) أو أعرج فيعتبر هذا فألاً سيئاً. هذه هي أمجاد الشيطان الباطلة لأنها ألاعيبه. فلقاء البشر لا يجعل يومنا سيئاً، وإنما الحياة في الخطيئة هي التي تجعله" (المقالة الثانية لتعليم الموعوظين).

وترتليان بشرح كلمة *Pompe* على أنها عبادة الأوثان (*De Corona: 13.*). وعبادة الأوثان في العالم الروماني القديم لم تكن السجود للتماثيل، بل كانت مواكب الاحتفالات والألعاب (لاحظ كيف أشار ذهبي الفم للمسارح). ويؤكد هذا ما ذكره كيرلس الأورشليمي: "مجد الشيطان هو الشهوة للمسارح وسباق الخيل وسباق المركبات والعاب السيرك وكل الأباطيل التي من نفس النوع. وهو أيضاً المآدب التي تخص أعياد الأوثان وما فيها من طعام وخبز وكل ما تدنس باستدعاء الشياطين النجسة، الأطعمة والخبز هي في حد ذاتها طاهرة لكن استدعاء الشياطين ينجسها" (تعليم الموعوظين ١: ٤). وثيؤدور المصيصي يقول: "إن حيل الشيطان هي المسرح والسيرك والألعاب الرياضية والأغاني والرقص. هذه كلها زرعها الشيطان في الدنيا تحت ستار اللهو لكي يثير النفوس ويسرع بها إلى الخراب، ولذلك كل من يشترك في سر العهد الجديد عليه أن يحفظ نفسه من كل هذه" (تعليم الموعوظين ١٢:١). وفي الحقيقة كان امتناع المسيحيين الأوائل عن المسارح والسيرك، بل وحتى الألعاب الرياضية لأنها كلها تُقام من أجل لآلهة، حتى الألعاب الرياضية في المدن الرومانية القديمة كان أبطالها يتوَّجون باسم الآلهة ويأخذون جوائزهم من الآلهة، ولذلك جاء جحد الشيطان لكي يؤكد ضرورة امتناع المسيحي عن الاشتراك في كل هذه الأمور التي من شأنها أن تُعيد الإنسان إلى ما سبق وتركه. كانت فرصة ما قبل المعمودية هي أنسب الأوقات للحصول على هذا العهد ويقول ترتليان: "ما هو المعنى الرئيسي والأساسي الذي نستخلصه من جحد الشيطان ومجده وملائكته سوى العبادة الوثنية" (*de Spectat 4*)، بل يقول الشهيد كبريانوس: "إننا نجحد الشيطان والعالم كله" (رسالة ٧، ١٣).

وملائكة الشيطان حسب شرح ثيؤدور هم رُسل الشيطان؛ لأن كلمة ملاك تساوي رسول، وهؤلاء هم البشر وليس الأرواح النجسة؛ لأن البشر الذين يخضعون للشيطان يصبحون أدواته وهو بدوره يستخدمهم لكي يُسقِط الآخرين. هؤلاء البشر هم

الذين ينشغلون بتعليم الشر والذين يساعدون على انتشار الوثنية في العالم مثل الشعراء الذين ينشرون الوثنية بقصصهم الخرافية وقادة الهرطقات مثل ماني ومرقيان وفالنتيان وبولس السموساطي وآريوس وأبوليناريوس الذين تحت اسم المسيح ينشرون ضلالاتهم" (تعليم الموعوظين ٧ – ٨).

وقد شاع في الشرق وحده إضافة صيغة ملائكة الشيطان في صيغة جحد الشيطان (مقالة عن الروح القدس للقديس باسيليوس: ٢٧ وصيغة جحد الشيطان في الطقس السكندري).

والأساس الكتابي لجحد الشيطان هو تجارب المسيح الثلاثة على الجبل، وهي تبدأ قبل المعمودية وتظل ترافقنا حتى النهاية، وهو ما نجده في شرح الآباء جميعاً بدون استثناء بينما يشير بعض الآباء إلى أن الكنيسة اعتمدت على نص الرسول بولس في (١تي ٥: ١٢): "أمسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيت وقد اعترفت الاعتراف الحسن أمام شهود كثيرين".

ويقول أمبروسيوس: "إن التقليد حدّد الاعتراف الحسن في المعمودية، وهو جحد الشيطان والعالم أمام شهود كثيرين هم الكهنة والخدام والقوات السمائية" (شرح الرسالة إلى ١تي ٦:١٢).

ويقول ترتليان: "إن جحد الشيطان مأخوذ من كلمات الكتاب المقدس، لكنه مؤكَّد بالتقليد" (*de Coron 3*).

والقديس باسيليوس يقول: "إن جحد الشيطان هو من الطقوس السرية التي تسلمتها الكنيسة وهو ليس مسجلاً في أي وثيقة مكتوبة لكنه تسليم يعود إلى الرسل" (مقالة على الروح القدس: ٢٧).

وعند جحد الشيطان يقول كيرلس الأورشليمي: "لقد حطّم المسيح قوة الشيطان وأباد الموت بموته بشكل جعلني أجحد الشيطان وأنسحب نهائياً من مملكته" (مقدمة تعليم الموعوظين ١: ٦).

ثانياً: الاتجاه نحو الغرب ثم الشرق:

الجانب الرمزي موجود في كل شيء في الحياة، ولا تخلو العلاقات البشرية على أي مستوى من المستويات من رموز أو حركات طقسية تبدأ باللغة (مفردات اللغة رموز) وترتفع إلى ما هو أعقد في العلاقات بين الأفراد مثل المصافحة ونظرات العينين.

في جميع لغات العالم وخبرة الإنسان عبر العصور يمثل شروق الشمس المبعث والميلاد وكل ما هو جديد... يمثل بداية اليوم الجديد، بينما الغروب يعني العكس تماماً.

في العهد القديم المسيح هو شمس العدل (ملا ٤: ١)، ولهذا عندما يسبِّح زكريا الرب على مجيء المسيح يقول: "المشرِق من العلا" (لو ١: ٦٨)، وهو مجيء اليوم الجديد مثل انفجار النور "إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح" (٢بط ١: ١٩). ومع الشرق والغرب يلتصق المعنى الأساسي للحياة، فإشراق الحياة نورٌ، وغربتها ظُلمة. ونرى هنا المعنى في قول الرسول بولس عندما يتحدث عن الأعداء غير المنظورين: "إن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات" (أف ٦: ١٢).

والتعبير يعود إلى الرب نفسه: "هذه ساعتكم وسلطان الظلمة" (لو ٢٢: ٥٣)، ولذلك كان الحديث عن المسيح دائماً هو حديثٌ عن النور "الشعب الجالس في الظلمة أبصر نوراً عظيماً والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور" (مت ١٤: ١٦). وعندما تحدث المسيح القائم مع شاول الذي صار بولس بعد ذلك يصف الرب عمل الرسول بأنه "لتفتح عيونهم كي يرجعوا من الظلمات إلى النور ومن سلطان الشيطان إلى الله" (أع ٢٦: ١٧)، ولذلك عندما يصف القديس بولس قيامة المسيح للوالي أغريباس يقول: "المسيح هو أول قيامة الأموات مزمعاً أن يُنادى به كنور للشعب (اليهود) والأمم" (أع ٢٦: ٢٣). وربما هناك التباسٌ في الترجمة العربية، لكن النص اليوناني وسائر الترجمات الأخرى تؤكد أن الذي سينادي بالنور هو المسيح نفسه، والنور هو نور القيامة، ولذلك

كان ظهور المسيح في الصباح بعد أن أشرقت الشمس (مر ١٦: ٢). وهنا تأكيد على المعنى المزدوج للشمس، الشمس أي المسيح كشمس الحياة الجديدة التي لا تغيب. وعن قيامة المسيح يقول النبي أشعياء: "قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يُرى فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك" (أش ٦٠: ١ – ٣). وفي نور هذه النبوة يقول بولس الرسول عن الكرازة بالمسيح التي سوف تتم بواسطته: "قد أقمتك نوراً للأمم" (أع ١٣: ٤٧) راجع نبوة زكريا: "نوراً أضاء للأمم ومجداً لشعبك" (لو٢: ٣٢). وعلينا أن نتذكر أن الإنجيل الرابع هو إنجيل النور "كان هو النور الحقيقي الذي يضئ في الظلمة (يو ١: ١ – ١٤).

ورفضُ المسيح هو البقاء في الظلمة، هو رفضٌ النور "وهذه هي الدينونة أن النور جاء إلى العالم ولكن الناس أحبوا الظلمة أكثر من النور" (يو ٣: ١٩). "أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يسير في الظلمة بل يكون له نور الحياة" (راجع يو ٥:٩، ورسالة ١يو ١:٥).

ونظراً لأهمية الموضوع والارتباط بين النور والاتجاه للشرق، سوف نضطر إلى حصر المعاني التي استخدمها الكتاب المقدس لكلمة "نور".

في العهد القديم تبدأ قصة الخلق بإشراق النور (تك ١: ٣)، ولكن هذا النور ليس خلقاً لنور مضيء يشع في الكون، وإنما هو التجلي الإلهي في الخلق. ويجب علينا أن نقرأ (تك ١:٣ مع مز ١٠٤:٢) "اللابس النور كثوب الباسط السموات كشُقَّة". والله أعلن عن نفسه كخالق (راجع أي ٢٦: ٣٦) بإشراق النور.

وفي العهد الجديد يذكِّرنا الرسول بولس بالنور الأول الذي أشرق في بداية الخليقة: "الله الذي قال أن يشرق نورٌ من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كو ٤: ٦). ومن الواضح أن الخليقة الثانية، أو الجديدة

مثل الخليقة الأولى تبدأ بإشراق الله وظهوره، وهذا ما يعلنه إنجيل يوحنا (يو ١: ١ – ١٨) بكل وضوح.

الظلمة هي الدينونة، ولأن الدينونة ستأتي فجأة وبدون مقدمات، سوف يظلَّم نور النهار ويتحول النهار إلى ظلمة في يوم الرب (أر ٢٨، ٤: ٢٣، ثم عا ٨: ٩، يوئيل ٢: ٢ – ٣١، ٣: ١٤).

وإشراق شمس النهار يعني في الكتاب المقدس بركة الله والفرح الذي يصاحب النهار (راجع مز ٣: ٥، أش ٣٣: ٢، زك ٣: ٥). والليل هو نهاية الفرح "عند المساء يبيت البكاء وفي الصباح الترنم" (مز ٣٠: ٥ – ٧٧: ٢ – ١١٩: ١٤٧). ولأن الموت هو الدينونة ونهاية الحياة كانت الهاوية حيث الأموات هي أرض الظلام والضلال: "ألعلك للأموات تصنع عجائب. هل يحدَّث في القبر برحمتك أو بحقك في الهلاك. هل تُعرَف في الظلمة عجائبك وبرك في أرض النسيان" (مز ٨٨: ١١، ١٢ – ٤٩: ١٩ – أي ١٠: ٢١ – ٣٨: ١٧ – جا ٦: ٤). ولذلك اقترن في لغة الكتاب – بكل وضوح – النور والحياة والظلمة والدينونة (مز ٥٦: ١٣ – ٩٦: ١١ – أي ٢٢: ٢٨ – ٣٠: ٢٦). وفي الواقع يعود هذا كله إلى المبدأ اللاهوتي الهام "عندك ينبوع الحياة وبنورك نعاين النور" (مز ٣٦: ٩).

والحياة مع الله هي حياةٌ في النور والفرح والخلاص: "لأنك أنت تخلص الشعب البائس والأعين المرتفعة تضعها لأنك أنت تضيء سراجي الرب إلهي ينير ظلمتي" (مز ١٨: ٢٨، مز ١١٨: ١٧، أش ٩: ١، ٥٨: ٨). الله هو النور والخلاص "الرب نوري وخلاصي" (مز ٢٧: ١، ملا ٧: ٨). ومن الواضح أن قصة الخلق إذ تبدأ بإشراق النور، فقد أعطت هذا المعنى اللاهوتي الواضح لعلاقة الخلق الجديد بإشراق نور القيامة والحياة الجديدة في المسيح.

والسير في النور معناه السير في الاتجاه الصحيح؛ لأن نور الرب هو الذي يهدي السائر في طريق الرب "أرسل نورك وحقك هم يهدياني ويأتيان بي إلى جبل قدسك" (مز ٤٣:٣، أي ٢٩: ٣، أش ٢: ٥، ملا ٧: ٨). ولذلك استخدم العهد القديم كلمة نور للإشارة إلى

ناموس الرب "سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي" (مز ٦، ١١٩: ٥، أم ٦: ٢٣، حكمة ابن سيراخ ١٨: ٤). والنور أيضاً هو الحكمة الإلهية، (راجع جا ٢: ١٣، وحكمة بن سيراخ ٧:١٠، ٢٦).

ويؤكد العهد الجديد بجانب ما ذكرناه أن النور هو الحياة مع الله، وذلك في نص فريد عن العين كسراج للجسد حيث يُصبح كل شيء مرئياً من خلال النور الذي يُشرق في النفس ويعطي لها الرؤيا الداخلية الواضحة المعتمدة على الله "النور الذي فيك" (مت ٦: ٢٢)، وهذا النص يجب أن يقرأ من خلال معنى ظهورات الله أو ظهور الملائكة برسالة إلهية حيث يصاحبهم النور الشديد اللمعان (لو ٢: ٩، مت ١٧: ٢ – ٥،٢٨: ٣٨، أع ١: ١٠، ٩: ٣، ١٠: ٣٠، ١٢: ٧). وكما ذكرنا سابقاً النور هو الخلاص وإشراق الله بالحياة (مت ٤: ١٦، لو ٢: ٣٢). ولما أسَّس الله العهد الجديد أصبحت البشارة أو الإنجيل هي إعلان النور (راجع ٢كو ٤: ٤ – ٦). وفي الكتاب المقدس كله هناك ارتباط شديد بين كلمة نور ومجد، وأحياناً معنى كلمة مجد ونور يكون واحداً، وسوف نعود إلى هذه النقطة (المجد) ونعالجها على حدة.

وكما في العهد القديم كذلك أيضاً في العهد الجديد، الظلمة هي أيضاً الدينونة حيث يقول الرب: "اطرحوه في الظلمة الخارجية"، أي أن يُحرم من الوليمة المسيانية أي الملكوت (مت ٨: ١٢ – ٢٢، ٢٣، ٢٥ – ٣٠). وحينما مضى الرب إلى الصليب عبَّر عن مجيء الدينونة: "الآن دينونة هذا العالم" بكلمة واحدة: "الآن هي ساعتكم وسلطان الظلمة" (لو ٢٢ ٥٣، راجع أيضاً أف ٦: ١٢).

ولذلك، الذين نالوا الخلاص هم أبناء النور، وهم ليسوا مثل أبناء هذا الدهر الحاضر الشرير (لو ١٦: ٨)، ولهذا وصف العهد الجديد تلاميذ المسيح بأنهم نور العالم (لو ٥: ٢٤)، ودخل النور للتعبير عن الحياة المسيحية الأصلية: "قد تناهى الليل وقرب إشراق النهار فنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور، لنسلك بلياقة كما في النهار لا بالبطر

والسكر ولا بالمضاجع والعُهر لا بالخصام والحسد، بل ألبسوا الرب يسوع المسيح" (رو ١٣: ١٢ – أف ٥: ٨ – ١تس ٥: ٤ – ١ يو ١: ٧، ٢: ٩).

والنور هو تجديد الحياة التي لا تسمح بالظلمة بالمرة "أيُ شركةٍ للنور مع الظلمة وللمسيح مع الشيطان" (٢كو ٦: ١٤). وهذا المبدأ اللاهوتي الواضح الذي يربط كل هذه المعاني هو أن المسيح هو النور الحقيقي، وهو تأكيد واضح على لاهوت المسيح؛ لأن الله وهو النور "والساكن في نور لا يدنى منه" الذي وحده له عدم الموت "ساكناً في نور لا يدنى منه" (١ تي ٦: ١٦)، ولأن المسيح هو النور الذي يُنير كل إنسان آتياً إلى العالم، وهو نور الحياة الذي أشرق بمجد عظيم في القيامة "مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الخبر السار المفرح" (٢ تي ١: ١٠)، وذلك أن المسيح بقيامته أنقذنا من سلطان الظلمة "شاكرين الآب الذي أهلنا لشركة ميراث القديسين في النور الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته" (كو ١: ١٣، ١٤).

وترتبط كل هذه المعاني بالمعمودية بدون شك؛ ذلك إن الانتقال من الظلمة إلى النور ومن الحياة إلى الموت بالصليب وبالقيامة هو إشراقه الحياة الجديدة التي جاد بها الرب علينا في سر موته وقيامته أي المعمودية (رو ٦: ١ – ١٨)، ولذلك دُعيت المعمودية استنارة بكل وضوح في رسالة العبرانيين: "لأن الذين استُنيروا مرة وذاقوا قوة الموهبة السمائية وصاروا شركاء الروح القدس" (عب ٦: ٤). ومن الواضح أن الحديث هنا عن المعمودية؛ لأن المعمودية تُعطى مرةً واحدة، والنصوص الأخرى التي ربما تشير إلى المعمودية هي (٢كو ٤: ٦ – أف ١: ١٨ – ٢تي ١: ١٠). وهذه النصوص تُفَسَّر في ضوء ما ذكره بولس في (عب ٦: ٤). لكن المؤَكَّد والواضح في العهد الجديد أن المسيح هو نور العالم (يو ٨: ١٢، ٩: ٥)، وأن الذي يتبعه له نور الحياة وشركة الآب (يو ١١: ٩)، بل يظل ابناً للنور (يو ١٢: ٣٦)، وفي شركة المحبة الإلهية مع جميع المؤمنين "لكن إن سلكنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض" (١ يو ١: ٧)، والتأكيد هنا على الشركة مع

الله كأساس وأصل الشركة المسيحية، راجع الكلمات القوية (١ يو ٢: ٨ - ١١). من كل ما سبق يظهر لنا بكل وضوح قيمة الشرق والنور في اللاهوت المسيحي.

ولذلك كان من غير المعقول أن لا يظهر الاتجاه للشرق كتعبير طبيعي عن الإيمان بالله نورنا وخلاصنا وقيامتنا. وقد لعبت النصوص الكتابية دوراً هاماً في تأكيد معنى النور بالنسبة للإنسان، لكن برزت حقائق لاهوتية أخرى أساسية وساعدت على ترسيخ الاتجاه نحو الشرق وهي:

(١) يوم الرب: هو اليوم الأول في الأسبوع الذي أشرق فيه النور الجديد، نور القيامة، وقد احتفل المسيحيون الأوائل بيوم الرب أو يوم القيامة وهو يوم اجتماع الكنيسة (١كو ١١: ٢٠ – رؤ ١: ١٠). ويقول القديس أغناطيوس الإنطاكي: "إن كل مَن عاش بمقتضى الناموس القديم قد دُعُوا للرجاء الجديد وتحرروا من شريعة السبت ليلزموا يوم الرب الذي فيه طلعت شمس حياتنا: المسيح وموته، وبهذا السر نلنا الإيمان" (مغنسيا ٧: ١ – ٣). ومن المؤكد هنا أن الشمس التي طلعت هي الحياة الجديدة في المسيح، وهذا هو سر الإيمان. والارتباط بين القيامة ويوم الرب والمعمودية واضح (راجع رسالة برنابا : ١٥)، حيث يذكر أن المسيحيين لا يحتفظون بالسبت لأن يوم الرب هو يوم العبادة؛ لأنه قام فيه من بين الأموات. ويذكر الشهيد يوستينوس: "إن يوم الرب هو اليوم الأول من الأسبوع الذي نحتفل فيه بالنور الجديد وبقيامة الرب" (الدفاع الأول ٦٧: ٧). وهكذا كان اليوم الأول من الأسبوع هو أحد العوامل الأساسية في تأكيد الاتجاه نحو الشرق لأن اليوم الأول هو يوم النور الجديد.

(٢) الجدل اليهودي المسيحي: هذا الجدل هو الذي جعل المسيحيين يختارون الشرق كاتجاه للصلاة؛ لأن اليهود يتجهون نحو أورشليم لتأكيد انتظار المسيح الآتي "كما أن البرق يشرق من المشارق هكذا يكون مجيء ابن الإنسان" (مت ٢٤: ٢٧)، وسوف نرى قيمة هذا النص من الإجابات القانونية للقديس أثناسيوس الرسولي.

تعليم آباء الكنيسة الجامعة عن الاتجاه نحو الشرق:

في الصفحات السابقة تأكَّدت لنا أهمية الرمز والحقائق الروحية المرتبطة بالنور والشرق، ولعل أول من أشار للاتجاه نحو الشرق هو أكليمنضس السكندري سنة ١٩٥م حيث يقول عن المسيحيين: "هم يُصلُّون ناحية الشرق لأن الشرق كان ميلادنا الروحي، ومنه يشرق النور أولاً ولا يسطع في الظلمة، والشرق رمزٌ ليوم المعرفة الحقيقية الذي يشرق مثل الشمس ويضيء على الذين دُفنوا في ظلام الجهل" (المتنوعات الكتاب ٨: ٨٥).

ويقول العلامة ترتليان عن المسيحيين: "الشرق هو رمز للمسيح، ولذلك فإن كنائسهم وصلواتهم تتجه إلى الشرق" (ضد فالنتان: ٣). ويقول ترتليان أيضاً: "إنهم يصلُّون ناحية الشرق، هذا ما جعل الوثنيين يرتابون في أنهم يعبدون الشمس وهي تشرق" (الدفاع: ٢٦).

والمؤلف المجهول للأسئلة والأجوبة الأرثوذكسية، وهو كتاب منسوب للشهيد يوستينوس، لكنه وُضع في القرن الرابع على أقصى تقدير، يقول عن الاتجاه للشرق: "نحن نختار بعض العلامات لتمجيد الله ومنها الشرق، وهو في رأينا أفضل اتجاه في الاتجاهات كلها، وكذلك نتَّجه إليه في أوقات الصلاة، وهذا لا يختلف عن ممارسة أخرى، وهي عندما نرشم باسم المسيح الذين يحتاجون للرشم باليد اليمنى؛ لأننا نعتقد أن اليد اليمين أفضل وأكرم من اليسرى، رغم أنه لا يوجد أي اختلافات بين الاثنين من ناحية الشكل أو الطبيعة" (يوستينوس، السؤال ١٠٨).

ولاكتانتيوس يقول: "إن الشرق يُنسب إلى الله أكثر من الاتجاهات الأخرى؛ لأن الله هو ينبوع النور والذي ينير كل شيء، وهو سيقيمنا إلى حياة النور أي الحياة الأبدية. أمَّا الغرب فإنه يُنسب إلى الشرير وروح الضلال؛ لأنه يختفي من النور وينشر الظلمة دائماً بين البشر لكي يسقطوا ويهلكوا في خطاياهم" (٢:١٠).

وتقول الإجابات القانونية المعروفة باسم الإجابات على أسئلة أنطيوخوس الإنطاكي، وهو كتاب وُضِع في الإسكندرية في نهاية القرن الرابع، ومنسوب للقديس أثناسيوس الرسولي، لكنه على ما يبدو لأحد الأساقفة من الوجه البحري: "إذا سأل مسيحي السؤال الآتي عن سبب الاتجاه إلى الشرق؛ فإننا نخبره بأننا نتجه إلى الشرق حيث يوجد الفردوس طالبين من الله أن يُرجعنا إلى وطننا القديم الذي طُردنا منه. أمَّا إذا سأل وثني هذا السؤال، فإن الإجابة تكون لأن الله هو النور الحقيقي، ولذلك السبب عندما نتطلع إلى النور المخلوق أي الشمس لا نعبدها هي، بل الخالق الذي خلقها. أمَّا إذا سأل السؤال يهوديٌ، فإننا نخبره الآتي: إننا نتجه للشرق لأن الروح القدس قال بفم داود: "نسجد في الموضع الذي استقرت فيه قدماك" (مز ١٣٢: ٧)، أي المكان الذي وُلد فيه المسيح وفيه عاش وصُلب وقام وصعد إلى السموات" (السؤال ٣٧).

وفي نفس المعنى قال القديس هيلاري: "رتلوا إلى الله الذي صعد إلى السموات من المشارق... إننا نكرم الله الذي صعد إلى سماء السموات من المشارق، ولذلك نصلي إلى الله متجهين للشرق؛ لأن الشرق حسب قول النبي هو النور الجديد أو الصباح المشرق من العلاء" (تفسير مز ٣٧، راجع المراسيم الرسولية ٢: ٥٧).

يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "بعد أن تجحدوا الشيطان، تحطمون تماماً كل عهد معه، وعلى الفور يُفتح لكم فردوس الله الذي غرسه شرقي عدن والذي منه طُرِدَ أبوانا الأولان" (تك ٢: ٨ – ٣: ٢٣ – تعليم الموعوظين ١: ٩).

النقطة الأساسية هنا هي الانتقال من الظلمة ومن الجحيم إلى الفردوس والنور (تعليم الموعوظين ١:٤ – مقدمة التعليم: ١٥).

ويقول أمبروسيوس نفس الشئ، ويضيف إن الاتجاه للشرق هو أن نرى المسيح وجهاً لوجه (الأسرار: ٧)، وهنا يعود أمبروسيوس إلى التسليم السائد عن المسيح الذي نراه في زكريا (زك ٦: ١٢) "اسمه الشرق".

الاتجاه للشرق والمعمودية:

إذا كنا نرجو الله في المعمودية أن ينير علينا وأن يشرق بنوره، فإن القديس غريغوريوس النيسي يقول: "كما لو كان آدم يحيا فينا في كل مرة نتجه فيها للشرق ليس لأننا نتأمل الله فقط، بل لأننا ننظر إلى وطننا الأول الفردوس الذي طُردنا منه والذي كان في الشرق، ولذلك السبب الحَسِن نقول مثل الابن الضال أغفر لنا خطايانا" (العظة الخامسة على الاتجاه ناحية الشرق).

يقول القديس باسيليوس: "إنه تقليد قديم غير مكتوب أن نتجه للشرق عندما نصلي، ولكننا أيضاً نتطلع إلى وطننا القديم الفردوس الذي غرسه الله في شرق عدن" (مقالة عن الروح القدس: ٢٧).

ويؤكد هذا الاتجاه كيرلس الأورشليمي: "عندما نجحد الشيطان، فإن فردوس الله يُفتح لنا، الفردوس الذي غرسه شرق عدن والذي منه طُرد أبونا الأولان بسبب عدم الطاعة، وهذا هو معنى التحول من الغرب إلى الشرق حيث النور" (مقالة ١٩: ٩).

ويقول القديس أمبروسيوس أسقف ميلان: "أنت تتحول إلى الشرق لأن الذي يجحد الشيطان يتحول إلى المسيح، وفي الشرق يراه وجهاً لوجه" (الأسرار: ٧).

الصلاة – المعمودية – جحد الشيطان، والتطلع إلى النور هي القوة الديناميكية وراء الاحتفاظ بهذه العادة، ففي كل مرة نحوِّل وجوهنا إلى الشرق، فنحن بدون شك نؤكِّد ما فعلناه في المعمودية، وهو جحد الشيطان والتطلع إلى جسد المسيح. وقد كان الشهداء يحاولون قدر طاقتهم أن يموتوا ووجههم إلى الشرق في انتظار إشراق نور الحياة الأبدية الذي لا ينطفئ (راجع استشهاد بربتوا ***Perpetua***). والقديسة ماكرينا ***Macrina*** أخت القديس باسيليوس قال هو عنها: "وفي ساعة انطلاقها كانت تُخاطب عريسها السماوي الذي لم تحول عينيها عنه، حتى سريرها كان من ناحية الشرق" (رسالة ٩٨ عن موت ماكرينا).

وكان المسيحيون الأوائل يضعون صليباً على الحائط الشرقي لتحديد مكان الاتجاه للصلاة، وقد ورد في سيرة الشهيدين هيبارخوس وفيلوتيوس -*Hipparchus Philotheus* "كان في منزل هيبارخوس حجرة مرتّبة وعلى حائطها الشرقي رسم صليب، ولذلك أمام علامة الصليب كان يحول وجهة ويصلي ناحية الشرق سبع مرات في اليوم" (أعمال الشهداء للسمعاني الجزء الثاني: ١٢٥ – راجع أيضاً أعمال الشهداء -*Xanthippe Polyxena* النص الإنجليزي من مجموعة ما قبل نيقية المجلد ١١:١٥).

وهكذا أكتسب الاتجاه للشرق معنى كبيراً عميقاً للحياة الروحية.

ثالثاً: العهد والالتصاق بالمسيح

لأن لغة الطقوس الأصلية قد تغيَّرت من اليونانية أو القبطية أو السريانية إلى العربية، فقد ضاعت كلمات كثيرة هامة كان لها اتصال مباشر بكلمات العهد الجديد نفسه وبالمناخ الروحي السائد في الكنيسة الجامعة.

كان جحد الشيطان يعتمد على كلمة يونانية تعني أصلاً الارتداد أو التخلي الكامل. فالموعوظ يقول Αποτασσομαι σοι Σατανα "أجحدك أيها الشيطان"، وهي كلمة تفيد أن كل رابطة بين الإنسان والشيطان قد انحلَّت. ولكن بالاعتراف بالإيمان كان الموعوظ يقول: "التصق بك"، والكلمة اليونانية هامة جداً لأنها تفتح لنا الطريق لفهم الإفخارستيا، فهي συνταξομαι مأخوذة من الفعل الثاني للانضمام إلى خدمة أو عبادة، ومنها جاءت كلمة *Syntaxis* المكونة من συν + ταξις أي خدمة، أو البقاء في الشركة. وهذه الكلمة بشكل خاص مأخوذ منها الاسم القديم للقداس، أي الاجتماع الذي يضمن المؤمنين معاً *Syntaxis* فالالتصاق بالمسيح الذي يبدأ في المعمودية يكمُل في القداس، أي في الإفخارستيا.

فالاعتراف بالإيمان يقود إلى المعمودية، والالتصاق بالمسيح في المعمودية يقود إلى الالتصاق الأبدي به في الإفخارستيا.

حسب شهادة المصادر القديمة منذ زمن الشهيد يوستينوس كان العهد أو الالتصاق معروفاً قبل التعميد؛ لأن يوستينوس يقول بوضوح: "إن الذين دخلوا الإيمان يعترفون قبل معموديتهم بالإيمان وينذرون أن يعيشوا حسب وصايا المسيح" (الدفاع الثاني: ٩٣). وهذا في الواقع يشرح لنا معنى الكلمات التي جاءت في الجحد عن خدمة الشيطان؛ لأن الالتصاق بالمسيح يعني التراجع التام عن خدمة الشيطان.

حسب شهادة الآباء، كان الالتصاق بالمسيح يتم ووجه الموعوظ متجه ناحية الشرق. يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "إن الموعوظ يتجه ناحية الشرق، ويقول أُؤمن بالآب والابن وبالروح القدس وبمعمودية واحدة ..." (تعليم الموعوظين ١: ٩). وقد أشار كيرلس في إشارة عابرة إلى كسر العهد مع الشيطان (عظة ١٩: ٩).

ويقول ذهبي الفم إن الأسقف يطلب من كل موعوظ بعد جحد الشيطان أن يقول: "أدخل إلى خدمتك συντυσσομαι أيها المسيح" (تعليم الموعوظين ٢: ٢٢). وقد أعاد ذهبي الفم نفس العبارة في مناسبة الكلام عن جحد الشيطان. (العظة السادسة على كولوسي ١: ٥).

وعموماً، الالتصاق بالمسيح معروف عند باقي الآباء، لاسيما باسيليوس (عظة ١٣ على المعمودية، والمراسيم الرسولية ك ٢: ف ٥٤ – وجيروم تفسير موسى ٦: ١٤) يقول: "إنه عهدٌ مع شمس البر ووعدٌ بالطاعة للمسيح".

أمَّا عن رفع اليدين عند الجحد والإقرار بالإيمان، فهو مرتبط أصلاً بالصلاة. وأقدم إشارة واضحة جاءت عن أكليمنضس السكندري، ثم العلامة ترتليان والعلامة أوريجينوس، وهو مأخوذ أصلاً عن العهد القديم، وسوف ندرسه في الدراسة الخاصة بالطقس القبطي.

رابعاً: الدَّهن بعد الجحد

كان الموعوظ يخلع ثيابه قبل جحد الشيطان، وكان للخلع معنى روحياً، وكان أيضاً تمهيداً للدهن بعد ذلك. يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "عندما تدخل إلى مكان المعمودية وتخلع ثيابك، فهذا مثال لخلع الإنسان العتيق مع كل أعماله، (كو ٣: ٩)، وعندما تخلع ثيابك فإنك تتعرّى تماماً، وفي هذا تشبيه بالمسيح الذي تعرَّى تماماً على الصليب وبعُريه قضى على الرؤساء والقوات وجهراً ظفر بهم على الخشبة (كو ٢: ١٥)، لأنه حيث أن القوات المضادة جعلت مسكنها في أعضاءكم، فعليكم أن لا ترتدوا من جديد هذا الرداء، وأنا لا أعني الرداء الذي خلعتموه، بل الإنسان العتيق الذي يفسد حسب شهوات الغرور (أف ٤: ٢٢). يا ليت النفس التي خلعته لا تعود ترتديه مرةً أخرى، بل تقول مع عروس المسيح في نشيد الأناشيد: "لقد خلعت ثيابي فكيف أرتديها" (نشيد ٥: ٣). ما أعجب هذا، أنتم عرايا أمام الجميع ولكنكم لا تخجلون لأنكم تتشبهون بالإنسان الأول آدم الذي كان عارياً في الفردوس وهو لا يخجل. وبعدما تخلعون ثيابكم تُدهَنون بزيت طرد الشياطين من شعور رؤوسكم إلى أخمص أقدامكم لكي تصبحوا مشتركين في شجرة الزيتون الصالحة يسوع المسيح. لأنكم قطعتم من شجرة الزيتون البرية (رو ١١: ١٧)، وغُرستم في الشجرة الصالحة لكي تنالوا من دسم شجرة الزيتون، فزيت الجحد إذاً هو مثالٌ لاشتراككم في دسم المسيح، وهو قوة تطرد تماماً كل بقايا القوات المضادة. لأنه كما أن نفخ القديسين ودعاء اسم الله هو مثل اللهيب الشديد يحرق ويطرد كل الأرواح الشريرة، هكذا أيضاً زيت الجحد يأخذ مثل هذه الفاعلية باستدعاء الله والصلاة لا لكي يحرق وينفي كل آثار الخطية، بل لكي يطرد بعيداً كل القوات غير المنظورة للشرير (تعليم الموعوظين ٢٠: ١ – ٣).

وكيرلس الأورشليمي ليس أقدم مصدر للإشارة إلى الدَّهن بعد جحد الشيطان، ولكنه أوضح مصدر. فقد أشارت إليه قوانين الرسل (قانون ٣٧، ١٩).

وقد ذكر التقليد الرسولي الدَّهن بعد الجحد على هذا النحو: "والذي يعمدونه يحول وجهه إلى الغرب ويقول هكذا: إني أجحدك يا إبليس وكل خدمتك. فإذا قال هذا يدهنه القسيس بدُهن الاستحلاف الذي صلى عليه لكي يزول عنه كل روح خبيث".

وفي النص الأثيوبي للتقليد الرسولي ذكرت ذات الصيغة التي ذكرها القديس كيرلس الأورشليمي عن الغرس في الزيتونة الصالحة الجيدة. فما هو مؤكد هنا، ليس فقط خلع الثياب، بل التعري تماماً من الحياة القديمة، وإنكار كل صلة بالشيطان، لكي تتحول الحياة إلى المسيح. لكن الدَّهن هنا يؤكد معنى العهد والقطع من الشجرة البرية القديمة الثمر، لكي يُغرس في الشجرة الدَّسمة، أي الكنيسة الجامعة. ولعل زيت الزيتون نفسه الذي يُستخدم في الدهن هو بدوره يؤكد حقيقة التحول الداخلي الذي يتم في الذين جحدوا الشيطان وقبلوا المسيح.

وشهادة ذهبي الفم ذات قيمة، فهو يؤكد أن الدَّهن بعد الجحد يتم بعلامة الصليب وبزيت عطر روحي، لأنه بهذه المسحة تختمون بالصليب (تعليم الموعوظين ٢: ٢٢). ومن ذهبي الفم نعرف أيضاً أن الصيغة التي كانت تستعمل هي "يُدهن (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس" (المرجع السابق). وتظهر نفس الصيغة عند ثيؤدور (عظة ٢ على المعمودية: ١٧ طبعة *Mingana* ص ٤٦).

وقد انفرد ثيؤدور بالإشارة إلى أن الموعوظ بعد الدهن كان يُغطى بغطاء على رأسه، وكانت هذه مسئولية العرَّاب أو الإشبين[١].

---

(١) أشار كتاب رئاسة الكهنوت لديونيسيوس الأريوباغي كتاب (١٨:١) إلى الدهن بعد الجحد وأضاف إلى ما ذكره كيرلس عنصراً هاماً وهو الصراع والانتصار على الشياطين قبل الاعتراف بالإيمان بالمسيح.

وقد ذكر ديونيسيوس في كتاب رئاسة الكهنوت أن جحد الشيطان "أجحدك أجحدك أجحدك" كان يكرر ثلاث مرات (١٨:٢) وهذه الإشارة إلى الجحد ثلاث مرات معروفة في الطقس القبطي. غير أن أمبروسيوس وحده من بين آباء الكنيسة الجامعة هو الذي أشار إلى الاعتراف بالإيمان ثلاث مرات. وقال إنها على مثال إجابات بطرس الثلاث: "أنت تعلم يا رب أني أحبك" لأننا في خدمة المعمودية نسأل ثلاث مرات ونجيب ثلاث مرات ولا تتم المعمودية ولا يعمد أحد ما لم يُجِب ثلاث مرات (عن الروح القدس ١١:٢) وكما سنرى في دراستنا للطقس القبطي ستظهر هذه العناصر المعروفة لآباء الإسكندرية.

الفصل العاشر

المعاني اللاهوتية للطقوس
التي تسبق التغطيس

أولاً: حركات الجسد:

أظهرت الدراسة السابقة أن الموعوظ يتلقى التعليم الذي ينتهي بصلاة وضع اليد ويجحد الشيطان. وكما نعلم، فإن وضع اليد كان يُمارَس بوضع اليد على الرأس. تحتل الرأس مكانة بارزة في الطقوس الكنسية، فهي أول جزء من الجسد يُرشم بدهن أو مسحة الموعوظين، ثم بعد ذلك بالميرون، وعليه توضع أكاليل الزيجة، ووضع اليد للشرطونية (الرسامة). ومن المؤكد أن الاهتمام غير العادي بهذا الجزء من الجسد في طقوس الكنيسة هو اهتمام له الأساس العقيدي التالي:

أ- الرأس

الرأس هو العضو المنظور الذي يُعبر عن الفكر، والسيادة، والأصل. هذه المعاني نراها تحت كلمة رأس في العهدين. وعن الفكر يقول أيوب: "وإن تبررت لا أرفع رأسي" (أي ١٠: ١٥)، أي لا يستطيع فكري أن يجادل. أمَّا عن السيادة فقد قيل: " يجعلك الرب رأساً لا ذنباً" (تث ١٨: ١٣). وعن الأصل فقد قيل أيضاً إن الرجل رأس المرأة (أف ٥: ٢٣). وهناك نصوص أخرى كثيرة لا مجال لها هنا، معروفة للذين يدرسون الكتاب المقدس. ولكن بشكل خاص، المسيحُ هو رأس الكنيسة، وهذا أحد الألقاب التي تشرح علاقة

المسيح الرأس بالكنيسة الأعضاء. ولذلك فإن وضع اليد والدهن بزيت الموعوظين وإحناء الرأس يعني الدخول في طاعة المسيح، وأن الإنسان لا يصبح رأساً، وإنما عضواً في الكنيسة جسد المسيح. وما غاية التعليم بوضع اليد على الرأس سوى أن يظهر هذا في النهاية في الطقوس الخاصة بالأسرار الأخرى بعد ذلك، لكي يستقر في النفس وفي الفكر أن المعمودية بطقوسها هي المدخل لجميع الأسرار الكنسية.

وإن كانت المعمودية تصل إلى غايتها بالتغطيس، إلَّا أن طقوس ما قبل التغطيس وما بعده تلازمنا في حياتنا، تأكيداً لفاعلية المعمودية، وتأكيداً لعلاقة المعمودية بغيرها من الأسرار الكنسية، وبعلاقتنا بالله من كل نواحيها من صلاة وصوم، وبكل جانب من جوانب حياتنا على هذه الأرض.

ب– اليدين:

واليد رمز للإرادة والعمل (خر ٢١: ٢٤)، ولذلك قيل: "إن العامل بيد رخوة يفتقر" (أم ١٠: ٢٤). وتأكيداً على أن خلق الكنيسة هو عمل إلهي لا دخل للإرادة الإنسانية فيه، قبل إنها غير مصنوعة بيد إنسانية (٢كو ٥: ١ – عب ٩: ١١).

ورفعُ اليدين للطلبة بعد التعلم، وفي جحد الشيطان هو بداية تعليم الموعوظ الصلاة، وبداية التعبير عن طلب الإرادة الإنسانية طاعة الوصية. وتظهر اليد كتعبير عن الانضمام للمسيح في جحد الشيطان وفي الاعتراف به عند الاتجاه ناحية الشرق. وهذا العضو من الجسد هو الذي يظهر بعد ذلك من كل الطقوس الكنسية، وبشكل خاص، في القداس.

والصلاة التي يُعبِّر عنها رفع اليد تبدأ في المعمودية، فبدون ختم التبني الذي يُوهب في المعمودية، لا تستطيع النفس أن تقترب من الله ولا أن تصلي. وكما لاحظنا من قبل أن آخر ما يتعلمه الموعوظ في الأسبوع الأخير من الصوم أي أسبوع الآلام، هو

الصلاة الربانية وقانون الإيمان، وكلاهما يُقال برفع اليدين كما استلمه الموعوظ، ويظل ما تعمد على أساس هو القوة الدافعة التي بها يحيا في الكنيسة. وتُستخدم اليدان أيضاً في القُبلة الرسولية التي تُعطى في القداس.

ومن الملاحظ أن أقدم القوانين وهي قوانين الرسل منعت الموعوظين من الاشتراك في القُبلة واعتبرت أن قُبلتهم غير طاهرة؛ لأنهم لم يتقدسوا بالروح القدس. ومن الضروري أن نلاحظ هنا العلاقة الكيانية بين الصلاة والمصالحة، فاليدان اللتان تُرفعان للإقرار بالإيمان هما بذاتهما ترفعان للإقرار بالمصالحة؛ لأن الذي آمن بالمسيح الذي صالح الكل بالصليب، واعتمد على هذا الأساس لا يمكنه مطلقاً أن يرفض المصالحة، أو أن يتصرف ضدها إن كان قد لبس الصليب في المعمودية.

ج- التحول من الغرب إلى الشرق:

التحول هنا يأخذ بشكل واضح حركة الجسم التي حشد لها الآباء قصة لوط (تك ١٩: ١٥ - ٢٦). وقول الرب: "من يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء لا يصلح لملكوت السموات" (لو ٩: ٦٣).

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي في تعليقه على قصة امرأة لوط: "أهرب بحياتك إلى الجبل، أي إلى يسوع". هذا الهروب من أباطيل العالم ومن التشبُّه بالهالكين يظهر بوضوح في الاتجاه دائماً ناحية الشرق، وهو الاتجاه الذي يتوجَّه إليه المؤمنون في كل صلواتهم، كتعبير عن التحول الدائم من عبودية الخطية إلى حرية أولاد الله.

ولقد شرحنا أهمية الاتجاه نحو الشرق في الفصول السابقة. ويهمنا الآن أن نرى أن ما حدث في المعمودية، يستمر طقسياً في الأسرار الأخرى، أي في الاتجاه الدائم إلى الشرق لقبول المسيح.

د- السجود:

من المؤكد حسب التقليد الرسولي وشهادات الآباء، وبشكل خاص ذهبي الفم، أن السجود كان يتم بالركوع التام أثناء التعليم، ثم أثناء الصلوات الخاصة التي تسبق التعميد، حيث يشكل الركوع عنصراً أساسياً. ومن الواضح أن الركوع أثناء قراءة الإنجيل قد ترك بصمةً واضحةً على خاتمة قراءة أناجيل البصخة في الكنيسة القبطية حيث ينتهي كل إنجيل بالعبارة الآتية: "أسجدوا للإنجيل المقدس". بينما لا تسجد الكنيسة عند خاتمة الإنجيل في غير أيام البصخة، حيث أن الخاتمة هي "المجد لله دائماً".

والسجود أثناء قراءة الإنجيل وبعده كما يشرحه ذهبي الفم هو خضوعٌ دائم: "إن العادات المقدسة تلزمكم بأن تركعوا على ركبكم معترفين بسيادة الله لأن انحناء الركبة هو اعترافٌ بالعبودية. واسمعوا ما يقوله القديس بولس "لكي تجثو كل ركبة في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض" (المجموعة الأولى من تعليم الموعوظين ٢: ١٤).

ويلاحَظ أن هذا الوضع بالذات لا يتكرر إلَّا في مناسبات معينة. فالركوع على الركبتين لا يحدث في الطقوس الأخرى إلَّا في حدود ضيقة مثل أثناء استدعاء الروح القدس، والسجود في القداس لجسد الرب ودمه، والسجود الكامل أثناء الرسامة. وبالطبع كما سنرى، فإن الركوع على الركبتين الذي بدأ في طقس المعمودية لا سيما أثناء كلمة التعليم، تعود إليه الكنيسة في أسبوع الآلام حيث يشترك الشعب مع الموعوظين في السجود لكلمة الله أي الإنجيل المقدس، وهو سجود فيه اعتراف بإلوهية الابن، وتأكيد على أن الإنسان لا يستطيع أن يقبل كلمة الإنجيل إلَّا بتذكُّر ما كان عليه قبل المعمودية، أي في حالة السقوط. بينما يتقبل كلمة الإنجيل وقوفاً لكي يُعبِّر عن قيامه من السقوط بقيامة المسيح لا سيما في أيام الآحاد والخماسين.

ثانياً: الرموز الخاصة بالمياه عند الآباء وارتباطها بالشرح اللاهوتي والطقسي للمعمودية:

إذا كان الاتجاه للشرق معناه طلب النور والسعي لحصول الولادة الجديدة والحياة الجديدة، فإن إشراق نور اليوم الأول وهو أول أيام الخليقة وأول أيام الأسبوع حيث قام الرب، خَلَقَ عدة تعبيرات هامة في الكتاب المقدس، وبالذات "الولادة الجديدة من الماء والروح". وفي حديث المسيح مع نيقوديموس (يو ٣: ٣ - ٥) ذكر الرب صراحةً أن الولادة الجديدة هي من الماء والروح. وأياً كانت التفسيرات التي سمعناها عن الماء والروح، فإن أي إنسان لا يمكنه أن ينكر أن المسيح يشير بكل وضوح إلى نص التكوين "روح الله يرف على وجه المياه" (تك ١: ٢)، فقد استقر حتى في التقاليد اليهودية قبل المسيح أن روح الله هو الروح القدس.

ومما لا شك فيه أن المسيح يتحدث عن الولادة الجديدة ليس من بطن الأم كما فهم نيقوديموس، بل من الله، من الروح ومن الماء، أي في المعمودية. وحتى عندما يصف الرسول بطرس ميلادنا جديد لا من الذي يفني بل مما لا يفني بكلمة الله الحياة الباقية إلى الأبد (١ بط ١: ٢٣ - ٢٥)، فإن الإشارةَ هنا إلى سفر التكوين واضحة، ذلك أن الولادة الثانية هي خلقٌ جديد، وكما حدث الخلق في أيام الخليقة الستة بكلمة الله، فهو يحدث مرةً ثانية في المسيح يسوع رأس وأصل وبداية الخليقة الجديدة (كو ٢: ١٠ – راجع أيضاً غلاطية ٦: ٥). ولاحظ أيضاً أن الارتباط الواضح بين الميلاد الثاني والميلاد الجديد في كل من (١بط ١: ٢٣ - ٢٥، يو ٣: ٣ - ٥ تشرحه كلمات تيطس ٣: ٥)، حيث يقول الرسول صراحةً: "بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل[1] الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا". ومن الواضح جداً أن الإشارة إلى الغسل، وارتباط هذا الغسل

([1]) لاحظ كيف يصف الرسول بولس معموديته عندما سجل كلمات حنانيا "قم واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب" (أعمال ٢٢:١٦ وراجع كورنثوس الأولى ٦:١١).

بالميلاد الثاني هو حديث صريح وإعلان مباشر عن المعمودية. ولذلك علينا أن لا نخطئ في فهم هذه النصوص الثلاثة الفريدة في كل العهد الجديد: الميلاد الثاني من الماء والروح – الميلاد الثاني بالكلمة – غسل الميلاد الثاني للخلاص وتجديد الروح القدس.

وأي قارئ للكتاب المقدس لا يملك إلَّا أن يعود إلى سفر التكوين حيث الماء والروح والكلمة الخالقة، ولعل ما يُعضِّد هذا التفسير ما يذكره الرسول يعقوب عن العطية الصالحة النازلة من "أبي الأنوار الذي شاء فوُلدنا بكلمة الحق لكي نكون باكورة خلائقه" (يع ١: ١٧ – ١٨). وقد مهَّد الأنبياء لهذا الإعلان، وبالذات حزقيال، في فقرتين في غاية الأهمية: "وأعطيهم قلباً واحداً، وأجعل روحاً جديداً في داخلكم وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم ... وأرش عليكم ماءً طاهراً فتطهرون من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أطهركم وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم وأنزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيكم قلب لحم وأجعل روحي في داخلكم ... " (حز ١١: ١٩، ٣٦: ٢٥ – ٢٧). ومن الواضح أن هذه النصوص النبوية هي جذر الإعلانات الجديدة في العهد الجديد، وبالذات الإشارة إلى الروح الجديد أي روح الله، وهو ما أشار إليه الرسول بولس "تجديد الروح القدس". والحديث عن الخلق الجديد في الكتاب المقدس مرتبط دائماً بالروح القدس وبكلمة الله "بكلمة الرب خلقت السموات وبنسمة فيه كل جنودها" (مز ٣٣: ٦، راجع حكمة بن سيراخ ٩: ١).

والخلق بالكلمة كما هو واضح في سفر التكوين يعني انعدام الواسطة بين الله والعالم، ويعني أيضاً أن العالم كله جاء من العدم وليس صدوراً من الذات الإلهية. وأن الإنسان مثل كل الكائنات، خُلِقَ من التراب بكلمة، لكن هناك إشارة هامة إلى إعطاء الروح القدس أو نسمة الحياة وهي عطية خاصة للإنسان (راجع تكوين ٢: ٧)، وللملائكة أيضا "ونسمة فيه كل جنودها" (مز ٣٣: ٦). وقد استخدم مزمور ١٠٤: ٢٩، ٣٠ تشبيهاً بليغاً جداً لاعتماد الخليقة على الله، ذلك أن الخليقة مثل الأغنية التي إذا كف المغنّي عن

الترتيل أي كف صوته، ماتت هذه الأغنية وانتهت "تحجب وجهك فترتاع وتنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود. ترسل روحك فيخلقون وتجدد وجه الأرض".

ومن هنا يتضح لنا لماذا ارتبط الخلق بالكلمة والروح القدس، ذلك أن كليهما ساهما في تكوين الإنسان: الكلمة الخالقة في خلق الكيان الطبيعي، والروح القدس في عطية ما فوق الطبيعة في المثال أو الصورة أو نسمة الحياة. وسوف ندرس هذه النقطة باستفاضة أكثر عند القديس كيرلس السكندري، وفي تقليد مدرسة الإسكندرية منذ أكليمنضس.

ولذلك كان من الحتمي أن يستخدم العهد الجديد ذات المصطلحات التي استخدمها العهد القديم في الحديث عن الخلق الأول؛ لأن الخلق الثاني أو الجديد هو تجديد للخلق الأول ... وهذا ما نراه بوضوح عند الآباء.

١- الآباء والخلق الجديد:

عندما كتب ترتليان مقالته عن المعمودية حوالي سنة ٢٢٠ رأى أنه من الضروري أن يشرح تاريخ المعمودية ووضعها في تاريخ الخلاص، ولذلك بدأ من سفر التكوين. وترتليان هنا لا يُعبِّر عن رأيه الشخصي، وإنما يُسجِّل لنا كيف فهمت الكنيسة الخلق الجديد والميلاد الثاني، وعلى الرغم من أن ترتليان يتكلم عن استخدام المياه في المعمودية وأهميتها إلَّا أنه يؤكد أن المياه مرتبطة بالخلق الجديد، أي أنه لولا الخلق لما استعملت الكنيسة المياه في المعمودية، فنحن نعود إلى اليوم الأول: "إن استخدام المياه يجب أن نفحص عنه، والنصوص الخاصة به كثيرة بل هي منذ البدء، والمياه كانت إحدى العناصر الموجودة قبل ترتيب العالم، وكانت في حالة خمود قبلما صوّر الله كل شيء. ولذلك ففي البدء الأول يقول الكتاب: "خلق الله السموات والأرض ولكن الأرض لم تكن مرئية بعد، أي لم يكن لها شكل ثابت وكانت الظُلمة على وجه الغمر وروح الرب يرف على

وجه المياه" (تك ١: ١ - ٢). ولعل أول ما يجب أن تكرِّمه أيها الإنسان هو عنصر المياه، فهي أقدم عناصر الكون، وثاني شيء هو المقام الشريف للمياه لأنها كانت عرش الروح الإلهي، وهذا يعني أن الروح سُرّ بالمياه أكثر من العناصر الأخرى. وهذا يظهر من الواقع نفسه؛ لأن الظلمة كانت شاملة ولم يكن لأي شيء شكل أو صورة: السماء بدون النجوم، والغمر مظلم، والأرض خربة، والسماء لم تُصنع، في كل ذلك كانت المياه وحدها ودائماً هي العنصر الكامل المفرح والبسيط النقي الذي قدَّم أداةً مستحقة للروح القدس".

ويستطرد ترتليان فيقول: "وفي الحقيقة ألم تكن المياه هي التي نظَّمت خلق العالم كما رتَّبه الله؟ لأن ارتفاع الجلد في الوسط تمَّ عندما انفصلت المياه. وظهور الأرض اليابسة حدث عندما فُصلت المياه، وعندما تم تنظيم الكون وكل عناصره وأُعِدَّ لاستقبال المخلوقات، كانت المياه هي أول عنصر تقبَّل الأمر أن يخرج كائنات حية، وبذلك كانت المياه أول من أخرج كائنات لها حياة، وهذا لا يدهشنا بالمرة إذا كانت المياه في المعمودية تعرف كيف تعطي الحياة. ألم تكن المياه عنصراً مساعداً في خلق الإنسان؟

هناك عناصر أخرى مناسبة للخلق، ولكن كل هذه العناصر تحتاج إلى المياه لكي تتحول إلى طين. ولست أريد أن أسترسل في جمع أدلة لكي أُبيِّن عظمة المياه وقوتها ونعمتها وفوائدها وعملها في الطبيعة وكيف تفيدنا في كل ما يخص الكون، فإنني أخشى لئلا أكون قد جمعت أدلة لتسبيح المياه بدلاً من أن أكتب عن أسباب المعمودية، ولكن يكفي أن أنبه إلى العنصر الأساسي في المعمودية وهو المياه، ومثال المعمودية قد ظهر منذ البدء عندما كان روح الله يرف على وجه المياه وهو نفسه سوف يستمر في بقاءه على مياه الذين يعتمدون. وبالطبع إن المقدِّس يرف فوق المقدَّس... وكل المياه بعد استدعاء الله تحصل على القوة السرية الفعالة للتقديس لأنه في الاستدعاء يحل الروح من السماء فوراً ويستقر على المياه ويقدِّسهم لنفسه (للروح) وعندما تتقدس المياه يصبح لديها قوة

للتقديس، فالخطايا لا تظهر كلطخة في أجسادنا ولا يحمل أحدٌ بقعةً ظاهرةً في جلده من بقايا العبادة الوثنية أو الزنى أو الغش؛ لأن الخطاة مدنَّسون في الروح التي هي مصدر الخطية، فالروح هي السيد والجسد هو الخادم، ولكن كليهما يشتركان في الذنب؛ لأن الروح تأمر والجسد يطيع. ولذلك، بعد أن يحل في المياه العنصر الشافي بصلوات الأسقف وحلول الروح القدس، تغتسل روح الذي سيعتمد في المياه، والجسد أيضاً روحياً يتطهر" (مقالة عن المعمودية ٣ – ٤).

والقيمة اللاهوتية للنص لا تقل عن القيمة التاريخية، ذلك أن ترتليان هو أول من توسَّع في شرح تقديس المياه. وهو كان أصلاً يرد على تعليم الغنوسية بأن المادة شريرة وبالتالي لا يجوز أن تدخل في الأسرار، ولكن ترتليان لا يؤكد قداسة المادة فقط كعرش للروح الإلهي منذ بداية الخليقة، بل يؤكد حلول الروح على المياه واستمرار بقائه يرف عليها لكي يمنح المادة أو المياه قوة فعالة للتقديس.

ولقد وضع ترتليان مبدأً هاماً وهو أن الإنسان مكون من روح وجسد، ولذلك فإن ميلاده الجديد يتم بالروح القدس عندما يغتسل الإنسان في مياه المعمودية، وهذا المبدأ في غاية الأهمية؛ لأنه يرتكز أصلاً على رواية خلق الإنسان في سفر التكوين حينما جبل الرب الإله آدم من تراب، ثم وهبه الروح الإلهي بعد ذلك (تكوين ٢: ٧). ولما كان الموت قد شمل الروح والجسد بسبب تلك الوحدة القائمة بينهما، فإن إعادة خلق الإنسان أي ميلاده الجديد في المعمودية يجب أن يشمل النفس والجسد.

وتقع قصة خلق الإنسان في (تكوين ٢: ٧) في مركز دائرة المعمودية، وهي كما رأينا كامنة خلف قول المسيح لنيقوديموس: "إن لم تُولد من فوق"، ولما لم يفهم نيقوديموس الميلاد الروحي وهو قد أدرك أنه يعني إعادة الحياة سأل الرب: "كيف يمكن أن أدخل بطن أمي وأنا شيخ؟". هنا أعلن له المسيح عن السر. إنه سر الخلق الجديد في المعمودية من الماء والروح. وثنائية الإنسان أو كون الإنسان كائناً مُركباً من عنصرين هو

أحد القواعد اللاهوتية التي يرتكز عليها تقديس الماء في الطقس، ذلك أن الماء الذي يتقدس بعمل الروح القدس هو ماء الخلق والتكوين.

ولكن الآباء يحذِّروننا عندما يقولون: "ليس الماء هو الذي يعطي الصبغة"، ولو صحَّ هذا لكان الماء أعظم ما في الخليقة، وإنما أمرُ الرب وافتقاد الروح القدس الذي يعمل في السر لتحريرنا. الماء يخدم كوسيلة تعبير عن التطهير؛ لأنه عندما تتسخ أجسادنا بالقذارة أو الطين نغسلها بالمياه، هكذا في السر يُعلِن الماء، وهو مادة محسوسة عن التطهير الروحي، ولذلك عندما نبحث بدقة عن المعمودية بادئين من النبع الأصلي أي إعلانات الأسفار، فإننا نجد "إن لم يولد إنسان من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو ٣: ٣).

لماذا سُمي الماء والروح معاً؟ ولماذا لا يكفي الروح لكي يكمل المعمودية؟

الإنسان – كما نعرفه جيداً – مُركب وليس بسيطاً. ولذلك فإن الدواء أيضاً يجب أن يكون مُركباً وليس بسيطاً لكي يشفي الطبيعة البشرية شفاءً كاملاً، ولذلك فإن جسده المنظور يغتسل بالماء أي بالعنصر المنظور، أما نفسه التي لا نستطيع رؤيتها فإن الروح القدس غير المنظور عندما ندعوه بالإيمان يطهِّر النفس (القديس غريغوريوس النيسي عن معمودية المسيح).

وفي المقال الأول لتعليم الموعوظين للقديس يوحنا ذهبي الفم حيث يشرح أسماء المعمودية، فإنه يقول: إنها غسل الميلاد الثاني، ويقتبس تيطس ٣: ٥، ثم يقول: "قوة هذا الحميم تغسل وتطهِّر من كل خطيئة، ولنسمع القول الآتي حيث يقول بولس: "ولكن كان أناس منكم (عبدة أوثان زناة) لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا" (المقال الأول: ٣).

وعندما يمضي ذهبي الفم في شرحه لأسماء المعمودية فإنه يسأل: "لماذا يُدعى هذا الحميم حميم الميلاد الثاني وليس حميم مغفرة الخطايا؟ والسبب هو أن المعمودية لا

تغفر الخطايا فقط، ولا تطهِّرنا فقط من أخطائنا، ولكنها تفعل كل هذا كما لو كنا قد وُلدنا من جديد؛ لأنها تخلقنا من جديد وتجددنا ليس من الأرض، بل من السماء. هذا الحميم لا يطهِّرنا فقط كما لو كان غسلاً لآنيةٍ، بل إنه إعادة تكوين للإناء؛ لأن الآنية التي تُغسل جيداً وتُنظف تظل تحمل علامات القذارة والأوساخ، ولكن متى طُرحت في البوتقة وفي النار، فإنها تتجدد تماماً وتنزع النار منها كل القذارة التي لحقت بها حتى أنها تخرج من البوتقة آنية جديدة ليست كتلك التي وُضعت في النار. وكذلك عندما يأخذ إنسان تمثالاً ذهبياً اتَّسخ عبر السنوات بالدخان والقذارة والصدأ ويضعه في النار لكي يصيغه من جديد، فإنه يخرج من النار ويعود إلينا نظيفاً جداً ويلمع. هكذا الله يأخذ طبيعتنا هذه التي صدأت بالخطيئة والتي غطتها خطايانا بسواد من الصدأ والغبار حتى أن خطايانا دمَّرت جمال الطبيعة الإنسانية، الله يعيدها إلى ما كانت عليه في البدء ويصيغها من جديد. ولذلك يغطِّسها في الماء كما لو كان يصهرها من جديد وتحل عليها نعمة الروح القدس كما لو كانت لهيب الفرن" (المقالة الأولى: ٣).

وعندما يفسِّر القديس يوحنا الإصحاح الثالث من إنجيل يوحنا، وبالذات ٣: ٣، فإنه يؤكد على الخلقتين: الأولى التي بدأت بآدم، والثانية التي بدأت بالمسيح يسوع "لقد سقط نيقوديموس في خطئين: الأول عندما أساء فهم كلمات المسيح، والثاني عندما قال إنه مستحيل على إنسان شيخ أن يولد من جديد. ولذلك شرح المسيح بوضوح أكثر طريقة هذا الميلاد... ولقد جعل الله الأمور الضرورية للملكوت سهلةً جداً: الميلاد الجسدي حسب الجسد من الأرض، أمَّا الميلاد الروحي السمائي فإنه مختلف تماماً عنه. ولكي يؤكد المسيح أنه لا يعني الميلاد الجسدي قال: إن لم يولد الإنسان مرةً ثانيةً من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت السموات... والمسيح يعني بهذه الكلمات أنه يقدم ميلاداً آخر إلى العالم. أنا أريد (أي المسيح) أن يولد البشر بطريقة أخرى، وأنا جئت بطريقة جديدة للتناسل الروحي. لقد خلقت الإنسان من التراب والماء وما خلقته

لم يُعد صالحاً، بل إن الآنية تدنَّست، ولذلك لا أريد أن أخلق الإنسان من التراب والماء، بل من الماء والروح. وكما أن الماء الذي لا روح له ولا قوة له قد أُعطي بإرادة الله القوة لكي ينمي الأشياء، هكذا أيضاً عندما يحل الروح القدس على المياه، فإن العجائب المدهشة تحدث وهي أمور تفوق إدراك عقل الإنسان ...

لكن لماذا تُعد المياه ضرورية للمعمودية؟ هذا بدوره يقودنا إلى سؤال آخر: لماذا كان التراب ضرورياً لخلق الإنسان؟ ... على أية حال، إن الدور الذي تقوم به المياه ضروري ولا يمكن أن يُستَخدم بدل الماء شيءٌ آخر، وهذا نتحقق منه من الحادث الآتي: عندما حلَّ الروح القدس قبل التعميد، فإن الرسول لم يكتفِ بحلول الروح لأن المياه ضرورية وليست شيئاً زائداً. فماذا قال: "هل يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما قبلناه نحن أيضاً" (أع ١٠: ٤٧). فما هو دور المياه؟ هذا ما سوف أشرحه لكم لكي أبيِّن لكم السر المخفي. إن الطقس على وجه اليقين يعطينا دروساً عجيبة، ومن هذه الدروس الكثيرة سوف أتحدث عن واحد منها فقط.

وما هو هذا الدرس؟ في المياه يتم العهد الإلهي الدفن والموت والقيامة والحياة. كل هذه تحدث مرةً واحدةً عندما تغطس رؤوسنا تحت المياه كما لو كنا في قبر، فإن الإنسان العتيق يُدفن، وعندما نغطس بالكامل كما لو كان الإنسان العتيق قد غرق، وعندما نصعد من المياه فإن الإنسان الجديد يُبعث للحياة... هذا يتم ثلاث مرات لكي تعلموا أن هذا يتم بقوة الآب والابن والروح القدس" (عظة ٢٥ على يوحنا).

ولا يحتاج كلام ذهبي الفم للتعليق، إنه يصف الميلاد الثاني والخلق الجديد في وضوح بالقدر الذي يمكن أن تقدمه الكلمات البشرية.

ولكي ندعم ما ذكرناه يلزمنا أن نورد شهادة القديس غريغوريوس النزيانزي، يقول: "لأننا من طبيعتين، أعني الجسد والنفس، الأول منظور والثاني غير منظور، لذلك التطهير هو أيضاً مُركبٌ من الماء والروح، التطهير المنظور من الماء للجسد، والثاني

المصاحِب له غير منظور ولا يخص الجسد، الأول ظاهر والثاني حقيقي ويطهِّر الأعماق" (عظة ٤١ على المعمودية).

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي للموعوظين: "لا تنظروا إلى الحميم كأنه مياه فقط، بل تطلعوا إلى النعمة الروحية التي في الماء... لأن المياه البسيطة بعد استدعاء الروح القدس والمسيح والآب، تحصل على قوة جديدة للتقديس. فإن الإنسان من طبيعة مُركَّبة، أي النفس والجسد. فإن هذا التطهير مُركبٌ؛ لأن غير المحسوس لغير المحسوس والمادي للمادي. المياه تطهِّر الجسد والروح يهتم بالنفس لكي نقترب من الله وقد رُشَّت قلوبنا بالروح واغتسلت أجسادنا بماء نقي (عب ٩: ١٩)، وعندما تنزل إلى المياه، لا تفكر في المياه وحدها، بل أطلب الخلاص بقوة الروح القدس، لأنك بدونهما معاً – الماء والروح – لا يمكنك أن تكمُل. ولست أنا الذي أقول هذا، بل الرب يسوع المسيح الذي له السلطان على كل هذا؛ لأنه قال إذا لم يولد إنسانٌ مرةً ثانيةً – وهنا أضاف الكلمات: من الماء والروح – لا يقدر أن يدخل ملكوت الله، ولذلك الذي اعتمد بالماء ولا يوجد مستحقاً للروح لا يأخذ نعمة الكمال، مثل الإنسان الذي له أعمال فاضلة، إذا لم يقبل الختم بالماء لا يقدر أن يدخل ملكوت السموات... (والمثال على ذلك كرنيليوس)، فالنفس تُولد مرةً ثانيةً بالإيمان، أمَّا الجسد فهو يشترك في النعمة بالماء" (عظة ٣: ٤).

٢– الطوفان:

كان الطوفان الوسيلة لتدمير العالم العاصي البعيد عن الله (راجع تكوين ٥: ٧). وقد أشار العهد الجديد إلى الطوفان في حديثه عن المعمودية في رسالة بطرس الأولى: "المسيح تألم مرةً واحدةً من أجل الخطايا، البار من أجل الأثمة لكي يقرِّبنا لله مماتاً في الجسد ولكن محيىً في الروح الذي فيه ذهب فكرز للأرواح التي في السجن إذ عصت قديماً حين كانت أناة الله تنتظر مرةً في أيام نوح إذ كان الفلك يُبنى الذي فيه خلص قليلون أي

ثماني أنفس بالماء الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي بالمعمودية وهي ليست إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح" (١بط ٣: ١٨ – ٢١).

وفي الطوفان هلك العالم القديم بالماء، وهذا ما يراه الشهيد يوستينوس: "ففي الطوفان تم سر خلاص البشر. نوح البار وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم أي ثمانية. وهذا يشير إلى سر اليوم الثامن الذي قام فيه مسيحنا من بين الأموات. واليوم الثامن هو اليوم الأول الذي أصبح فيه المسيح بكر الخليقة، أو بمعنى آخر الرأس وبداية الجنس الجديد الذي وُلد به من جديد" (الحوار مع تريفو ١٣٨).

ويمضي يوستينوس لكي يؤكد الخلاص بالفلك،أي الخشبة والنجاة بالخشبة والماء، وهو رمز للمعمودية في العهد الجديد، وأن النجاة في الفلك هي إشارة للنجاة بواسطة المعمودية من الغضب الآتي. وهناك تأكيد على الرقم ثمانية، وهو التأكيد على الالتصاق التام بين المعمودية والقيامة. اليوم الثامن الذي قام فيه المسيح هو أول الأسبوع وبالتالي هو بداية الخليقة الجديدة.

ويرى ترتليان أن مجيء الحمامة بغصن الزيتون بعد نهاية الطوفان هو رمزٌ للمعمودية. يقول ترتليان: "لأنه بعد مياه الطوفان التي هلك بها عالم الإثم، أو بعد معمودية الكون، جاءت حمامة لكي تُبشِّر الأرض بزوال الغضب الإلهي، لأنه عندما أرسلت الحمامة من الفلك جاءت بغصن الزيتون وهو علامة على السلام لدى كل الشعوب، وهذا بالنسبة للأرض أي أجسادنا عندما تطلع من مياه المعمودية بعد أن غرقت خطاياها القديمة تجيء حمامة الروح القدس تحمل السلام من الله. تجيء من السماء إلى الكنيسة التي يرمز إليها الفلك" (مقالة على المعمودية: ٧).

ونحن لم نبتعد عن سفر التكوين بالمرة، ذلك أن الحمامة التي حلَّت على المسيح في الأردن تذكِّر الآباء بحمامة نوح، وتذكِّر الآباء بالروح القدس الذي كان يرف على وجه المياه (تكوين ١: ٢). وفي الواقع أن الذي أعطى هذا التفسير للطوفان هو نزول الروح

القدس بهيئة جسمية مثل حمامة على المسيح عندما اعتمد، ويمكننا أن نلاحظ هذا بوضوح في الترتيلة القبطية القديمة: "الروح القدس الذي حلَّ على ابنك في مياه الأردن كمثال نوح" (ذكصولوجية باكر للعذراء).

وفي هذا الخط الآبائي يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "وحمامة نوح كما يقول البعض كانت رمزاً لما سيأتي؛ لأنه في زمن نوح بالخشبة والمياه تم الخلاص وصار (الثمانية) بداية الجنس البشري الجديد، وعادت الحمامة للفلك في مساء ذلك اليوم حاملةً معها غصن الزيتون. هكذا يقولون إن الروح القدس نزل على نوح الحقيقي مؤسِّس الميلاد الثاني" (عظة ١٧: ١٠). ويلاحظ هنا أن القديس كيرلس الأورشليمي يشير إلى البعض، وهو بلا شك التقليد الذي سبق كيرلس، والذي يعتقد الذين درسوا عظات القديس كيرلس أنه يشير هنا إلى عظة القديس هيبوليتوس الخاصة بعيد الغطاس ٨: ٩.

ويقول القديس ذهبي الفم: "إن قصة الطوفان هي سرٌّ، ومحتوياتها هي رموزٌ لما سيأتي، الفلك هو الكنيسة، نوح هو رمزٌ للمسيح، الحمامة رمزٌ للروح القدس، وغصن الزيتون هو رمزٌ للصلاح الإلهي. وكما أنقذ الفلك الذين كانوا فيه من مياه الطوفان، هكذا تخلِّص الكنيسة الذين يلجأون إليها" (العظة السادسة على إقامة لعازر).

٣- عبور البحر الأحمر:

قال الرسول بولس: "فإني لست أريد أيها الأخوة أن تجهلوا أن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة وجميعهم اجتازوا البحر وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح" (١كو ١٠: ١ – ٤). ونصٌ مثل هذا يبدو أنه يشير فقط إلى ما حدث في العهد القديم. وهذا ما فهمه بعض المفسرين المعاصرين، لكننا بكل يقين نعلم أن الذين عبروا مع موسى البحر الأحمر لم يعتمدوا.

ذلك أن المعمودية هي خدمة كنيسة العهد الجديد، وليست خدمة كنيسة العهد القديم بالمرة. فالرسول بولس – على نحو واضح – يستعمل لغة العهد الجديد لكي يصف شيئاً معروفاً للمسيحيين. والإشارة إلى موسى ليست على وجه قاطع إلى نبي العهد القديم، بل إلى موسى الحقيقي المسيح. ويسجل الرسول بطرس هذه الحقيقة عندما يتحدث عن النبي الذي سيقيمه الرب مثل موسى (أع ٣: ٢٢). والصخرة الروحية التي شرب منها الذين عبروا – وهي المسيح – هي تأكيدٌ على حقيقة المعنى المسيحي الذي اكتشفه المسيحيون في حادثة العبور.

كان عبور البحر الأحمر هو الفصح اليهودي الذي قاد إلى حرية شعب الله وخلاصه، وهذا العبور تم بصورةٍ واضحةٍ في قيامة المسيح. والمصطلحات الدقيقة الخاصة بالفصح العبراني واضحةٌ جداً في العهد الجديد عندما يتحدث عن القيامة وعن الحياة المسيحية. المسيح هو حمل الله (يو ١: ٢٩، ٣٦)، والإشارة هنا إلى خروف الفصح خصوصاً يو ١: ٣٦، وهي صدى لـ خر ١٢: ٤٦. ويدعِّم هذا، النص المشهور عند القديس بولس: "المسيح فصحنا الذي ذُبح لأجلنا" (١كو ٥: ٧). والمسيح الفصح الحقيقي هو يسوع في الإفخارستيا الذي نأكله بعد أن "نمنطق أحقاء ذهننا ... ونسير زمان غربتنا بخوف... لأننا افتُدينا بدم الحمل الكريم الذي بلا عيب" (١بط ١: ١٢ – ٢١). وهذه النصوص بالذات مبنية على الإشارات الواضحة في العهد القديم لضرورة أكل الفصح في حالة استعداد للسفر (راجع خروج ١٢: ١ – ١١).

ولعل الذي دعَّم هذا التفسير المسيحي للفصح اليهودي هو تأسيس الفصح المسيحي العشاء الرباني، ثم صلب المسيح وقيامته أثناء عيد الفصح اليهودي.

كان العشاء الرباني هو الفصح الحقيقي، وربنا يقول: "ولما كانت الساعة اتكأ... وقال لهم شهوةً اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم لأني أقول لكم أني لا آكل منه بعد حتى يكمُل في ملكوت الله" (لو ٢٢: ١٤ – ١٦)، والإشارة إلى

الفصح الذي سيكمُل في ملكوت الله، أي القيامة، هي التي ستعطي للفصح المسيحي العمق الروحي، أي العبور من الموت إلى الحياة وإلى أورشليم الجديدة. ويجب أن نلاحظ أن العهد الجديد عندما يؤكِّد أن المسيح هو حمل الفصح، فإنه يشدد على حقيقة طقسية، وهي أن المسيح لم يُكسَر عظمٌ منه (يو ١٩: ٣٦ – راجع رؤيا ٥: ٦). والدم الذي سيُسفك، والجسد الذي سيُكسر هما تعبيرات واضحة خاصة بالذبائح، وبالذات بحمل الفصح (تث ١٦: ١ – ٨، مز ١٤: ١٢، لو ٢٢: ٧ مع خر ١٢: ١٠، ٢٢:٧).

وكان الفصح يحمل أهم ذكريات الخلاص، وبالذات عبور البحر الأحمر، وما سبقها من هلاك الأبكار والضربات العشر، كل هذه الأسباب جعلت من رحلة الخروج من أرض مصر الجذر أو الأساس لتدبير الخلاص في العهد الجديد. ولكي يكون كل شيء واضحاً، نلخص الاتجاهات الرئيسية في العهد الجديد فيما يلي:

أ– أسَّس المسيحُ العشاء الأخير لكي يحل محل الفصح، بل دعاه فصحاً (لو ٢٢: ١٥ – ٢٢)، ثم أكَّد بولس الرسول أن المسيح هو فصحنا (١كو ٥: ٧).

ب – أخذ العهد الجديد كل التعبيرات الخاصة بذبح الحمل ودم المسيح من الفصح، من الحمل الذي يُذبح دون أن يُكسر منه عظمٌ.

ج– مات المسيح أثناء الاحتفال بالفصح، وقام قبل نهاية الاحتفال بالعيد لكي يؤسِّس العيد الحقيقي.

د– تحدث الرب نفسه عن الإفخارستيا، ووصفها بأنها المِنْ السماوي (يو ص٦)، وهو تعبير لا معنى له ما لم يكن هناك تأكيد على معنى الخروج من عبودية الموت إلى الحرية الحقيقية، وهو المعنى الذي أكده الرسول بولس في النص الذي بدأنا به (١كو ١٠: ١ – ٤).

هـ – بل أن الرسول يوحنا يؤكد استمرار العبور أو الخروج في الدهر الآتي، في الانتصار على الشيطان، وهو يسجل في رؤياه أن الذين عبروا البحر الزجاجي المختلط

بالنار والغالبين الوحش وصورته وسمته وعدد اسمه يقفون على البحر ومعهم قيثارات الله وهم يرتلون ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الحمل (رؤيا ١٥: ١ - ٤).

هذه الاتجاهات الرئيسية كان من الحتمي أن تساهم في تشكيل طقس ولاهوت المعمودية، ولذلك أبرز التقليد الكنسي عبور البحر الأحمر كرمز للمعمودية. وفي الحياة الليتورجية - ككل - تبدأ رحلة شعب الله بالخروج لطلب المنْ الحقيقي في عشية السبت عندما يرتل الشعب مزامير الخروج؛ لأن الفصح العبراني حدث في المساء، وصلاة نصف الليل وباكر هي إيحاءات بداية العبور(خر ١٢: ١٤). وأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل... وكان في هزيع الصباح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين (خر ١٤: ٢١ - ٣١). هنا نلمح بكل وضوح الفصح المسيحي، والتعميد عند صياح الديك حسب تعبير القانون ١٩ من قوانين هيبوليتوس. الخدمة التي تستمر طول الليل وتنتهي في الصباح حينما يتم العبور والخروج من الموت إلى الحياة بالمعمودية والقداس في ليلة الفصح. وما كل اجتماع مسيحي إلَّا ذلك النموذج الأصلي الذي جعل الخدمة تبدأ بعشية وتنتهي في الصباح.

الآباء وعبور البحر الأحمر:

أول من تحدَّث عن عبور البحر الأحمر - كرمزٍ للمعمودية - هو القديس أكليمنضس السكندري (المتنوعات ٧: ١٦). لكن القديس أكليمنضس شرح عبور البحر الأحمر بطريقته الخاصة، والتي لا يمكن فهمها إلَّا بالعودة إلى العلامة أوريجينوس. وفي الحقيقة إن شرح عبور البحر الأحمر كرمز للمعمودية لم يتعمق في اللاهوت المسيحي إلَّا على يد أساتذة اللاهوت السكندري، ويمكننا أن نقارِن بين نصين عند أوريجينوس، وترتليان والفاصل الزمني بينهما لا يزيد على عشر سنوات. يقول أوريجينوس: "علينا أن نتأمل كيف يختلف شرح الرسول بولس لعبور البحر الأحمر عن المعنى الحرفي. فما يعتبره اليهود عبوراً للبحر، يسميه الرسول بولس معمودية. وما يعتقد به اليهود أنه مجرد سحابة،

يسميه الرسول بولس الروح القدس". ويلاحَظ أن أوريجينوس يشرح هذه الفقرة في ضوء وصية الرب القائلة إذا كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت السموات (عظة ٥: ١ على سفر الخروج). فالأساس اللاهوتي لشرح كلام الرسول بولس هو يوحنا ٣: ٣: الماء والروح والميلاد الثاني.

ويكمل أوريجينوس: "يقول بولس إن هذا النص الخاص بالمعمودية يؤكد كمال المعمودية بالماء والروح القدس، وأنا أعلم أن المصريين سوف يتعقبونكم لكي يرغمونكم على خدمتهم وأنا أعني رؤساء هذا العالم والأرواح الشريرة (أف ٦: ١٢). هؤلاء الذين خدمتموهم حتى الآن، هم يجاهدون لكي يتعبوكم، لكنكم تنزلون إلى الماء فتُشفَون وتخلصون وتتطهرون من أدناس الخطية وتخرجون من الماء مولودين من جديد (حرفياً إنساناً جديداً) مستعدين لترنموا الترنيمة الجديدة" (المرجع السابق ٥: ٥).

ومما لا شك فيه أن العلامة أوريجينوس يضع عبور البحر الأحمر في نطاق شرح رموز الكتاب عن الخلاص بالمسيح، وهو الولادة الثانية من الموت للحياة، وهذا بلا شك المعنى الأساسي للفصح.

وإذا عدنا إلى ترتليان، فإننا نجده يقول:"عندما ترك الشعب بحرية إرادته مصر، هرب من طغيان ملك مصر بالعبور في المياه، فأهلكت المياه الملك وكل جيشه. وهل يوجد رمز أفضل من هذا للمعمودية؟ الشعب يخلص من العالم بواسطة المياه والشيطان الطاغية الذي ساد عليهم يتركونه خلفهم، بل تهلكه المياه" (مقالة عن المعمودية: ٨).

مما لا شك فيه أن شرح أوريجينوس أفضل؛ لأنه يتناول شرح الرمز من خلال المبادئ اللاهوتية نفسها التي حددت الرمز، وهذا نراقبه بوضوح عند ديديموس الضرير تلميذ أوريجينوس: "البحر الأحمر الذي عبره الإسرائيليون دون خوف خلَّصهم من المصريين الذين يتبعونهم، وكل تاريخ الخروج هو رمز الخلاص الذي يتحقق في المعمودية. في الحقيقة إن مصر هي رمزٌ للعالم الذي فيه نحيا في شقاء الحياة الشريرة. أمَّا الشعب

الذي استنار، فقد رَمَزَ له الشعب الذي خرج من مصر. المياه هي رمزٌ لمياه المعمودية، وفرعون وجنوده هم رمزٌ للشيطان وقواته" (الكتاب الثاني عن الثالوث فصل ١٤).

ويؤكِّد القديس باسيليوس معنى الموت والحياة عندما يشرح عبور البحر الأحمر: "إن ما حدث عند خروج بني إسرائيل قد كُتب لنا لأنه يشير إلى المعمودية، البحر هو مثالٌ للمعمودية لأنه هو الذي خلَّص الشعب من فرعون، وكذلك المعمودية تنقذنا من طغيان الشيطان. البحر أهلك العدو، وفي المعمودية هلكت عداوتنا. خرج الشعب من البحر معاً وخَلُصَ، ونحن أيضاً نخرج من المياه أحياء بعد أن كنا أمواتاً" (مقالة عن الروح القدس: ١٤).

ويؤكد القديس باسيليوس أهمية المعمودية من أهمية عبور البحر الأحمر، إذ يقول: "لو لم يعبر إسرائيل البحر لما استطاع أن يهرب من فرعون، وهكذا أنتم إن لم تعبروا المياه لا يمكنكم أن تهربوا من قساوة طغيان الشيطان" (عظة ١٤ مجلد٣١: ٤٢٥).

ويعتبر القديس غريغوريوس النيسي أن عبور البحر الأحمر كان نبوةً عن المعمودية المسيحية: "عبور البحر الأحمر – حسب القديس بولس نفسه – نبوةٌ عن المعمودية، والآن وكما في القديم عندما يقترب الشعب من مياه الميلاد الجديد كما فعلوا عندما هربوا من مصر أي الخطيئة، فإنهم يتحررون ويخلُصون، أمَّا الشيطان وكل معاونيه من الأرواح الشريرة فإنها تهلك" (عظة على معمودية المسيح).

ويعود أمبروسيوس إلى تفسير أوريجينوس للخروج ويؤكده في موضعين من كتابه عن الأسرار: "يقول الرسول إن آبائنا جميعهم كانوا في السحابة واعتمدوا في السحابة وفي البحر... (١كو ١٠: ١ – ٤). بل أن موسى نفسه يقول في تسبحته أرسلت روحك فابتلعهم البحر. وهكذا ترون أنه في عبور العبرانيين عندما تبعهم المصريون هلك هؤلاء بينما نجا العبرانيون. هنا مثال المعمودية واضح، بل أنه يتم، وإلَّا ماذا نتعلم في هذا السر سوى أن الخطيئة هلكت وغرقت، بينما عاشت التقوى، والبراءة خلُصت" (الأسرار ١٢).

ما هي السحابة؟ يؤكد أوريجينوس في النص الذي بدأنا به شرح عبور البحر الأحمر على أن السحابة هي إشارة إلى الروح القدس، ومن المعروف لغوياً أن كلمة "حلَّ" و"ظلَّل" هي من مشتقات المفردات الخاصة بالسحاب في معظم اللغات وبالذات في اللغة العبرانية (خروج ٣١: ٢١ – ٢٢، راجع ظهور الله في خروج ١٩: ٩ – ١٦، ثم حلول السحابة فوق خيمة الاجتماع خروج ٤٠: ٣٤ – ٣٧). في العهد الجديد ظهرت السحابة مرتين: الأولى في إشارة ضمنية إلى العذراء: "وقوة العلي تُظللك" (لوقا ١: ٣٥)، ثم في التجلي عندما ظللت السحابة الرب وموسى وإيليا (مر ٩: ٧). وإذا كانت السحابة رمزاً إلى الحلول الإلهي، فإن حلول الروح القدس هو الجانب المؤكَّد في هذه النصوص. وإشارة الرسول بولس إلى حادثة العهد القديم "اعتمدوا في السحابة" هي تفسير مسيحي لحادثة الخروج وليست اقتباساً من العهد القديم. ذلك أن المعمودية كما قلنا هي سر العهد الجديد. ولذلك فإشارة الرسول بولس إلى الإسرائيليين على أنهم اعتمدوا في السحابة، أي في الحلول الإلهي أو الروح القدس، إشارة إلى إسرائيل الجديد كنيسة العهد الجديد، وهذا المعنى نراه بوضوح عند القديس كيرلس الأورشليمي وهو يشرح جحد الشيطان: "عندما تدخلون إلى الغرفة الملاصقة للمعمودية فإنكم تتجهون للغرب ... والآن يجب أن تعرفوا أن هذا الطقس موجود في التاريخ القديم. عندما كان فرعون الطاغية القاسي الشرير يعارض في إطلاق سراح أبناء العبرانيين، أرسل الله موسى لكي يخرجهم من قيود عبودية المصريين وأدركهم العدو وتعقبهم (خروج ١٤: ٩، ٢٣)، فرأى البحر وقد انشق، إلَّا أنه سعى وراءهم لكي يدركهم، ولكنه غرق في البحر الأحمر. الآن علينا أن نترك القديم إلى الجديد، ومن الرمز أو المثال إلى الواقع. هناك موسى الذي أُرسل من الله إلى مصر. هنا المسيح الذي أُرسل من الله الآب إلى العالم. هناك موسى يقود المتضايقين ويُخرِجُ شعباً متألماً من مصر. هنا المسيح يخلِّص الذين استُعبدوا للخطيئة" (مقالة ١٩: ٢ – ٣).

٤- عبور نهر الأردن:

يحمل يشوع خليفة موسى ذات اسم ربنا يسوع المسيح، والتفسير المسيحي لدخول أرض كنعان على قدر كبير من الأهمية. أولاً لأنه يجرِّد الحادثة من كل أبعادها السياسية والاجتماعية، ويعطي المضمون الروحي الصالح لكل البشر. ذلك أن عبور الأردن ليس احتلالاً لأرض الكنعانيين، وإنما هو رمزٌ لِمَا يحدث في الأردن، أي جُرن المعمودية، عندما ندخل ليس إلى ميراث شعب من الشعوب، بل إلى ميراث ابن الله. ولعل قوة الرسالة إلى العبرانيين هي المحرك الرئيسي لهذا التفسير، أي عبور الأردن. فالرسالة كلها هي محاولات اكتشاف الحياة المسيحية في جذور العهد القديم. وأول من فسَّر عبور الأردن على أنه رمزٌ للمعمودية هو العلَّامة أوريجينوس، ومن الشيق أن نقتبس هذا النص كله. لكن علينا أن نذكر مسألتين أساسيتين:

أولاً: إن العلَّامة أوريجينوس يقدِّم لنا تفسير عبور الأردن في نطاق حديثه عن معمودية المسيح في الأردن، ولولا أن المسيح عبر الأردن ما كان أوريجينوس ومَن بعده مِن الآباء قد اهتموا بحادثة عبور الأردن. لكن المعمودية هي التي تقود إلى أرض الموعد وهي شركة الميراث الحقيقي في أورشليم.

ثانياً: إن أوريجينوس يؤكِّد أنه يقدم تفسيراً جديداً للنص، ولكنه يدعِّم وجهة نظره بما يقدمه (١كو ١٠:١ - ٤) من معاني، أي أنه يبني وجهة نظره على أساس التقليد الكنسي المسيحي في تفسير قصة الخروج من أرض مصر.

يقول أوريجينوس: "لنفحص كلمات الإنجيل، (الأردن) تعني النزول؛ لأن كلمة أردن مشتقة من يارد... إذا صح هذا التفسير، فما هو النهر الذي سينزل إلى أسفل والذي كل مَن ينزل فيه يتطهر. هذا النهر الذي ينزل إلى أسفل ليس سوى مخلصنا الذي يفصل بين الذين أخذوا ميراثهم من موسى، والذين أخذوا نصيبهم من يشوع. هذا النهر هو النهر النازل إلى أسفل والذي يُفرِّح مدينة الله حسبما ذُكر في المزمور ٤٦:٤. ومدينة

الله ليست أورشليم المنظورة؛ لأن أورشليم المنظورة لا يوجد بجانبها نهر، بل الكنيسة التي بلا عيب المبنية على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح ربنا حجر الزاوية، وهكذا نفهم أن الأردن هو كلمة الله الذي نزل وتجسَّد وحلَّ بيننا. **يسوع الذي يعطينا – كميراث – الإنسانية التي أخذها هو؛ لأن جسده أو إنسانيته هو حجر الزاوية الذي رُفِعَ إلى فوق، إلى إلوهية ابن الله**، هذه الإنسانية التي أخذها قد غُسلت (في المياه) ولذلك اقتبلت حمامة الروح القدس النقية عديمة الغش، وأصبح مرتبطاً به (بالجسد) دون أن يطير بعيداً عنه. لأننا نقرأ: "أن مَن ترى الروح القدس نازلاً وحالاً عليه هو نفسه الذي سيُعمد بالروح القدس". ولذلك كل من يأخذ الروح الذي حلَّ على يسوع يستطيع أن يعمِّد كل مَن يأتون إليه (يسوع) بنفس الروح... والآن ربما في أحسن الاحتمالات سوف يتعثر كل مَن لم يتدرب على أسرار المخلص المختلفة، بل ربما يتعثر في المعنى الذي قدمناه للأردن لأن يوحنا يقول: "أنا أعمدكم بالماء لكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني سوف يعمدكم بالروح القدس".

وكلمة الله، أي المسيح له خواصٌ كثيرة خاصة به وحده، ويمكن أن يوصف بأنه يُشْرَب، ولذلك فهو بالنسبة لبعض البشر هو ماءٌ يُشرَب، وبالنسبة للبعض الآخر هو خمرٌ يفرِّح قلب الإنسان، بينما هو بالنسبة للآخر دمٌ؛ لأنه قال إن لم تشربوا دمي ليس لكم حياة فيكم (يو ٦: ٥٣)، ولذلك فهو في خواصه طعامٌ، ولذلك (بطرق مختلفة) نعتقد أنه خبزٌ حي، أو جسد. وهو نفسه بالنسبة للبعض معمودية ماء، ومعمودية الروح القدس والنار، وبالنسبة للبعض هو معمودية دم. وعن معمودية المسيح الأخيرة كما يرى البعض أنه قال هذه الكلمات: "لي معمودية سوف أعتمد بها وكيف أنا منحصر حتى تكمل" (لو ١٢: ٥٠). ويشرح معنى هذه الكلمات الرسول يوحنا في رسالته حيث يذكر أن الروح والماء والدم هم واحد (١يو ٥: ٨). وكما يتطلب موضوعنا، سوف نجمع كل ما يخص الأردن، ولنبحث عما يخص النهر (ربما المقصود هنا يسوع). حَمَلَ اللهُ الشعبَ

بواسطة موسى في البحر الأحمر، وجعل المياه تقف كحائط من على اليمين وعلى اليسار. وبواسطة يشوع حملهم في نهر الأردن. والآن حينما نقرأ كيف شرح بولس هذا النص؛ لأن بولس يحارب ليس حسب الجسد أي حسب حروف النص لأنه يعلم أن الناموس هو روحي إذا أُخِذَ بطريقةٍ روحيةٍ غير حرفية. وهو يرينا هذا بالطريقة التي فَهِمَ بها النص الخاص بالبحر الأحمر لأنه يقول في رسالته الأولى إلى كورنثوس: "لست أريد أيها الأخوة أن تجهلوا كيف أن آبائنا كانوا في السحابة وأن الكل عبروا البحر والكل اعتمدوا لموسى في السحابة والبحر والكل أكلوا من نفس الطعام الروحي وشربوا شراباً روحياً لأنهم شربوا من صخرة روحية تبعتهم والصخرة كانت المسيح"، ويا ليتنا نصلي نحن لكي نرى بالروح هذا النص، ونأخذ من الله عطية فهم المعنى الروحي لعبور يسوع الأردن. وعن عبور يشوع أعتقد أن بولس كان سيقول: "لست أريد أن تجهلوا أيها الأخوة أن آبائنا عبروا الأردن والكل اعتمد ليشوع (يسوع) في الروح وفي النهر (الماء)؛ لأن يشوع الذي خلف موسى كان مثالاً ليسوع المسيح الذي خلف كل تدبير الناموس، وأسَّس بدلاً عنها كرازة الإنجيل. والذين اعتمدوا لموسى في السحابة والبحر، وتحدث عنهم بولس، كانت في معموديتهم مشقة، بل ومَلحٌ. في معموديتهم كانوا لا زالوا يخافون عدوهم، بل صرخوا للرب ولموسى قائلين: هل لأنه لا توجد قبور في مصر أتيت لتهلكنا (تذبحنا) في البرية (خروج ١٤: ١١)؟ ولكن معمودية يشوع حدثت في مياه هادئة حلوة يمكن شُربها، وهي بهذا أشرف من المياه الأولى؛ لأن الإيمان في عهد يشوع كان قد نما وأصبح واضحاً منظماً.

لأن تابوت عهد الرب حمله الكهنة واللاويون، ثم تبع الشعب خدام الله بعد أن تطهروا لأن يشوع قال لهم تطهروا من أجل الغد (يشوع ٣: ٥)، وأمر الكهنة أن يسيروا أمام الشعب حاملين تابوت عهد الرب الذي فيه إشارة واضحة إلى تدبير الآب الخاص بالابن الذي رفَّعَهُ وأعطاه هذه الخدمة حتى أنه باسم يسوع تجثو كل ركبة مما في السماء ومن

على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع هو رب لمجد الله الآب (فيلبي ٢: ٩ – ١١). وقد أشار إلى هذا الكتاب المعروف باسم يشوع ٣: ٧ في ذلك اليوم سوف أمجدك (أرفعك) في أعين بني إسرائيل. ونحن نسمع ربنا يسوع المسيح يقول لأبناء إسرائيل (يشوع ٣: ٩ – ١٠): "تعالوا هنا واسمعوا كلمات الرب إلهكم حتى تعلموا أن الله الحي في وسطكم"، لأنكم عندما تعتمدون ليسوع تعلمون أن الله الحي فينا. وفي القديم احتفلوا بالفصح في مصر ثم بدأوا الرحلة، لكن بيشوع بعدما عبروا الأردن في اليوم العاشر من الشهر الأول نصبوا خيامهم في الجلجال وفي ذلك اليوم حصلوا على خروف وأبقوه حتى بعد معمودية يشوع. ولم يكن أبناء إسرائيل قد اختتنوا لأن الذين خرجوا من مصر لم يختتنوا، عند ذلك ختنهم يشوع بحجر حاد وأعلن الرب أنه قد نزع عار مصر في يوم معمودية يشوع. عندما طهّر يشوع أبناء إسرائيل كتب: "وقال الرب ليشوع بن نون في هذا اليوم نزعت منكم عار مصر"، عند ذلك احتفل بنو إسرائيل بالفصح في اليوم الرابع عشر من الشهر بخبز غير مختمر من قمح الأرض المقدسة وطعاماً طازجاً أفضل من المن، لأنهم عندما دخلوا أرض الميعاد لم يكرمهم الله بطعام أفضل أو أقدس لأنه طالما أن رجلاً مثل يشوع كان قائدهم لا يمكنهم أن يحصلوا على طعام أدنى (من الذي حصلوا عليه وهم تحت قيادة موسى)، وهذا يفهمه الذي يفكر في الأرض الحقيقية المقدسة وأورشليم التي فوق؛ لأنه مكتوب في الإنجيل: "آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا، ولكن الذي يأكل من الخبز الذي أعطى يحيا إلى الأبد" (يو ٦: ٤٩)، ورغم أن الله هو الذي أعطى المن إلَّا أنه كان طعام السفر وطعاماً أُعطي للذين كانوا تحت التأديب. لكن الطعام الجديد حصل عليه يشوع من القمح الذي يُزرع في أرض الميعاد؛ لأن آخرين تعبوا، وتلاميذه (يسوع) جمعوا الحصاد. هذا الخبز مملوءٌ بالحياة يُوزَّع على الذين يطلبونه من أجل الكمال، أي الذين لهم نصيب في ميراث أبائهم. ولذلك كل الذين يأكلون من خبز التأديب (الناموس) يحصلون على الموت، ولكن الذين يأكلون من الخبز الذي جاء بعده

(يسوع) يحيون إلى الأبد. وكل ما ذكرته قد أضفته كما يليق بموضوع دراستنا للمعمودية في الأردن" (تفسير يوحنا الكتاب السادس ٣٥ – ٣٦ النص اليوناني طبعة بروك – أكسفورد الترجمة الإنجليزية ٢٥:٦ – ٢٦ ص ٣٧٢).

هذا النص الطويل لا يحتاج لتعليق؛ لأنه يشرح – بكفاية – كيف فهم الآباء نصوص العهد القديم، وهو يلقي أضواءً على عدة موضوعات هامة في الطقس واللاهوت، بل يشرح بعض الكلمات الصعبة في إنجيل يوحنا، وبالذات الحديث عن الخبز الجديد الذي قدّمه يشوع والذي زُرِع في أرض الموعد، وأوريجينوس يتحدث هنا عن الخبز النازل من السماء والواهب الحياة للعالم الذي جاء به يشوع الحقيقي من أرض الموعد، أي من أورشليم السمائية. ولعلنا نرى أن قلب شرح أوريجينوس هو معمودية يسوع في الأردن.

الأردن وإيليا وأليشع

يقول أوريجينوس: "نقطة أخرى لا يجب أن نخفق في فهمها أو ملاحظتها، وهي أنه عندما كان إيليا على وشك أن يذهب إلى السماء في العاصفة، أخذ رداءه وضرب به المياه، فانفلقت من هنا وهناك فعبر الاثنان معاً: هو وأليشع، ومعمودية إيليا جعلته أهلاً لأن يُؤخذ إلى فوق؛ لأننا كما رأينا، يعطي بولس للعبور في الماء اسم المعمودية. وعن طريق هذا الأردن، فإن أليشع يأخذ بواسطة إيليا النعمة التي اشتهاها لأنه قال: "أعطني نصيب اثنين من روحك" (٢ ملوك ٢: ٨)، والذي مكّنه من أن يأخذ عطية روح إيليا هو أنه عبر الأردن مرتين، مرةً مع إيليا، ومرةً بعدما أخذ رداء إيليا".

الأردن ونعمان السرياني

يقول أوريجينوس: "إذا اعترض أحدٌ على تعبير "ضرب الماء"؛ لأننا قلنا سابقاً إن الأردن هو رمز للكلمة ابن الله الذي نزل لأننا نزلنا، فإننا نقول إن الرسول أكد أن

الصخرة كانت المسيح، وقد ضُربت الصخرة مرتين بالعصا حتى يشرب الشعب من الصخرة الروحية التي كانت تتبعهم. والذين يعترضون على تعبير "ضرب" حتى في هذا النص الخاص بالصخرة، هم الذين يرغبون في إثارة مشاكل على الموضوعات قبل أن يسمعوا منَّا الموضوعات نفسها. الله يضرب الصخرة لأنه يعطينا عندما نعطش ما نشربه، يهيئ لنا طريقاً في التيه حيث لا يوجد طريق ودرب آخر نسير فيه عندما يقسِم (مثل انقسام الماء من الشمال واليمين في حالات العبور) الكلمة؛ لأن تقسيم الكلمة يعني أن يوزَّع علينا، ولذلك يصبح كل شيء واضحاً لنا... ومادمنا قد فهمنا التفسير الصحيح الخاص بالأردن الصالح جداً للشرب والمملوء نعمة، فمن النافع أن نقارِن بين تطهير نعمان السرياني من برصه؛ لأن هذا يساعدنا على فهم ما قيل عن عقائد أعداء إسرائيل، فقد كُتب أن نعمان جاء بخيل ومركبات ووقف أمام باب بيت أليشع، فأرسل إليه إليشع رسولاً قال له: "أذهب اغتسل سبع مرات في الأردن وسيعود إليك لحمك وستطهُر". هنا غضب نعمان لأنه لا يرى أن الأردن الخاص بنا (أردننا) يطهِّر الذين تدنسوا بالبرص، والأردن معيدهم إلى الصحة.

إن الأردن هو الذي يقوم بكل هذا، وليس النبي، ووظيفة النبي هو أن يرشد إلى الوسيلة الشافية. ونعمان يقول وهو لا يفهم السر العجيب الخاص بالأردن: "هوذا قلت أنه بالتأكيد سيخرج وسيأتي إليَّ، ثم يدعو باسم الرب إلهه ويضع يده على فوق الموضع ويشفيني من البرص" (٢ ملوك ٥: ١١)، ولكن وضع اليد على البرص (مت ٨: ٢ – ٣)، وتطهيره هو عمل ربنا يسوع وحده (معجزة شفاء الأبرص)، لم يأمره بالكلمة فقط، بل لمسه فطهَّره من برصه. نعمان لا يزال مخطئاً ولا يعرف كيف أن كل الأنهار أقل من الأردن بكثير في شفاء الآلام، وهو يمجد أنهار دمشق أبانة وفرفر "أليس أبانة وفرفر أنهار دمشق أفضل من جميع مياه إسرائيل أما كنت أغتسل بها فأطهر" (٢ ملوك ٥: ١٢)، لكن ليس أحد صالحاً إلَّا واحد وهو الآب (متى ١٩: ١٧، مر ١٠: ١٨، لو ١٨: ١٩).

وهكذا مع الأنهار، ليس صالحاً إلَّا واحدٌ وهو الأردن، ولا يقدر أن يطهُر من برصه إلَّا من يغسل روحه في يسوع، وهذا هو السبب الذي لأجله كتب عن الإسرائيليين أنهم بكوا عندما جلسوا عند أنهار بابل وتذكروا صهيون، أي أولئك الذين سُبُوا إلى بابل بسبب خطاياهم؛ لأنهم عندما ذاقوا مياه الأنهار بعد ما ذاقوا ماء نهر الأردن المقدس، قادهم التذوق إلى تذكُّر مياه الخلاص التي عندهم، ولذلك قيل عنهم وهم بجوار أنهار بابل أنهم جلسوا؛ لأنهم لم يقدروا على الوقوف، ثم بكوا.

وأرميا ينتهر كل الذين يرغبون في أن يشربوا مياه مصر وأن يتركوا المياه التي تأتي من فوق أي من السماء وتنزل إلينا أي الأردن "مالك وطريق مصر لشُرب مياه شيحور لشرب مياه النهر"... والكتب الموحى بها بالروح لا تتحدث عن مياه الأنهار التي تُرى بالعين، وهذا ما يمكننا أن نستدل عليه من نبوة حزقيال عن فرعون ملك مصر الذي يسميه التنين الكبير لأن حزقيال يقول: "ها أنذا عليك يا فرعون ملك مصر التنين الكبير الرابض في وسط المياه في وسط الأنهار الذي قال لي الأنهار وأنا عملته بنفسي فأجعل خزائم في فكيك وأجعل أسماك النهر تلتصق بحرشفك وأخرجك من وسط نهرك وكل سمك أنهارك وأطرحك بسرعة على وجهك في وسط أرضك فلا تعود تجمع ولا تعبد بعد" (حز ٢٩: ٣ – ٥). وما هو التنين المنظور الذي سمعنا أنه يربض في مياه الأنهار المنظورة في مصر سوى الشيطان؛ لأن نهر مصر ليس مكان إقامة التنين عدونا؛ لأنه لم يستطع أن يضر موسى عندما طُرح في مياه النيل، ولذلك فإن التنين الذي في مياه نهر مصر هو الشيطان، لكن الله في النهر الذي يفرِّح مدينة الله؛ لأن الرب الآب في الابن، ولذلك كل الذين يغتسلون فيه (الابن) ينزعون عار مصر ويصبحون أهلاً لأن يتجددوا. وهؤلاء يتطهرون من دنس البرص، ويأخذون نصيب اثنين من المواهب الروحية، ويؤهَّلون لقبول الروح القدس لأن الحمامة الروحية لم ترفرف على أي نهر سوى نهر الأردن، وهكذا قد درسنا بطريقة لائقة جداً الموضوع المقدس الخاص بالأردن والتطهير الخاص به لأن يسوع

اغتسل في الأردن ... لذلك دعونا نأخذ من النهر معونةً على قدر احتياجاتنا" (٦: ٤٥ أهـ).

وعُذرنا الوحيد في اقتباس النص كله هو أنه يمثِّل إحدى الفقرات الأساسية في لاهوت وطقس المعمودية في الكنيسة الشرقية، وفي الكنيسة القبطية بوجهٍ خاص. وجميع الآباء الذين جاؤا بعد أوريجينوس اقتبسوا منه، وعلى وجه الخصوص القديسين غريغوريوس النيسي وباسيليوس وذهبي الفم.

يقول القديس غريغوريوس النيسي: "عندما كان موسى العظيم طفلاً يرضع ووقع تحت قانون فرعون المستبد الذي أصدره لقتل كل الأطفال الذكور وطُرِحَ على ضفة النهر لم يكن عارياً، بل وُضع في تابوت لأنه يليق أن يكون الناموس – وأنا أتكلم رمزياً – في صندوق (خروج ٢: ٢)، وعندما وُضع بجانب المياه كان يدل على أن الاغتسالات التي حددها الناموس يومياً للعبرانيين سوف يتضح معناها بعد ذلك في الاغتسال الكامل والعجيب الذي بالنعمة في المعمودية.

ويقول القديس غريغوريوس: "حسب شرح بولس الموحى له بالروح، الشعب نفسه عَبَرَ البحر الأحمر الذي أخبر ببشارة الخلاص بالمياه. عَبَرَ الشعب، وملك مصر مع عسكره غرق، وبهذا أخبرتنا هذه الأحداث عن السر. لأنه حتى الآن عندما ينزل المعمدون إلى مياه الحميم الثاني هاربين من مصر مثقَّلين بأثقال الخطيئة يتحررون ويخلصون بالمياه. لكن الشيطان وخدامه – وأنا أعني الأرواح الشريرة – يُصدم بالحزن ويهلك حاسباً خلاص البشر سوءاً بالنسبة له. هذه الرموز تكفي لكي تشرح ما نحن بصدده لكن كل محب للتعليم الجيد لا يترك جانباً ما سيأتي: إن الشعب العبراني كما نعلم بعد آلام كثيرة وبعد أن أتموا رحلتهم الشاقة في البرية لم يدخلوا أرض الموعد إلَّا بعد أن صاروا تحت إرشاد وقيادة يشوع الذي عَبَرَ بهم إلى الأردن، ومن المعروف أن يشوع انتخب أثنى عشر حجراً ووضعها في الأردن (يشوع ص ٤)، لكنه كان يُنبئ عن مجيء الإثنى

عشر رسولاً خدام المعمودية. وأيضاً الذبيحة العجيبة التي قدَّمها التشبي (١ ملوك ١٨: ٢٣)، وهي تفوق فهم البشر لأنها على أي شيءٍ تنبئ سوى ذلك الطقس المرتبط بالإيمان بالآب والابن والروح القدس، وعن الخلاص الآتي؛ لأن العبرانيين عندما داسوا تحت أقدامهم إيمان آبائهم وسقطوا في تعدد الآلهة وأُغري ملكهم آخاب بالعبادة الوثنية من قِبَل إيزابيل صاحبة الاسم السيئ والشريكة الشريرة لحياته وناشرة عدم التقوى، فالنبي وقد امتلأ بنعمة الروح جاء لمقابلة آخاب وتحدث كهنة البعل بطريقة عجيبة أمام الملك وكل الشعب، فاقترح عليهم تقديم عجل ذبيحة على أن تنزل نار وتأكلها وشهَّر بهم، بل وأظهر غباوتهم لأنهم عبثاً صلُّوا وصرخوا إلى الآلهة التي ليست موجودة، وأخيراً دعا إيليا الإله الحقيقي وأتم ما اقترحه على الأنبياء، بل زاد عليه لأنه لم يُصلِّ لكي تنزل النار على الخشب الجاف، بل طلب من الحاضرين أن يحضروا ماءً كثيراً. وعندما سكب الماء ثلاثة مرات على الحطب الجاف أشعل بصلاته النار من وسط المياه؛ لأن الماء والنار أضداد، ولكنه جمعهم في اتفاق لكي ما يوضح بطريقة خارقة قوة إلهه، وهكذا بذبيحة إيليا العجيبة أظهر لنا إيليا سر طقس المعمودية الذي سوف يؤسَّس.

النار اشتعلت بالمياه التي سُكبت ثلاث مرات عليها، وهذا يوضح لنا أنه حينما توجد المياه السرية هناك يشتعل الروح الناري الذي يحرق كل ما هو غير صالح، وينير المؤمنين. وهكذا أيضاً تلميذه أليشع عندما جاء إليه نعمان السرياني المريض بالبرص وجاء يترجاه، طهَّر النبي الرجل المريض عندما أمره بأن يغتسل في الأردن (٢ ملوك ٥) وبكل وضوح أعلن هذا ما سيأتي، أي استعمال المياه والتغطيس في النهر لأن الأردن هو النهر الوحيد دون جميع الأنهار الذي أخذ بكور التقديس والبركة ومنه صار العالم كله..." (عظة على معمودية المسيح).

ويقول القديس ذهبي الفم: "ما علاقة الميلاد الروحي بتعليم اليهود؟ ما هو المشترَك بينهما، أو ما هو الذي ليس مشترَكاً بينهما؟ أخبروني. الإنسان الأول الذي منه

وُلدت المرأة من جنبه. والحوادث التي لعبت فيها المياه دوراً أساسياً مثل الينبوع الذي أخرج منه أليشع الحديد بالخشبة (٢ ملوك ٦: ٦)، أو عبور البحر الأحمر (خروج ١٤: ١٠ - ٢٤)، أو بِركة الماء التي كان يحركها الملاك في سلوام (يوحنا ٥: ٤)، أو تطهير نعمان السرياني في الأردن (٢ ملوك ٥: ١ - ١٤)، كل هذه كرموز عن الميلاد والتطهير الذي سيحدث في المستقبل..." (عظة ٢٥ على إنجيل يوحنا).

هنا يضيف يوحنا ذهبي الفم بِركة بيت حسداً. وقد استقر في التقليد الكنسي قبل يوحنا ذهبي الفم أن بِركة بيت حسدا، وحادثة تفتيح عيني المولود أعمى، هي من رموز العهد الجديد عن المعمودية. وأول من أشار إلى بِركة بيت حسدا هو العلَّامة ترتليان: "ربما بدا لكم أن هذا شيئاً جديداً أن يكون الملاك موجوداً في المياه، لكن هناك مثالاً على هذا الذي يحدث في حادثة سابقة. كان ملاكٌ ينزل ويحرك مياه بِركة بيت حسدا (يوحنا ٥: ٢)، وكان كل من ينزل من المرضى الذين يُراقبون تحريك المياه بعد أن يغتسل يُشفى . والشفاء الجسدي هو رمزٌ للشفاء الروحي، لأن القاعدة هي أن الأشياء الجسدية ترمز مسبقاً إلى الأمور الروحية". (مقالة على المعمودية: ٥).

وإخراج قطعة الحديد من الأردن بالخشبة جزء من تقليد الإسكندرية، إذ أشار إليه ديديموس الضرير على النحو التالي: "لقد سأل أليشع رجل الله أين سقطت الفأس؟ ويرمز هذا إلى مجيء الله وسؤاله، أين أنت يا آدم؟ والحديد الذي سقط في عمق المياه يصور لنا يأس الطبيعة البشرية الساقطة التي غطست في عمق الخطيئة وحُرمت من النور، وقطعة الخشب التي أُلقيت في المياه تُشير إلى الصليب المجيد. أما الأردن فهو معمودية الحياة الأبدية، وحقاً أنه في الأردن جَعَلَ ذاك (المسيح) المعموديةَ ضروريةً لنا لأنه هو نفسه جاء واعتمد. وأخيراً قطعة الحديد التي طفت على وجه المياه وعادت إلى مالكها ترمز إلى عودتنا إلى الله بالمعمودية، وإلى رجوعنا إلى المساكن السماوية وحصولنا مرة

أخرى على النعمة التي حصلنا عليها قديماً في مسكننا الحقيقي". (الثالوث ٢: ١١ – مجلد ٣٩: ٧٠٠).

وفي الواقع أن هناك تقليداً قديماً يعود إلى القرن الثاني في رسالة برنابا، وهي سكندرية الأصل ونُسبت إلى الرسول برنابا، حيث خصص الكاتب فصلاً كاملاً عن الصليب ومياه المعمودية (فصل ١١: ١ – ٧)، وهو يعتمد أساساً على نصوص العهد القديم: "دعونا نرى إذا كان الرب قد اهتم بأن يعطينا إشارات مستقبلة عن مياه المعمودية والصليب. عن مياه المعمودية لدينا بُرهان من الأسفار أن إسرائيل سيرفض الاغتسال الذي يمنح مغفرة الخطايا، وأنه سوف يؤسِّس اغتسالات خاصة به بديلة "اندهشي أيتها السموات ولتقشعر الأرض أكثر فأكثر لأن شعبي عمل شرَّين، تركوني أنا ينبوع المياه الحية وحفروا لأنفسهم آباراً مشققة لا تضبط ماء" (أر ٢: ١٣)".

ثم يقتبس كاتب الرسالة (مز ١: ٣ – ٦)، حيث يذكر المزمور الأشجار المغروسة على مجاري المياه التي تُعطي الثمار في حينها، ثم نبوة حزقيال ٢٠: ٦، ٤٧: ٢٠. وحزقيال ٤٧ بالذات من أهم النصوص التي اعتبرها الآباء في عصر مبكر ذات دلالة على المعمودية المسيحية.

وهنا يُعلق كاتب الرسالة: "لاحظوا هنا كيف يصف المياه والصليب معاً في نفس الرمز، ومعناه هو مباركٌ الذي ينزل إلى المياه وقد وضع رجاءه في الصليب. ومن المؤكد أن كل نصوص العهد القديم حيث الشجرة "الخشبة" الصليب والمياه كانت تؤخذ على أنها إشارات واضحة للمعمودية التي تتم في المياه بقوة الصليب.

ومن برنابا انتقل المبدأ في تفسير الشجرة والمياه إلى يوستينوس الشهيد الذي يقول في حواره مع اليهودي تريفو: "رمى أليشع خشبةً في مجرى الأردن، وبهذه الوسيلة أخرج حديد الفأس من المياه التي احتاجها أبناء الأنبياء لقطع الخشب لبناء منزلهم، وهذا

يشير إلى أن المسيح قد فدانا في المعمودية من خطايانا الثقيلة، وبصلبه على الخشبة وبالمعمودية في المياه" (الحوار: ١٣٦: ٦).

بالطبع قد نسأل عن شرعية هذا التفسير، ولعل أفضل ما يقال هو نص ديديموس الضرير: "إذا جادل أحد ما بخصوص الفقرة (٢ ملوك ٦: ١ – ٧)، وقال إن هذه الفقرة ليست نبوة عن المعمودية، فلماذا إذن كُتِبَت هذه الفقرة في الأسفار المقدسة" (المرجع السابق).

وكأن ديديموس يقول لنا من جديد ما قاله أستاذه أوريجينوس: "ما معنى أن تكتب الأسفار أحداثاً معينة، وبطريقة معينة مثل استخراج حديد الفأس من المياه بواسطة قطعة من الخشب، أو عبور شعب إسرائيل في مياه البحر الأحمر. إن القيمة التاريخية لهذه الأحداث هي فيما تنبئ به لا فيما تسجله من وقائع، ذلك أن تسجيل الوقائع لمجرد التسجيل هو أمرٌ غريب عن طبيعة الأسفار المقدسة".

وهذا المبدأ يحكم تفسير بعض نصوص العهد القديم. وفي حوار الكنيسة مع المجمع اليهودي كانت هذه القضية موضع جدل عنيف حتى أن القديس إيسيذوروس يقول في رسالته ٩٣: "إن اليهود برفضهم التفسير المسيحي فقط لكل الإشارات والرموز والأمثال عن الأسرار وعن الكلمة ابن الله لم يرفضوا التفسير المسيحي فقط، بل رفضوا القيمة الأدبية لهذه النصوص المقدسة، فإذا لم يكن إسحق رمزاً للمسيح في أوجه معينة، فما قيمة النصوص الخاصة به بالنسبة للأممي، بل بالنسبة لليهودي. فقد أغلقوا الأسفار المقدسة برفضهم المسيح، ولكننا نحن فتحناها بالمسيح أو فتح الرب أذهاننا لنفهم الأساس الروحي للإيمان".

معجزات العهد الجديد والمعمودية

معجزة بيت حسدا:

سجّل إنجيل يوحنا معجزتين حدثتا عن المياه: مريض بيت حسدا، ثم الأعمى الذي اغتسل في بِركة سلوام. والمعجزة الأولى شرحها ترتليان في نص اقتبسناه من قبل، ولذلك يهمنا أن نقتبس الآن النصوص الأخرى من عند آباء القرن الرابع لكي نفهم علاقة المعجزتين بالمعمودية.

يقول يوحنا ذهبي الفم في تعليقه على نص يوحنا ٥: ١ – ٣ الخاص بِركة بيت حسدا: "ما هي طريقة الشفاء هذه؟ وأي سرٍّ تعلِنُه؟ لأن هذه الأمور لم تُكتب عبثاً أو بدون هدف، ولكن كما برمزٍ أو مثال يلخِّص ما سيأتي حتى لا يكون الجديد الآتي بدون أساس، ولا يأتي فجأةً وبدون مقدمات فيضر قوة الإيمان. فما الذي نراه هنا في هذه المعجزة مُلخَّصاً؟ معمودية ستُعطى لها قوة وعطايا عظيمة، معمودية لتطهير كل الخطايا، معمودية تجعل كل البشر الأموات أحياء. هذه الصورة نراها في المعجزة التي تمت بجانب البِركة وفي أمور أخرى متعلقة بها. أولاً المياه التي تعطى لتطهر كل أدناس أجسادنا وسائر الأدناس الأخرى التي تفوق تلك التي تحدث عنها العهد القديم مثل لمس الموتى ودنس البرص والأدناس الأخرى.

وفي العهد القديم رأينا بعض التطهيرات تتم بالمياه، لذلك علينا أن نتقدم لنرى هذا التطهير. أولاً أن الرب يجعل أدناس أجسادنا وسائر الضعفات الأخرى تزول بالمياه، وهذه إشارة إلى رغبة الله في أن يقرِّبنا من الإيمان بالمعمودية التي تشفي الجسد من الدنس ومن سائر الأمراض الأخرى، ولذلك فالأمثلة أو الرموز التي في العهد الجديد وهي قريبة جداً من الواقع الجديد، هي أوضح بكثير من تلك التي نراها في العهد القديم خصوصاً تلك المرتبطة بالمعمودية وبآلام المسيح وسائر الإعلانات الأخرى. وهذا يشبه تماماً وضع

حُراس الملك الذي يرون مجدهم في مجد يفوق غيرهم من الحراس، هكذا الرموز الخاصة بالعهد الجديد. كان ملاكٌ ينزل ويحرك المياه، وكان هدف كل هذا أن يمنح المياه قوة للشفاء. وفي هذا درس لليهود لكي يعلموا أن ضابط الكل إله الملائكة قادرٌ على أن يشفي أكثر، أي أمراض النفس، وليس من طبيعة المياه أن تشفي، ولو صح هذا لكان الشفاء يتم من وقت لآخر. لكن المياه كانت ترتبط بالقوة التي يمنحها الملاك، وهكذا في حالاتنا ليست المياه هي صاحبة الفاعلية، ولكنها تصبح فعالة متى قبلت نعمة الروح القدس عندئذ تزيل تماماً خطايانا". (عظة ٣٦ على إنجيل يوحنا).

من الواضح أن الذي يعطي للمعجزة هذا التفسير الطقسي هو القوة الشافية للماء، وهذا ما يؤكده ديديموس الضرير: "إن المسكونة كلها تتفق معنا في تفسير بيت حسدا على أنها إشارة إلى المعمودية. وهذا مجرد رمز وليس الحقيقة، لأن الرمز هو مؤقت أمَّا الحقيقة فهي أبدية. ولهذا السبب قيل إن مرةً في السنة كان الملاك ينزل ليحرك المياه، وكان مريضٌ واحد فقط هو الذي يشفى أي الذي ينزل أولاً، وكان الشفاء من الأمراض الجسدية وليس من الأمراض الروحية. لكن المعمودية الحقيقية التي تأسَّست بعد ظهور ابن الله وحلول الروح تحدث كل يوم، بل في كل ساعة وفي كل لحظة وتحرِّر إلى الأبد من الخطايا كل الذين ينزلون في المياه". (الثالوث ٢: ١١).

وفي نفس الخط يتحدث أمبروسيوس (الأسرار ٢: ٣)، وغريغوريوس النزينزي (مقالة على المعمودية). وإذا كانت القوة الشافية للمياه هي التي فتحت أسرار كلمات الإصحاح الخامس من يوحنا، فإن الحديث عن الشفاء بواسطة الملاك هو أيضاً مرتبط بالمعمودية، ذلك أن المعمودية هي مصالحة مع السمائيين، وسوف نترك هذه النقطة إلى أن يحين الجزء الخاص بالطقس القبطي.

شفاء المولود الأعمي:

وقد انفرد القديس كيرلس السكندري بتفسير المعجزة طقسياً أو ليتورجياً، ولا يجب أن ننسى أن الكنيسة القبطية تمارِس المعمودية في الأحد المعروف بأحد المولود الأعمى. ونظراً لأهمية هذه الممارسة، فإننا نقتبس النص كاملاً. ولعل انفراد القديس كيرلس بهذا التفسير يشرح الممارسة الخاصة بالكنيسة القبطية، وربما كانت المناسبة الطقسية هي التي أملت هذا التفسير على القديس كيرلس عمود الدين: "إذا قبلنا معجزة شفاء المولود أعمى كرمز لدعوة الأمم، فإننا سوف نخبر بهذا السر ومعناه، وفي إيجاز سوف نشرحه.

أولاً بعد أن ترك الرب هيكل اليهود رأى المولود الأعمى، وأيضاً لأن المناسبة نفسها تدعونا إلى تبني هذا التفسير؛ لأن الرب قام بالمعجزة دون أن يطلب أحدٌ منه ذلك، أو حتى يترجاه، قرر المخلص أن يشفي الرجل. لذلك علينا أن نعتبر أن المعجزة ترمز إلى ما ذكرناه. المعجزة ترينا أن جموع الأمم لم تترجَّ الله رغم أنهم كانوا في خطأ، لكن الله الصالح بالطبيعة، بإرادته وحده جاء وأظهر رحمته ناحيتهم؛ لأنه كيف يمكن أن يطلب اليونانيون الأمم الرحمة من الله، وقد أظلمَّتْ عقولهم بظلمة كثيفة جعلتهم غير قادرين على رؤية مَن هو النور. وهذا ما نراه بوضوح لأن الرجل الذي شُفي كان أعمى لا يعرف يسوع ولا يقدر على رؤيته، لكن بعمل محبة البشر حصل على رجاء عظيم، وهذا ما حدث للأمم بالمسيح. وقد حدثت المعجزة في يوم السبت؛ لأن السبت – وهو آخر أيام الأسبوع – يرمز إلى نهاية الدهر الذي ظهر فيه المخلِّص لكي يضيء للأمم. والسبت آخر أيام الأسبوع، والابن الوحيد سكن بيننا وأعلن ذاته للكل في نهاية الزمن وآخر دهور هذا الزمن الحاضر. أمَّا عن طريقة هذا الشفاء، فهي مدهشة وتجعلنا نصرخ ونقول: "يا رب ما أعظم أعمالك كلها ، بحكمةٍ صُنِعَتْ" (مزمور ١٠٤: ٢٤)، وربما سأل أحدهم لماذا – وهو القادر على إرجاع كل شيء إلى أصله بكلمة – مزج الطين بالبصاق

ودهن عيني المتألم، بل لم يكتف بهذا، بل قال له أذهب واغتسل في بركة سلوام؟ حقاً هناك معاني عميقة مختبئة في الكلمات؛ لأن المخلص لا يفعل شيئاً ما بدون هدف. لأن بالمسحة بالطين صنع عملاً صالحاً إذا أعاد أو أرجع ما كان ناقصاً في عيني الرجل، وهو بهذا أظهر لنا أنه هو الواحد الذي خلقنا من البدء وأنه خالق ومبدع العالم. بل أن قوة هذا الفعل تحتوي على معنى سري هام وهو سوف ما نشرحه.

لم يكن ممكناً للأمم أن ينزعوا العمى الذي أصابهم ليروا النور المقدس واللاهوت، أي يحصلوا على معرفة الثالوث الواحد القدوس إلَّا إذا اشتركوا في الجسد المقدس وغسلوا سواد خطاياهم جاحدين الشيطان، وكل سلطانه في المعمودية المقدسة.

لذلك عندما ختم المخلصُ الرجلَ الأعمى، كان هذا دلالة على السر الآتي، ولكنه دعَّم قوة اشتراكه في المسحة بالبصاق الخارج منه. وكان هذا علامة على الختم الذي سيعطى. وقد فسر المخلص هذا عندما أمره أن يمضي ويغتسل في سلوام، ومعنى الاسم فسّره الإنجيلي يوحنا؛ ولأنه حكيم جداً وموحى له بالروح القدس عرف أن تفسير معنى سلوام ضروري جداً. ومن هذا نستنتج أن معنى كلمة مرسل ليس سوى الابن الوحيد الذي افتقدنا وجاء من العلاء من الآب لكي يلاشي الخطيئة وقوة الشيطان الآسرة. ونحن نميزه كما لو كان ماشياً بطريقة غير منظورة على مياه جُرن المعمودية. نحن بالإيمان نغتسل ليس لإزالة وسخ الجسد كما هو مكتوب (١بط ٣: ٢١)، بل إزالة دنس وقذارة عيون عقولنا لكي نرى في المستقبل – بعدما تطهرنا وصرنا أنقياء – الجمال الإلهي نفسه". (الكتاب السادس يو ٩: ٦).

الفصل الحادي عشر

تقديس مياه المعمودية

تمهيد:

لعل أقدم دليل على تقديس مياه المعمودية هو نص القانون ١٩ في قوانين هيبوليتوس الذي يتحدث عن "ماءٍ مقدَّسٍ"، دون أن يعطينا القانون أي إشارة إلى نوع الصلوات التي كانت تقال، أو كيفية تقديس المياه. وعندما نقل المترجم الحبشي نص القوانين الرسولية شعر بغياب الإشارة الواضحة إلى تقديس المياه، ولذلك اقتبس من طقس الكنيسة عدة صلوات خاصة بطقس المعمودية دمجها في المتن الحبشي لقوانين الرسل، وهذه النصوص في غاية الأهمية لأنها في اعتبار المترجم جزءٌ من القوانين الرسولية. والنصوص تعود إلى القرن الرابع على أكثر تقدير ومن بينها نصوص صلوات متشابهة جداً مع الطقس القبطي الحالي، وهذا في حد ذاته يقطع بأصالة الطقس القبطي.

لماذا تُقدَّس المياه؟

يقول أكليمنضس السكندري: "المسيح اعتمد لكي يقدِّس المياه للذين سيولدون من جديد" (Ecl.Prop 7). وكأننا هنا نلمس معنى ما شرحه الآباء من رموز المعمودية في العهد القديم بنوع خاص، وهو اليوم الأول للخلق، عبور البحر الأحمر، عبور الأردن، ذبيحة إيليا، شفاء نعمان السرياني، ثم معجزات الشفاء المقترنة بالمياه في بيت حسدا والمولود أعمى. في كل هذه المعجزات من اليوم الأول للخلق حتى معمودية المسيح كانت المياه تقوم بدور فعال خلاصي في التطهير والتقديس والخلق من جديد. ولعل النص

الطويل الذي أخذناه عن أوريجينوس في الفصل السابق هو مفتاح الموضوع الذي ندرسه الآن، ذلك أن كل ما ارتبط بالمياه أخذ معناه من معمودية المسيح في الأردن وليس العكس.

والمبدأ اللاهوتي الهام الذي يفسر أحداث الخلاص هو **أن العالم القديم البالي الذي شاخ وسادت عليه الخطيئة هو نفسه وفيه حلَّ الجديد، أي المسيح الذي امتد حلوله ليشمل الجنس البشري في الكنيسة.**

المسيح هو الخميرة التي تخمِّر العجين كله، هذه الخميرة وُضعت في العجين لكي تنتشر فيه وهكذا يقول أشعياء: "لا تذكروا القديم ولا الأشياء التي مضت لأنني سأصنع شيئاً جديداً" (أش ٤٣: ١٨ - ١٩). وعندما يأتي الجديد، فإنه لا يأتي من لا شيء، إنه خلقٌ جديد أي تجديد القديم. الجديد يبدأ من القديم ولذلك يعطي للقديم المعنى والغاية، أي يفسره.

ولعل أفضل مثال هو الأحداث التي لعبت فيها المياه دوراً هاماً للخلاص. ما قيمة عبور الشعب من مصر إلى سيناء؟ هناك قيمة تاريخية محدودة، وهي الخروج من العبودية إلى الحرية، وهناك قيمة لاهوتية أبدية، وهي الخروج من عبودية الخطيئة والأرواح النجسة إلى الحياة مع الله. لكن على أي أساس حدَّد الآباء المعنى اللاهوتي الأبدي إلَّا على أساس ما حدث في نهر الأردن وهو معمودية المسيح؟ ... عندما اعتمد المسيح حلَّ عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة، ومن يمكنه أن ينسى أن هناك حمامةً جاءت تحمل السلام بعد الطوفان، وأن نوحاً الحقيقي جاء لكي يبشِّرنا بالخلاص من الغضب الآتي ومن الدينونة.

وفي مقالة ترتليان عن المعمودية يتتبع دور المياه في الخلق الأول ثم في الخلق الثاني، وهكذا تحدث كل الآباء. المياه تعمل بواسطة الروح القدس في الخلق الجديد لكي تخلق من جديد النفس والجسد في المعمودية هذه المرة لا في الفردوس.

وتقديس المياه لا يعني بالمرة أن المياه نجسة، ذلك أن كلمة تقديس تعني أحياناً تخصيص أو اشتراك في عمل إلهي يستدعي التسليم المطلق لله. وتقديس المياه يعني أن تنال المياه قوة إلهية ليست من طبيعة مخلوقة، بل هي قوة غير طبيعية أي ليست من طبيعة المياه لكي تلد النفس والجسد، وهذا ما نراه واضحاً من نصوص الآباء عن المياه التي وصفها ترتليان بأنها منذ اليوم الأول للخلق هي عرش الروح القدس، وهي التي أغرقت فرعون وجيشه، أي الإنسان العتيق والأرواح النجسة، وأعطت شعب الله الخلاص.

معمودية المسيح كأساس لاهوتي لتقديس المياه:

عندما نزل الرب إلى المياه، فقد طهَّر المياه وقدَّسها. وهناك اتجاهان أساسيان هما معمودية المسيح والصليب، وهما أصلاً متصلان تماماً (راجع نص أوريجينوس الذي يتحدث عن معمودية المسيح التي تكمل على الصليب). عندما نزل الرب إلى مياه الأردن قدَّس هو بنفسه هذه المياه، وعندما حلَّ عليه الروح فقد حلَّ عليه وعلى مياه الأردن وقدَّسها. ومن أهم النصوص القديمة التي تربط بين المعمودية وآلام المسيح هو ما يذكره أغناطيوس الشهيد: "إن روحي ضحية الصليب، والصليب هو عثرة لغير المؤمنين. أمَّا لنا نحن فهو خلاص وحياة أبدية. أين هو الحكيم؟ أين المجادل؟ أين بطلان من يُدعَونَ علماء؟ لأن إلهنا يسوع المسيح قد حمله حشا مريم بحسب التدبير الإلهي فوُلد من نسل داود ومن الروح القدس. وُلد واعتمد ليطهر المياه بآلامه" (الرسالة إلى أف ١٧: ١٨).

وهذا النص أقدم من نص أكليمنضس السكندري الذي أشرنا إليه قبلاً. وهو هنا يؤكد الارتباط الواضح بين معمودية المسيح وتطهير المياه بموت المسيح، وهنا نرى الارتباط الواضح بين المعمودية والصليب، وهو ما سنراه بكل وضوح عند آباء القرن الرابع والخامس.

يقول ترتليان: "اعتمد المسيح أعني طهَّر الماء بعماده" (ضد اليهود: ٨).

ويقول كيرلس الأورشليمي:"المسيح قدَّس المعمودية باعتماده هو نفسه. ولم يعتمد لكي ينال غفران الخطايا لأنه بلا خطيئة، ولكن لأنه اعتمد، فقد منح للذين يعتمدون نعمةً فائقةً إلهيةً؛ "لأنه إذ اشترك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو فيما" (عب ٢: ١٤). لأننا إذ اشتركنا في حضوره في الجسد نشترك أيضاً في نعمته الإلهية، لهذا اعتمد يسوع لكي نشترك نحن أيضاً في الخلاص والكرامة. وحسب أيوب يوجد في مياه الأردن التنين الذي يتدفق الأردن في فمه (أي ٤٠: ٢٣)، ولذلك كان من الضروري أن يكسر رؤوس التنين على المياه (مزمور ٧٤: ١٤). لذلك نزل وربط القوى في المياه لكي ننال القوة لندوس على الحيات والعقارب (لوقا ١٠: ١٩). وكان الوحش هائلاً ومخيفاً لم تقدر أي مركب صيد أن تحمل فقرة واحدة من ذيله (أي ٤٠: ٢٦). "الدمار جرى أمامه" (أي ٤١: ١٣)، لأنه ابتلع كل الذين قابلوه. لكن الحياة نزلت لكي تصارعه لكي يغلق الموت فمه، ولكي يقول كل الذين يخلصون: "يا موت أين شوكتك يا قبر أين غلبتك" (١ كورنثوس ١٥: ٥٥)، "الموت أغرقك في المعمودية لأنك تنزل إلى المياه مثقَّلاً بخطاياك، لكن استدعاء النعمة ختم نفسك، ولذلك لا تخف لأن التنين لن يستطيع أن يبلعك" (مقالة ٣: ١١ – ١٢).

وقبل هذه الفقرة الهامة عن معمودية المسيح، يقول القديس كيرلس: "المياه البسيطة بعد استدعاء الروح القدس والمسيح والآب، تتقبل قوة جديدة للتقديس" (٣: ٣٠).

ومن الواضح أن عمل الروح القدس في مياه المعمودية تؤكده معمودية المسيح نفسها حيث حلَّ الروح القدس عليه وعلى المياه، وهو ما يجعل الكنيسة تستدعي الروح القدس في خدمة المعمودية.

يقول القديس أبيفانيوس: "المياه وحدها لا يمكن أن تطهرنا، ولكن القوة التي في المياه، ثم الإيمان وعمل الله والرجاء في القوة التي تكمِّل الأسرار أي دعاء مصدر القداسة" (عظة ٥ على الروح القدس).

ويقول القديس باسيليوس في تفسيره (مزمور ٢٩: ١٠): "الرب جلس في الطوفان، وجلس ملكاً إلى الأبد". الرب يجلس في الطوفان لأن الطوفان هو مقدارٌ هائلٌ من الماء يجعل كل شيء تحته يختفي، بل أنه يطهر كل الذي تدنس. لذلك نعمة المعمودية هي الطوفان؛ لأن النفس التي اغتسلت فيها تتطهر تماماً من أدناسها، بل خلعت الإنسان العتيق وصارت أهلاً لحضور الله في الروح القدس، والرب سيجلس ملكاً إلى الأبد، أي في النفس التي تشع نوراً وهي خارجة من الطوفان (مياه المعمودية) لأن الله يؤسِّس هناك عرشه".

وهنا يجب أن نؤكد قبل أي شيء آخر أن الآباء يؤكدون تقديس المياه من أجل التأكيد على قداسة النفس والجسد معاً، ولذلك كان من الضروري أن نضع هذا النص في مقدمة النصوص الأخرى التي تتحدث عن تقديس المياه.

يقول غريغوريوس النيسي: "اليوم اعتمد (يسوع) من يوحنا لكي يطهر الذي تدنس ولكي يجعل الروح ينحدر من فوق لكي يرفع الإنسان إلى السماء، وذلك لكي يرفع الساقط الذي سقط ونال العار. المسيح أصلح كل الشرور، فأخذ البشرية الكاملة لكي يخلص البشرية، ولكي يصبح مثالاً لكل واحد منا، ولذلك فهو يقدس باكورة وثمار كل عمل يقوم به لكي يترك لعبيده غيرة حسنة بلا شك في اقتفاء أثره. الروح يقدس الجسد الذي يعتمد والماء الذي يعمد.

لا تحتقر الحميم الإلهي ولا تظن أنه شيءٌ بسيط لأنه يتم في المياه؛ لأن القوة التي تعمل عظيمة وثمارها عجيبة. المذبح المقدس الذي أنا واقف أمامه هو حجر، وهو كحجر لا يختلف عن أي حجر تستخدمه في بناء المنازل، أو تزيين أرصفة الشوارع،

لكن عندما تخصَّص لخدمة الله ونال البركة، أصبح مائدةً مقدسةً ومذبحاً غير دنس حتى أنه لا تلمسه إلَّا أيدي الكهنة فقط وليس أياً من الشعب، وعندما يلمسه الكهنة فإنهم يلمسونه بخشوع. الخبز حتى لحظة معينة هو خبز عادي، ولكن عندما يتم العمل السري ويقدَّس يُدعى، بل ويُصبح جسد المسيح. هكذا الزيت السري (الميرون) والخمر قبل التقديس لا قيمة لها، لكن بعد التقديس الذي يعطيه الروح لهما مفاعيل كثيرة... هكذا المياه وهي عنصر عادي لكنها تجدد الإنسان وتلده الميلاد الروحاني عندما تحل عليها النعمة التي من فوق وتقدسها". (عظة على معمودية المسيح).

ويشير كبريانوس الشهيد إلى الطقس بصور أوضح، فيقول: "تتطهر المياه أولاً ثم تتقدس ثانياً بواسطة الكاهن لكي ما يُصبح لها قوة المعمودية لكي تغسل خطايا الإنسان" (الرسالة ٧٠). وفي رسالته إلى مجمع قرطاجنة يقول كبريانوس: "تتقدس المياه بواسطة صلاة الكاهن لكي ما تُغسل كل الخطايا".

الصليب والقيامة قوة تقديس مياه المعمودية:

لم يؤكد الآباء عمل الروح القدس فقط، بل أكدوا حضور المسيح نفسه، المسيح المصلوب والقائم من بين الأموات. يقول يوحنا ذهبي الفم: "على الفور إنك تأخذ الرب نفسه. إنك تتحد بجسده، بل تُصبح معه نسيجاً واحداً مع جسده الذي هو فوق" (عظة ٦ على كولوسي ١: ٢٠).

Thou takes into thee the lord himself, thou art minglod with his Body, thou art intermixed with that Body that lieth above.

وفي عظة أخرى يقول ذهبي الفم: "الذين اعتمدوا لبسوا الثوب الملوكي الأرجواني الذي غُسل في دم الرب" (عظة ٤٠ للمستنيرين). ويُوضح ذهبي الفم معنى هذا في نصٍ فريد

هام: "الذين لبسوا المسيح في المعمودية لم يلبسوا لاهوته فقط ولا ناسوته فقط أي جسده، بل الاثنين معا" (عظة ٢٧ على الصليب).

إننا في المعمودية نشترك في موت المسيح وفي قيامته، أي نشترك في جسده، فالاشتراك في جسد المسيح لا يتم في الإفخارستيا فقط، بل هو يبدأ في المعمودية، والذي يؤكد هذا المعنى هو الإصحاح السادس من رومية، لذلك يُعلق يوحنا ذهبي الفم على هذا الإصحاح وبالذات (رو ٦: ٥): "إذا كنا قد زُرعنا (دُفنا) معه في شبه موته، يكون لنا أيضاً شبه قيامته. هنا نلاحظ كيف يحرِّض الرسول بولس سامعيه على أن ينظروا إلى سيِّدهم مباشرةً، ولهذا أجهد نفسه في تأكيد التشابه معه. ولهذا السبب لا يتحدث عن موته حتى يُفزع أحداً، بل عن شبه موته لأننا أنفسنا لم نمت، بل إنسان الخطيئة. وهو لا يقول بالمرة "إذا كنا شركاء شبه موته"، بل إذا كنا زُرعنا أو دُفنا معه لأنه عندما أشار إلى الزرع أو الدفن ضمَّن هذا شيئاً عن الثمار الناشئة عنه. لأنه كما دفن جسده في الأرض وأعطى ثمار الخلاص للعالم، هكذا نحن أيضاً عندما نُدفن في المعمودية، نثمر للبر والتقديس والتبني وبركات لا تُحصى، ثم نعمة القيامة في الدهر الآتي.

نحن نُدفن في المياه، أمَّا هو ففي الأرض. نحن بسبب الخطية، أمَّا هو فلأنه أخذ جسداً. ولهذا لم يقل الرسول إذا كنا زُرعنا معه في موته، بل في شبه موته. لكن كلا الحالتين موت، لكن الموت مختلف... ولأننا بصدد موضوع المعمودية قال بولس الرسول قبلاً: "أما تعلمون أيها الأخوة أن الذين اعتمدوا ليسوع قد اعتمدوا لموته"، وهو لهذا لم يُشِر صراحةً إلى القيامة، بل إلى طريقة الحياة بعد المعمودية وهو السلوك في الحياة الجديدة. والرسول لا يقول إننا صُلبنا، بل صُلبنا معه، وهو لهذا يقرِّب المعمودية من الصليب، ولهذه النتيجة قال سابقاً إننا زرعنا معه في شبه موته لكي يهلك جسد الخطيئة، وهو هنا لا يتحدث عن أجسادنا الحالية، بل عن الشر كله لأنه يسمي الشر كله الإنسان القديم العتيق" (العظة الحادية عشر على رومية).

وما يؤكده يوحنا هنا هو اشتراك البشرية في شبه صلب الرب، أي في نتائج الموت والقيامة. والذين يفشلون في فهم علاقة الصليب بالمعمودية هم الذين يظنون أن المعمودية اغتسال عادي في المياه.

إن الذي اختار الصليب هو الرب، وهو الذي أسَّس الخلاص، وجعل المعمودية طريقاً سرياً للإتحاد بشبه موته. علينا أن لا نتصور المعمودية كحدث بعيد عن الصليب منفصل عنه؛ لأننا إذا تصورنا ذلك نكون قد جعلنا من المعمودية شيئاً طبيعياً من عمل الناس وليس عملاً إلهياً.

المعنى اللاهوتي والطقسي لتقديس مياه المعمودية:

إن قوة الله الخالقة التي تعمل في الطبيعة وتجدِّدها، هي التي تعمل في المياه لكي تجعلها مياهً خالقة، قادرة بالروح القدس على أن تحول الإنسان من الموت إلى الحياة. لذلك ارتبط معنى تقديس المياه بطقس خلع الملابس والتعري التام، أي التنازل المطلق عن الحياة القديمة، فالموعوظ لا ينزل إلى مياه المعمودية إلَّا بعد أن يتعرى تماماً. وهنا يرتبط المعنى الطقسي، ليس فقط بالتجرد عن الحياة القديمة، بل بالولادة أيضاً. ولذلك ربط الآباء بين عُري آدم الذي جاء نتيجة السقوط، وبين العُري الذي نعراه قبل النزول إلى مياه المعمودية لكي نرتدي الطبيعة الجديدة البهية التي تُوهَب لنا في المياه بالروح القدس. وخلع الإنسان العتيق مع شهواته (كولوسي ٣: ٩)، يُعَبَّر عنه بخلع الأعمال الشريرة مع الملابس. لكن خلع الملابس يعقبه مباشرةً النزول في مياه المعمودية لكي يرتدي الإنسان الملابس الجديدة، أي الحياة الجديدة، أي المسيح نفسه.

يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "حينما تدخلون وتنزلون إلى جُرن المعمودية تخلعون ملابسكم، وهذه صورة لخلع الإنسان العتيق مع شهواته" (تعليم الموعوظين ٢: ٢).

وبعد ذلك يشرح القديس كيرلس مَثَل وليمة العُرس (مت ٢٢: ١ - ١٤)، حيث دخل أحدهم ولم يكن عليه ملابس العرس، والمقصود هنا هو ثوب المعمودية الذي يثمر للأعمال المصالحة، كذلك فإن الدخول إلى هذه الوليمة لارتداء ملابس العرس لا يتم إلَّا بالاغتسال في المياه المقدسة، التي نالت قوة الروح القدس، وهو ما يجعل المياه في جُرن المعمودية ليست مجرد مياه تنتمي إلى الطبيعة القديمة المخلوقة التي لا تستطيع أن تمنح الإنسان الحياة الجديدة الآتية من الآب في الابن وبالروح القدس.

المياهُ كعنصرٍ ينتمي إلى الخليقة، يعجز وحده على أن يعطي الإنسان الطبيعة الجديدة البهية، وهذا ما جعل الآباء جميعاً يتحدثون عن قذارة النفس والجسد التي سوف تُغسل منها النفس في مياه المعمودية. وهنا نرى بوضوح أن تقديس المياه جزء جوهري في الطقس ارتبط ارتباطاً كبيراً بأحداث الخلاص في العهدين. وما الرموز التي دلَّت على الخلاص الآتي الذي أكمله المسيح مثل عبور البحر الأحمر وعبور الأردن... الخ، إلَّا دلالةً على تقديس مياه المعمودية في العهد الجديد. وعلى الرغم من أن المياه في القصص الرمزية في العهد القديم لم تحتوِ على إشارة إلى التقديس، إلَّا أن الوضع في العهد الجديد اختلف تماماً، فغاية الخلاص هو التقديس، ولذلك لا نستطيع أن ننسب تقديساً إلى المياه بدون تدخل الروح القدس. وإن ما سوف يحدث في مياه المعمودية يمكن أن نوجزه فيما يلي:

أولاً: صارت المياه المقدسة قبراً ورَحِمَاً، وهذا يفسر كيف يحدث الميلاد الجديد. إن الطبيعة الإنسانية القديمة تموت في المعمودية، وتقوم مع المسيح. فالموت هو شركة في صليب المسيح، وعندما يغطس المعتمد في المياه المقدسة، تموت الطبيعة الإنسانية الجديدة.

يقول أميروسيوس: "ما هو الميلاد الثاني؟ إن الرد موجود في سفر أعمال الرسل حيث قيل في ذلك الاقتباس من المزمور الثاني: "أنت ابني وأنا اليوم ولدتك" (مز ٢: ٧)،

وهو النص الذي يشير إلى القيامة، والقديس بطرس فسّر النص في سفر الأعمال على هذا النحو. فعندما قام الابن من بين الأموات سمع صوت الآب: "أنت ابني وأنا اليوم ولدتك" (أع ١٣: ٢٣). ولذلك قيل إنه البكر من بين الأموات (كولوسي ١: ١٨). فما هي القيامة سوى أن نقوم من الموت إلى الحياة، وهكذا في المعمودية وهي مثال موتنا، عندما نغطس في المياه وهي مثال قيامتنا، وحسب تفسير بولس. فكما أن القيامة هي ميلادٌ جديد، هكذا القيامة من جُرن المعمودية هي ميلاد جديد". (مقالة عن الأسرار ٣: ٢).

فإذا كانت القيامة هي ميلاد، والمسيح هو البكر من بين الأموات، فمن الواضح أن كل صلوات التقديس تُشير إلى الحياة الجديدة التي سوف تُبعث من المياه (تك ١: ٢٠ - ٢٢).

ثانياً: إن حلول الروح القدس على المياه هو عودة لميلاد المسيح من العذراء. يقول أميروسيوس: "كيف تُولَدون؟ أنتم لا تدخلون إلى بطون أمهاتكم لكي تولدوا من جديد (يوحنا ٣: ٤)، فالقانون الطبيعي للولادة لا محل له هنا، وإنما النعمة الفائقة... إننا نعترف أن المسيح ربنا قد حَبِلَت به العذراء، وننكر أن يكون في بطنها حسب قوانين الطبيعة، فمريم لم تحبل بزرع رجل، وإنما قبلت الروح القدس في بطنها... وباليقين لا يجب أن يبقى عندكم شك في أن الروح القدس سيأتي إلى جُرن المعمودية وسيحل على الذين يعتمدون لكي ينالوا يقين الميلاد الجديد". (مقالة عن الأسرار: ٥٩).

إن ميلاد المسيح من العذراء، الذي تم بحلول الروح القدس هو المعجزة التي تتم في المعمودية، وهي المعجزة التي تفتح الطريق للموت والقيامة، وهو ما يؤكده القديس كيرلس الأورشليمي أيضاً لأن معجزة الميلاد من الماء والروح تأخذ قوتها من ميلاد المسيح من العذراء والروح القدس (تعليم الموعوظين ٣: ٣).

التحول الذي يحدث في المياه:

المياه في جُرن المعمودية بعد استدعاء الروح القدس لا تصبح مجرد مياه عادية، بل مياه خالقة. ومع وفرة المصطلحات اللاهوتية التي استخدمها الآباء، يهمنا أن نقف عند بعضها لكي نفهم ماذا حدث لمياه جُرن المعمودية. فقد أكد الآباء أن التغيير الذي حدث في ناسوت ربنا يسوع المسيح بسبب اتحاد اللاهوت به، هو ذاته الذي يحدث لمياه المعمودية عند حلول الثالوث عليها ومجيء الابن في الروح القدس لكي يقدسها.

فالماء مثل ناسوت ربنا يتحول بقوة اللاهوت إلى عنصر حياة، والمقارنة الإفخارستية أيضاً أساسية. فالقوة الأساسية هي قوة اللاهوت التي جعلت جسد الابن مصدر حياة. وبسبب إتحاد اللاهوت بالناسوت في ربنا له المجد، صارت المياه مثل الخبز والخمر قادرة على أن تأخذ هبات الحياة والخلاص من اللاهوت.

وحسب تشبيه القديس كيرلس الأورشليمي: "الحديد الذي يوضع قريباً من النار يصبح بدوره ناراً" (تعليم الموعوظين ١٨: ١٨). وهكذا مياه المعمودية، تنال قوة الروح القدس، وقوة حياة الابن وقيامته لكي تُصبح قادرة على أن تجدد الإنسانية. ويكفي في هذا المجال أن نقتبس من القدس كيرلس السكندري الذي شرح اتحاد اللاهوت بالناسوت بكل وضوح ودقة.

يقول القديس كيرلس: "حيث أن الكلمة الله هو الحياة، فقد جعل القابل للفساد جسده، لكي يكسر فيه قوة الموت التي فيه، ويحوله إلى عدم فساد" (العظة ١٧: ٢٣٣).

فالناسوت تحوَّل. والكلمة اليونانية هي μεταστοσχειωση وتعني التحول من ذات عنصر الناسوت إلى عنصر عدم الفساد. والقديس كيرلس يستخدم هذه الكلمة عدة مرات للكلام عما حدث لناسوت المسيح: "ولكي ما يقدمنا للآب، بعد أن حررنا من ذنوب الخطايا القديمة **حوَّلنا** إلى حياة جديدة بالروح القدس". (على الإيمان الصحيح ٣:

١٦٧). ويقول القديس كيرلس: "كيف تم هذا التحول؟ الكلمة الذي من الله الآب وُلد بيننا حسب الجسد، لكي ما نولد نحن من جديد من الله بالروح القدس، فلا نُدعى بعد أبناء الجسد، وإنما **نتحول** إلى ما هو فوق الطبيعة μεταστοιχειουμενοι وندعي أبناء الله حسب النعمة" (ضد نسطور ٣: ٢).

فالتحول حدث أولاً في المسيح عندما وُلد من العذراء وصار جسده غير خاضع لقوانين الطبيعة بسبب اتحاده باللاهوت وهو ما جعله – أي الجسد – يتكون بقوة الروح القدس، ثم مات هذا الناسوت، فتحول إلى قوة قاهرة للموت بفضل الاتحاد وبالقيامة. وهكذا يرى القديس كيرلس "أن المسيح تألم ومات حسب التدبير الخاص بتجسده، لكي يدوس الموت تحت قدميه، ويقوم لأنه بالطبيعة الحياة والمحيي، ولكي **يحول** إلى عدم فساد، ذاك الذي استعبده الموت أي الجسد" (ضد نسطور ٥: ٢). وهكذا، فإن ما حدث لناسوت المسيح يحدث لمياه المعمودية.

ويقول القدس كيرلس السكندري: "لأنه بالروح تتقدس روح الإنسان، والجسد يتقدس بالمياه المقدسة. لأن المياه التي توضع في قِدر على النار تلامس النار، فتأخذ لنفسها قوة النار، وهكذا بواسطة عمل الروح القدس **تتحول** المياه الطبيعية إلى قوة إلهية لا يُنطق بها، وتقدِّس إلى الأبد الذين يغطسون فيها" (تفسير يوحنا ٣: ٥ مجلد ٤ صفحة ١٤٧).

ومن الواضح أن تحول المياه αναστοιχειουται هو نفس التحول بقوة الروح القدس الذي يحدث في ناسوت المسيح والإفخارستيا[١]. وسوف ندرس هذه النقطة بتوسع عندما ندرس صلوات تقديس مياه المعمودية في الطقس القبطي، لأننا سوف نرى أن التحول الذي يحدث في المياه هو بذاته الذي يحدث للذين يعتمدون.

---

(١) راجع دراستنا عن الاستحالة في كتاب "شرح القداس الباسيلي" منشور على موقع www.coptology.com.

الفصل الثاني عشر

التغطيس

تمهيد:

ارتبط التغطيس في الكنيسة بالتجديد. والتعري الكامل هو خلع الإنسان العتيق. يقول ذهبي الفم: "تصبحون عُراة مثل آدم في الفردوس مع الفارق: إن آدم أخطأ، أمَّا في المعمودية فالإنسان يتعرى لكي يتحرر من الخطيئة. ولكن آدم فقد مجده، أمَّا من يأتي إلى المعمودية فهو يخلع الإنسان العتيق بسهولة كما يخلع ملابسه" (العظة ٦ على كولوسي). وهذا يؤكد لنا أن التغطيس الكامل في المياه مرتبط بخلع كل الملابس والعودة إلى آدم.

ويربط القديس أمبروسيوس بين خلع الملابس ومجيء الإنسان إلى الحياة عرياناً: "نحن نأتي إلى جُرن المعمودية عراةً كما نأتي إلى العالم" (عظة ٢٠).

ويربط القديس كيرلس الأورشليمي بين خلع الملابس وصلب المسيح، ويوجِّه حديثه إلى الذين يستعدون للمعمودية: "عندما تأتون إلى المكان الذي توجد فيه المعمودية سوف تخلعون ملابسكم، وهي علامة على خلع الإنسان العتيق مع كل أعماله. وعندما تخلعون ملابسكم سوف تقفون عُراة مثل المسيح الذي كان عارياً على الصليب، ولكنه بعُريه فضح الرؤساء والقوات جهاراً وانتصر عليهم بالصليب. يا للعجب أنتم في نظر الناس عُراة دون أن تخجلوا، وبهذا أنتم تتمثلون بالإنسان الأول آدم الذي كان عارياً في الفردوس ولم يخجل" (التعليم للموعوظين ٢: ٢).

ويقول القديس أثناسيوس شارحاً جريمة الأريوسيين وكيف هجموا على الكنيسة في الإسكندرية: "واتفق اليهود والأمم وهجموا على المعمودية للسخرية من الموعوظين

الذين كانوا عُراة في تلك اللحظة، فكان عملهم بذلك خجلاً وعاراً لا يمكن وصفه" (رسالة إلى الأرثوذكسيين).

والتغطيس أيضاً يحمل معنى الدفن والموت مع المسيح، وهذا أحد عناصر المعمودية التي بدونها تفقد المعمودية جمالها وروعتها. وهذا الطقس يعود إلى الرسل مباشرة: "دُفنا معه في المعمودية" (روميه ٦: ٤، كولوسي ٢: ١٢). وهكذا فهمت الكنيسة حديث الرسول بولس عن الدفن مع المسيح.

يقول ذهبي الفم: "عندما نعتمد نغطس في المياه فنُدفن ولكننا نقوم. وهو رمز لنزولنا إلى الجحيم أو القبر، بينما الصعود من المياه هو عودتنا. ولهذا السبب يُسمي الرسول بولس المعمودية بالدفن" (عظة ٤٠ على كورنثوس الأولى).

ويقول ذهبي الفم أيضاً: "عندما نغطس في المياه إلى رؤوسنا كما لو كنا في قبر، فإن الإنسان القديم يُدفن، وعندما نقوم، يقوم الإنسان الجديد" (عظة ١٠ على يوحنا ٣: ٥).

وبجانب الدفن والموت مع المسيح هناك أيضاً التعميد بالروح القدس. يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "لأن كل من ينزل إلى المياه يعتمد، وتحيط به المياه من كل جانب، وهكذا يُعمِّد الرسل بالروح القدس. وكما تحيط المياه من الخارج بالجسد، يُحيط الروح القدس بالنفس بطريقة فائقة، ويعمدها" (تعليم الموعوظين ١٧: ٨).

وإذا تذكرنا أن الاعتراف بالإيمان كان أصلاً يتم أثناء التغطيس في المياه، وكان الجسد كله يغطس، أدركنا أن المعنى الطقسي هو أن الإنسان لا يغطس جسداً فقط، بل نفساً أيضاً، وهو ما أعطى لتقديس المياه اسم معمودية الروح القدس.

المعاني المرتبطة بالتغطيس

أولاً: الإيمان بالثالوث:

كما رأينا سابقاً في الفصل الخاص بقوانين الإيمان، كان الاعتراف بالآب والابن والروح القدس هو أساس الغطسات الثلاث.

يقول العلامة ترتليان: "نحن لا نغطس مرةً واحدة، بل ثلاث مرات عندما نذكر اسم كل أقنوم من أقانيم الثالوث" (ضد براكسيان: ٢٦).

ويقول ديونيسيوس الأريوباغي: "إن كل غطسة تتم بذكر كل أقنوم من أقانيم الثالوث" (رئاسة الكهنوت ٢: ٥٤).

لكن الغطسات الثلاثة تعني أيضاً الدفن والقيامة مع المسيح. يقول غريغوريوس النيسي: "نحن نُدفن في الماء كما دُفن المسيح في القبر، وعندما نغطس ثلاث مرات نعبِّر بذلك عن قبولنا نعمة القيامة التي ظهرت بعد ثلاثة أيام" (عظة على معمودية المسيح: ٥).

ويربط القديس أوغسطينوس بين الاعتراف والإيمان بالثالوث، والموت مع المسيح: "سران في طريقة التعميد: الغطسات الثلاثة وهي رمز للإيمان بالثالوث المقدس الذي باسمه نعتمد، وكذلك رمز للدفن مع الرب وقيامته في اليوم الثالث لأننا نُدفن مع المسيح ونقوم معه بالإيمان" (عظة ٣).

وهناك نصٌ هام آخر للقديس جيروم يقول فيه: "نحن نغطس ثلاث مرات، لكن سر الثالوث هو واحد؛ لأننا لا نعتمد بأسماء ثلاثة آلهة، بل باسم الإله الواحد، ورغم أننا نغطس ثلاث مرات تحت الماء، إلَّا أننا نؤمن بمعمودية واحدة" (تفسير رسالة أفسس ٢: ٤).

فللغطسات الثلاث أهمية كبرى عند الآباء، مما جعل القديس يوحنا ذهبي الفم يقول: "لقد سلّم المسيح لتلاميذه معمودية واحدة بغطسات ثلاث، عندما قال لهم:

اذهبوا وعمدوا كل الأمم باسم الآب والابن والروح القدس" (عظة ٧ على قانون الإيمان – راجع أيضاً قانون ٤٩ من قوانين الرسل).

ولذلك، فقد صارت الغطسة الواحدة أو الغطستين تحمل معنى معمودية لموت المسيح فقط أو إنكار الثالوث.

ثانياً: التغطيس هو موت وقيامة وتجديد بالروح القدس في نفس الوقت:

إذا كانت كلمة يُعمِّد اليونانية تعني أن يغمر شيئاً في الماء، وتعني الغسل أو التطهير، صار من الواضح أن الأفعال الخاصة بالمعمودية ليست سوى جوانب متعددة لحقيقة واحدة. فالغسل أو التطهير هو القضاء على الطبيعة القديمة، ذلك أن الاغتسال هو إزالة القذارة، والاغتسال ليس سوى تطهير، وهو بذاته أيضاً التجديد. هذا هو المعنى الظاهر من النصوص الأساسية عند القديس بولس الرسول في رو ٦: ١ – ٨، أف ٥: ٢٦، عب ١٠: ٢٢. ونظرة فاحصة لنص رومية ٦: ١ – ٨ نجد أن التطهير هو الصَلب، وهو إحلال طبيعة المسيح الجديدة محل الطبيعة الإنسانية الميتة. وعلينا أن نتذكر أن الغسل بالماء يقتضي الدفن، وهو ما يعني أن لا نُفرق بين غسل ودفن، وهو أيضاً معنى الولادة الجديدة، التي لا تحدث قبل القضاء على الطبيعة القديمة الميتة.

وهكذا مع تعدد هذه الجوانب علينا أن نرى بوضوح أن شرح الآباء لكل هذه الأعمال التي تتم في آنٍ واحد، اعتمد على الطقس كوسيلة هامة تؤكد جوانب سر المعمودية.

ويشرح القديس كيرلس الأورشليمي المعمودية على أنها: "فداء الأسرى، مغفرة التعديات، موت الخطية، الميلاد الثاني للنفس، ثياب النور، ختم مقدس لا ينحل، مركبة إلى السماء، فرح الفردوس، عربون الملكوت، نعمة التبني" (مقدمة تعليم الموعوظين: ١٦).

هذه الأوصاف لا تشرح شيئاً أو حدثاً بسيطاً، بل حدثاً مركباً، فالقديس كيرلس كان يمارِس المعمودية على نفس البقعة التي صُلب فيها المسيح ومات وقام، أي

كنيسة القيامة. وهنا تجتمع كل نصوص العهد القديم والجديد لكي تشرح ذلك السر الرهيب.

ومثل كيرلس، يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "هذا الاغتسال يُدعى حميم الميلاد الجديد (وطبعاً هنا الإشارة إلى تيطس ٣: ٥)، ويدعى المعمودية (غلا ٣: ٢٧)، ويدعى دفناً (رو ٦: ٤)، وختاناً (كولوسي ٢: ١١)، وصليباً (رو ٦: ٦)" (تعليم الموعوظين ١: ١٢).

هذه الأسماء هي ملخص لما جاء في رسائل القديس بولس وباقي أسفار العهد الجديد. يقول ذهبي الفم: "بالأمس كنتم أسرى. أنتم الآن أحرار وموطنون في الكنيسة. في الماضي عِشتم في عار خطاياكم، ولكن الآن تعيشون في الحرية والبر. أنتم الآن لستم فقط أحرار، بل أيضاً قديسون، وليس فقط قديسون بل أبرار، وليس فقط أبرار بل أبناء، وليس فقط أبناء بل ورثة، وليس فقط ورثة، بل أخوة المسيح، ليس فقط أخوة المسيح، وإنما ورثة معه، ليس فقط ورثة معه، بل أعضاء، ليس فقط أعضاء، وإنما هيكل، ليس فقط هيكل، وإنما أدوات الروح القدس" (نفس المرجع السابق).

ونلاحظ انه في هذا النص بالذات قد وضع ذهبي الفم على الأقل تسعة استعمالات من رسائل بولس الرسول مع نص من القديس يوحنا: أحرار (يو ٨: ٣٦)، قديسون (رو ١: ٧)، أبرار (رو ٢: ١٣)، أبناء (رو ٨: ١٤)، ورثة (رو ٨: ١٧)، أخوة المسيح (مت ١٢: ٥٠)، ورثة مع المسيح (رو ٨: ١٧)، أعضاء (١كو ٦: ١٥)، هيكل وأدوات الروح (١كو ٣: ١٦).

وهذه التعبيرات بعينها تظهر عند القديس أميروسيوس، ففي مقدمة تعليمه على الأسرار يقول عن المعمودية: "إنها خلاص، شفاء، تطهير، خليقة جديدة، ميلاد جديد، تحول، استنارة".

فالمعمودية تشمل عمل الخلاص كله في كافة أبعاده، فهي التبرير والتقديس والخلق الجديد والتطهير والاغتسال والموت والدفن مع المسيح. ومن هذا نُدرك أن الحياة المسيحية الجديدة يجب أن توضع على أساس ما عمله المسيح ووهبه لنا بالروح القدس.

والنقطة الأساسية ليست في وحدة عمل المسيح وعمل الروح القدس فقط، بل أيضاً في إدراك حقيقة هامة، وهي أن الخلاص هو عمل الثالوث. وإن كنا لا نستطيع أن نفصل الولادة الجديدة عن الموت والدفن مع المسيح، أو أن نفصل التقديس عن الولادة الجديدة، فهذا في حد ذاته كافٍ لأنْ يشرح لنا بوضوح التعليم عن التوبة في الكنيسة الجامعة؛ لأن المعمودية كافية للتجديد، ولكن ما هو مطلوب هو أن نستمر نحن في البقاء في إطار عمل الله في المعمودية.

دور الطقس في شرح عمل الآب والابن والروح القدس في التغطيس:

شرح الآباء كيرلس الأورشليمي، أمبروسيوس، ذهبي الفم، طقس المعمودية باستفاضة. والشرح يؤكد كيف تحولت نصوص العهد الجديد إلى ممارسة كنيسة، وحسب القديس كيرلس سمع الموعوظون رسالة بولس إلى رومية ٦: ٣ – ١٤ في يوم السبت الكبير، ولكن هذا النص بالذات تحول إلى طقس، أي ممارسة تتم عندما ينزل الموعوظ إلى مياه المعمودية، ويغطس لكي يكون مدفوناً على شبه موت المسيح. يقول القديس كيرلس: "ألا تعلمون أنكم أنتم الذي اعتمدتم ليسوع المسيح قد اعتمدتم لموته فدُفنتم معه في المعمودية للموت" (تعليم الموعوظين ٢: ٦).

ويشرح القديس كيرلس ما قاله القديس بولس شرحاً طقسياً ساعده عليه الموقع الجغرافي لكنيسة القيامة التي شُيِّدت في نفس مكان الجُلجثة، ولكن مع ذلك فحقيقة الدفن مع المسيح لا تحتاج إلى أورشليم؛ لأن الآباء الآخرين يرددون نفس التعليم في

أماكن أخرى مثل أنطاكية وروما وميلان والإسكندرية. يقول القديس كيرلس: "بعد كلمات الوعظ التي استمعتم إليها، وبعد أن خلعتم ملابسكم ودُهنتم بالمسحة (زيت الإستقسام أو طرد الشياطين)، فإنكم تقادون من أيديكم إلى مغطس المعمودية الإلهية المقدس، وتصبحون مثل المسيح الذي حملوه من الصليب إلى القبر، أما القبر الذي أمامكم الآن فهو مغطس المعمودية" (تعليم الموعوظين ٢: ٤).

جُرن المعمودية هو القبر، وفيه تُدفن الطبيعة الإنسانية الميتة، ويقول القديس كيرلس عن هذا: "إن مخلصنا قضى ثلاثة أيام وثلاث ليال في بطن الأرض، وعندما تُغطسون في المياه تمثلون الليلة الأولى، وعندما يجيء الليل لا يرى الإنسان أي شيء بالمرة، وهكذا أثناء التغطيس. ولكن عندما ينقضي الليل يأتي النهار، هكذا عندما تُخرجون من الماء ترون النور" (تعليم الموعوظين ٢: ٤).

وهنا نرى أن الغطسات الثلاثة لا تعني أن الموعوظ عندما يعتمد يخرج من جُرن المعمودية تماماً، ولكنه يظل في الماء. أمَّا الأيام الثلاثة في "قلب الأرض"، وهو التعبير الذي جاء في مت ١٢: ٤٠، وهو أصلاً مأخوذ من قصة يونان النبي الذي قضى في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، فيفسره القديس كيرلس تفسيراً طبوغرافياً، لأن ما حدث للمسيح يحدث الآن للموعوظ، وفي نفس المكان الذي صُلب فيه المسيح وقُبر (نفس المرجع السابق).

لكننا سوف نرى أن الدفن يؤخذ بكل اهتمام في ميلان. وهنا وأثناء الكلام عن الدفن والموت، الثالوثُ حاضرٌ في التجديد. ولذلك من الخطأ اعتبار أن التجديد عمل منفصل عن الموت والقيامة مع المسيح في المعمودية، أو أنه يمكن أن يتم خارج المعمودية أو بدونها.

يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "لا يجب أن يفترض واحد منكم أن المعمودية هي مجرد نعمة لمغفرة الخطايا، أو أنها فقط تبنٍّ مثل معمودية يوحنا التي أعطت

مغفرة الخطايا، لا. أنتم تعلمون جيداً أنها بينما تطهر المعمودية من الخطايا، تعطينا المعمودية عطية الروح القدس، وهي أيضاً مثال كامل αντιτυπον لآلام المسيح، لذلك فإن بولس الذي سمعناه يُقرأ الآن، يصرخ بصوت عالٍ: ألا تعلمون، أنتم الذين اعتمدتم للمسيح يسوع قد اعتمدتم لموته... هذه الكلمات وبقيتها أعلنت أن المعمودية تخدم مغفرة الخطايا والتبني، ولكنها لا تقف عند هذا الحد، بل هي شركة لآم المسيح الحقيقية" (تعليم الموعوظين ٢: ٦).

وهنا يظهر بكل وضوح معنى وساطة المسيح، الذي بموته وقيامته أعطى الروح القدس. وهذا يكفي لأن نرى أن فصل التبرير عن التقديس هو أمرٌ لا ينسجم مع واقع سر المعمودية، كذلك فصل آلام المسيح وقيامته عن عمل الروح القدس هو جهل بما يعلنه العهد الجديد من حقائق.

يقول القديس كيرلس عن الشركة في آلام المسيح: "ما أعظم هذا الذي يحدث لنا. إنه يفوق الوصف، فنحن لا نموت، ونحن لا نُدفن فعلاً، ولا نُصلب فعلاً، ولكننا نتشبَّه بالمسيح. وما يحدث لنا هو مثال. ولكنه مثالٌ عن الخلاص الحقيقي. فالمسيح دُفن فعلاً، ومات فعلاً. وهذا ما وُهِبَ لنا، حتى أننا بالتشبُّه به نشترك في آلامه، فننال الخلاص الحقيقي. ما أعظم هذا العطف الفائق، المسيح تقبَّل المسامير في يديه الطاهرتين. وفي قدميه، واحتمل الآلام، أمَّا بالنسبة لي فبدون آلام ومعاناة، وإنما فقط بالشركة في آلامه أنال أنا الخلاص" (تعليم الموعوظين ٢: ٥).

وإذا درسنا النص اليوناني الذي استخدمه القديس كيرلس، فإننا نرى مجموعة كلمات ذات أهمية بالغة تشرح لنا سر المعمودية شرحاً وافياً. فالمسيح له المجد تألم في الحقيقة εν αληθεια أمَّا الموعوظ فهو يشترك في الآلام بالتشبه μιμησις، أي لا وجود بالمرة لمعاناة الجسد، وإنما الاشتراك في النتائج التي أدَّت إليها الآلام، وهو ما يجعل القديس كيرلس يقول: "إننا نشترك في شكل الآلام εν εικον". والشكل لا يعني بالمرة

العلامات والمظاهر، وإنما يعني المضمون، وهو الذي يجعل القديس كيرلس يقول بعد ذلك: "إن آلام المسيح الحقيقية تؤدي إلى خلاص في الحقيقة εν αληθεια ، أي خلاص له ذات المضمون الواقعي الذي لآلام المسيح" (تعليم الموعوظين ٢: ٥).

والتشبُّه بموت المسيح في المعمودية، يجعل إعادة موت المسيح على الصليب مستحيلاً، وإنما يشرح لنا بوضوح **أن ما حدث على الصليب حاضرٌ في السر؛ لأن صاحب السر، أي المسيح هو بنفسه حاضرٌ في المعمودية، وهو ما يجعل القديس كيرلس يقول بوضوح: "إننا غُرسنا معه"**. والكلمة اليونانية συμφυτος "المغروسين" والمقطع الأول συ يعني الإتحاد الوثيق، ولذلك يقول كيرلس: "هنا الكرمة الحقيقية قد غُرست" (تعليم الموعوظين ٢: ٧). والكرمة هنا هي خشبة الصليب، ولكن الغرس والاشتراك في الكرمة كغصن وهو صدى ليوحنا ١٥: ١ – ٨ يؤكد لنا أن المعمودية لا يمكن أن تقوم على جانب واحد فقط وهو الموت والقيامة مع المسيح، وإنما عطية الروح القدس ودوام البقاء في شركة الثالوث.

إذا ألقينا نظرة فاحصة على القديس أمبروسيوس، وجدنا أنه يسير في نفس الخط اللاهوتي الواضح. يقول أمبروسيوس: "ما هي المعمودية؟ أنتم تأتون إلى المغطس وتنزلون إلى المياه وتنظرون رئيس الكهنة واللاويين عند المغطس... وأنت تُسألون: هل تؤمنون بربنا يسوع المسيح وبصليبه؟ فتقولون: نعم نؤمن، وبذلك تُغطسون وتُدفنون مع المسيح؛ لأن مَن يُدفن مع المسيح يقوم مع المسيح. ومرة ثالثة تُسألون: أتؤمنون بالروح القدس؟ فتقولون: نعم نؤمن، فتُغطسون للمرة الثالثة. وهكذا بالغطسات الثلاث وبالاعترافات الثلاثة تُمحى خطاياكم الماضية الكثيرة" (تعليم الأسرار ٢: ٢٠).

وما نراه هنا أن الإيمان بالثالوث لا يمكن فصله عن رو ٦ الاشتراك في موت المسيح وقيامته. هذا نسيج واحد.

كيف يشرح أمبروسيوس هذه الوحدة الفائقة؟ يقول: "في البدء خلق الربُ الإله الإنسانَ؛ لكي إذا لم يتذوق الخطية لا يموت ذلك الموت. ولكنه أخطأ، فخضع للموت وطُرد من الفردوس. لكن الرب الذي أراد برحمته أن يزيل فخاخ الحية، وأن يمحو الضرر الذي أصاب الإنسان، تمم أولاً العقوبة فيه بقوله: "تراباً أنت وإلى التراب تعود" (تك ٣: ١٩). ولم يكن في قُدرة الطبيعة الإنسانية أن ترفع الموت... وهذا يعني أن الإنسان الذي دُعي للحياة عندما أخطأ بدأ يموت، وتمت فيه العقوبة، فكيف تغيَّر الموقف وقد مات الإنسان؟ لقد جاء المسيح ومات عِوضاً عن الإنسان ثم قام لكي يعيد للإنسان العطايا السماوية التي ضاعت بواسطة غواية الحية..." (المرجع السابق ٢: ١٧).

والنقطة الأساسية هنا، هي أن الإنسان احتاج إلى الحياة، واحتاج إلى مَن يرده إلى الحياة. ولكن متى يتحقق فداء الإنسان، ليس بعملية عقلية، وإنما بشركة حقيقية في موت المسيح وقيامته، **وهي شركة تفيد حضور المسيح الحي في سر المعمودية**. وهكذا يرى أمبروسيوس "أن العقوبة تتم فعلاً بموت الطبيعة الإنسانية في المعمودية "عندما يُغمر الجسد في المياه، وما هي المياه إلَّا ذلك العنصر الأرضي، وهي تعني أن العقوبة التي أوقعتها السماء تتم فعلاً، فعندما تُغطسون، تُمحى العقوبة التي قيلت تراب أنت وإلى التراب تعود، لأن العقوبة تُنفذ، وعندما تنفذ العقوبة، فإن النعمة الإلهية تجد طريقها كدواء شفى الطبيعة الإنسانية. فالماء من الأرض، وهذا يعني أن النعمة لا تجعلنا نحن المأخوذين من الأرض، نُدفن في التراب، لأن التراب لا يغسل بالمرة، أمَّا الماء فهو وحده الذي يغسل، ولذلك يصبح جُرن المعمودية قبراً" (تعليم الأسرار ٢: ١٩).

ويؤكد أمبروسوس أن الدفن حقيقي، ولكن الذي يجعله نعمةً وتجديداً هو موت المسيح، ولذلك يقول: "لقد سمعتم الرسول يقول إن مَن اعتمد فقد اعتمد لموت المسيح (رو ٦: ٣)، وموت المعمَّد هو موت ودفن في المعمودية. أمَّا موت المسيح، فله معنى خاص. ماذا تعني كلمة موت؟ كما أن المسيح مات، فنحن أيضاً نذوق الموت، وكما أن

المسيح مات للخطية ويحيا لله، هكذا نحن نموت عن خطايانا السابقة في سر المعمودية، ونقوم ثانيةً **بنعمة** المسيح" (مقالة عن الأسرار ٢: ٢٣).

وحضور نعمة الله في المعمودية هو الذي يجعل هذا السر الفائق موتاً للخلاص. يقول أمبروسيوس: "المعمودية هي موت، ولكن ليس موتاً يتم في الجسد، وإنما على شبه موت المسيح، وعندما تغطسون في المياه، تأخذون شبه الموت وتنالون شركة الصليب. لأن المسيح عُلِّق على الصليب وسُمِّر في جسده بالمسامير. أما أنتم فعندما تُصلَبون معه، فأنتم تُمسكون بالمسيح وتلتصقون بمسامير الرب يسوع المسيح فتمسك بكم مسامير المسيح" (عظة على الأسرار ٢: ٢٣).

إن آلام المسيح وموته وقيامته هي التي فتحت لنا الطريق إلى الآب والروح القدس، ولذلك لا يمكن فصل صيغة التعميد باسم الثالوث عن حقيقة اشتراك الإنسان في موت المسيح وقيامته. يقول أمبروسيوس: "لا تتعجبوا لأنكم اعتمدتم باسم واحد وهو اسم الإله الواحد، أي الآب والابن والروح القدس. فالاسم الواحد يعني جوهر اللاهوت الواحد. وهذا هو الاسم الذي قيل عنه كل مَن يدعو باسم الرب يخلص (أع ٤: ١٢). وبهذا الاسم أنتم جميعاً خلصتم وأتيتم إلى نعمة الحياة" (مقالة عن الأسرار ٢: ٢٢).

ويؤكد أمبروسيوس نفس الشرح بقوله: "فالآب يغفر الخطايا والابن يغفر الخطايا، وأيضاً الروح القدس، وباسمٍ واحدٍ اعتمدتم، أي اسم الآب والابن والروح القدس" (مقالة عن الأسرار ٢: ٢٢).

الميلاد الثاني والحميم الجديد هو اغتسالٌ بالدم والماء في المعمودية المقدسة. يقول ذهبي الفم: "أيها الأحباء لا تهملوا هذا السر، بل تأملوا التفسير السري... لقد قلت إنه توجد إشارة إلى المعمودية والأسرار الأخرى في الدم والماء، فالكنيسة نَمَتْ من كليهما، أي الدم والماء. ولذلك قيل إنها اغتسلت بحميم الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس أي المعمودية وباقي الأسرار" (تعليم الموعوظين، المجموعة الأولى عظة ٤: ١٧).

ولماذا باقي الأسرار؟ لأن عمل الله الثالوث هو عمل دائم يقوم به الآب بالابن في الروح القدس. ويشرح القديس يوحنا ذهبي الفم هذه الحقيقة بالعودة إلى فكرة العُرس الإلهي.

التغطيس في المعمودية عُرس الله والكنيسة الذي أخذ قوته من ميلاد المسيح من العذراء:

أراد ذهبي الفم أن يربط بين المعمودية والإفخارستيا، وهو ربطٌ هام وله دلالة عقائدية؛ لأن المعمودية تؤدي إلى الإفخارستيا. يقول ذهبي الفم: "هل رأيتم كيف يجعلنا المسيح نتَّحد به كعُرس له. هل رأيتم بأي طعام يغذينا جميعاً، إنه هو بذاته الطعام. هو بذاته صار ما نغتذي به، وكما أن الأم تُغذِّي وليدها بدمها ولبنها، هكذا أيضاً المسيح يغذِّي الذين ولدهم بدمه" (تعليم الموعوظين المجموعة الأولى ٤: ١٩).

فالعُرس يخلع فيه العريس ثيابه ويستر بها العروس، وهو يفعل ذلك لأن المعمودية تبريرٌ وتقديس "هل كنا نتوقع هذا الذي يحدث؟ أبداً. لقد حدث شيءٌ غير متوقع. فقد جاء التبرير بدون مخاض وآلام وعرق أو أعمال صالحة" (المجموعة الثانية ١: ١٩).

فالولادة مثل العُرس، وهي تطهير وتبرير. وكل هذه المعاني لا يمكن فصلها؛ لأنها إذا فُصلت شوَّهت صورة الخلاص. يقول ذهبي الفم: "لماذا يسأل البعض إذا كان الحميم ينزع خطايانا؟ أليس لأنه يُدعى حميم مغفرة الخطايا، أو حميم التطهير، أو حميم الميلاد الثاني. والسبب في ذلك لأنه لا يطهرنا فقط من خطايانا، وإنما يجددنا كما لو كنا قد وُلدنا من جديد، ففيه خلقة جديدة، وفيه نتصور من جديد ليس من عنصر أرضي، وإنما من عُنصر سماوي في الماء وبالروح" (المرجع السابق:٢٠).

إذن الميلاد الجديد الذي يتم في المعمودية هو التبرير، وهو الاغتسال. فهل يقف الآباء عند حدث الجلجثة العظيم، أي موت المسيح على الصليب ليُصبح هو الحدث الذي يُغطي على كل شيء سواه، بما فيها القيامة؟

يشرح ذهبي الفم هذه النقطة بوضوح ويعود إلى ميلاد المسيح من العذراء ويقول: "كان من المستحيل على العذراء أن تحبل بقوة طبيعية، وإنما حبلت بقوة الروح القدس. وكذلك يأتي الروح القدس إلى مياه المعمودية، وإلى المعتمد لكي يلده من جديد. دعوني أشرح لكم هذا الميلاد السري الذي لم يشهده أحد من البشر... فالذي يضبط كل الأشياء، أتى إلى أحشاء العذراء، وأخبروني كيف وبأي وسيلة؟ إنكم لا تستطيعون أن تشرحوا، ولكن إذا آمنتم فإن إيمانكم يجعلكم قادرين على أن تفهموا هذا الميلاد السري كاملاً، فالإنجيلي متى الذي كتب عن الميلاد من العذراء لم يفهم كيف حدث الميلاد، بل قال: "وُجدت حُبلى بطفل بالروح القدس" (راجع مت ١: ١٨). ولم يشرح لنا كيف ولدت هذا، ولا حتى جبرائيل استطاع أن يشرح واكتفى بالقول: "الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تُظللك" (لو ١: ٣٥). وهكذا أجزنا بالسر دون أن يشرح الكيفية" (تعليم الموعوظين، المجموعة الأولى ٣: ٣).

وقد مر بنا كيف يؤكد إمبروسيوس نفس المعنى السابق.

الحالات التي سمحت فيها الكنيسة بالرش أو السكب:

التغطيس هو القاعدة التي اتبُعت دائماً في التعميد، ولم تسمح الكنيسة بالرش أو السكب إلَّا في حالاتٍ نادرة، وهي حالة المرض الشديد الذي تخشى فيه الكنيسة من تعميد المريض بالتغطيس. وقد أكد القديس باسيليوس هذه الممارسة في القانون ١٠٥. وفي حالة نُدرة المياه كان الرش أو السكب يُتَّبع حسب شهادة الديداكي (ف ١: ٢ – ٣).

واستخدم الرش في شمال أفريقيا في أماكن القبائل الرُّحَّل كقاعدة عامة للتعميد في زمن كبريانوس.

لكن شدّد القانون ١٢ من قوانين مجمع قيصرية الجديدة في عدم رسامة الذين اعتمدوا على فراش المرض أو الموت وعاشوا بعد ذلك، لأنهم لم ينالوا المعمودية إلَّا بسبب الضرورة. ولعل أشهر شخصية اعتمدت على فراش المرض ورُسِم قساً ثم قاد الكنيسة إلى انقسام، هو القس الروماني نوفاتيان (تاريخ الكنيسة – يوسابيوس ك ٦: ٤٣).

انتهى الكتاب الأول، ويليه الكتاب الثاني الميرون

لقد جاء الوقت الذي يتعين علينا فيه أن نعرض أصالة ما عندنا من طقوس كنيسة تنتمي بكل يقين إلى التسليم الرسولي الذي ذاع في الكنيسة الجامعة، عندما كانت القواعد اللاهوتية للطقوس في الشرق والغرب واحدة، رغم اختلاف قليل في الترتيب الطقسي.

هذه الدراسة تكشف عن أصالة الترتيب الطقسي في الشرق، وتهدف بشكل خاص إلى أن تؤكد أن ما عندنا اليوم من طقوس خاصة بالمعمودية في الكنيسة القبطية لا يختلف في الجوهر أو الألفاظ عما كان معروفاً في زمن الآباء، لاسيما آباء الإسكندرية. وأجزاء من هذه الدراسة كُتبت كجزء من الدراسة الخاصة بالدكتوراه التي قُدِّمت إلى جامعة كامبريدج عام ١٩٧٠، ومع هذا فقد أُضيف إلى هذه الدراسة الكثير ليتمكن القارئ غير المتخصص من الإطلاع عما كان يدور في الكنيسة في القرون الخمسة الأُول.

وسوف يتبع هذا الكتاب، كتابين عن الجوانب اللاهوتية الخاصة بالمعمودية. وقد قصدنا من نشر الجانب الطقسي أن تساعد الجوانب الطقسية على فهم العقيدة، ومع هذا فقد أعطينا لدراسة العقيدة إهتماماً خاصاً في داخل هذا المجلد لأن الطقس لا يمكن فهمه بدون العقيدة.